بسم الله الرحمن الرحيم

إسطنبول: ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م

إسطنبول: ١٤٣٢/ ٢٠١١

اسم الكتاب باللغة التركية: Nebîler Silsilesi -1

اسم الكتاب بالعربية: سلسلة الأنبياء -١

الترجمة للعربية: د. وسيم إبراهيم بكراكي؛ د.عبد الله قلبلك

مراجعةو تصحيح وتدقيق: الدكتور.آدم أقيـــن

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN: ٩٧٨٩٩٤٤٨٣٣٨١٣

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

العنوان:

ERKAM
YAYIN VE SAN. MAM. SESLİ VE GÖRÜNTÜLÜ
YAYINLAR, BİLGİSAYAR ÜRÜN İM. VE TİC. AŞ.

Adres: Organize Sanayi Bölgesi Turgut Özal Cad.
No: 117 Kat:2/C Başakşehir / İstanbul
Tel: (0090 212) 671 07 00 Pbx Faks:(0090 212) 671 07 48
www.worldpublishings.com/sa

في ضوء القرآن الكريم

سلسلة الأنبياء

-١-

تأليف

عثمان نوري طوباش

ترجمة

د. وسيم إبراهيم بكراكي

د.عبد الله قلبلك

مراجعة وتصحيح وتدقيق

الدكتور. آدم آقيـــن

إهداء

إلى الروحانيات العالية لسلسلة الأنبياء و الأولياء وعلي رأسهم جميعاً نور الوجود و الرحمة المُهداة، فخر العالم نبينا الحبيب ﷺ . . .

مُقدِّمة

يقدم اللّه ﷻ العون لعباده حتى يصلوا إلى الهداية، بإلقاء تلك المسؤلية على أُناس من بينهم ممن لهم صفات الصلاح بالإضافة لما اختصهم به اللّهً ﷻ من أخلاق رفيعة، حتى يقوموا بدور المُرشد و المُوَجِّه للناس. و أكرمهم سبحانه و تعالى بالوحي و جعلهم أنبياء. و أمر اللّه ﷻ هؤلاء الرسل المباركين الذين يمثلون قدوة للأمم، بثلاثة أمور:

أ- أن يتلوا آيات اللّه و يبلغونها.

ب- أن يُطهروا أنفسهم و يزكونها.

ج- أن يُعلموا الناس الكتاب و الحكمة.

و بدأ اللّه سبحانه بآدم عليه السلام حتى تكون الكيفية التي يتم بها إرسال الرسل الذين يمثلون مساعدة ربانية استثنائية للناس، حتى تكون شاملة للإنسانية كلها. فكان آدم عليه السلام هو أول إنسان و أول نبي في الوقت نفسه.

و إن ظل هذا الطريق المبارك للهداية الذي أيده و قوّاه اللّه ﷻ بسلسلة من الأنبياء بلغت مائة و عشرين ألفاً و نيِّفاً، فإنه لم يجد الكمال إلا بمجيء سيدنا النبي ﷺ مُتّبعاً لمسيرة تكامل وتعادل الإرتقاء الذي حققته البشرية. لقد أكرم اللّه ﷻ الإنسانية كلها

بمجيء النبي ﷺ، فهو مرشد الهداية لها حتى قيام الساعة، و هو الذي أبهر المؤمنين و أعجز الكافرين بما فيه من معجزات.

لقد أُرسل القرآن الكريم لهداية الناس كي يمنحهم السعادة في الدارين؛ الدنيا و الآخرة. و حتى يتحقق هذا المقصد، فإنه يتعرض للكثير من الموضوعات. و نجد قصص الأمم السابقة من أكثر الخصوصيات القرآنية أهمية والتي تخدم هذه الغاية.

و هناك حكمة من وجود القصص في القرآن الكريم مثل تحذير الناس من الوقوع في الضلال و حثهم على العبودية للّه ﷻ بواسطة الأحداث التي لا تخلو من العبر و العظات التي عايشها الأقوام السابقين. فيتجسد في القرآن الكريم السلوك الضال و ما يقابله من تجلٍّ للعدالة الإلهية، كما يتجسد السلوك القويم و ما يقابله من مكافآت باعثة على السعادة. و هو الأمر الذي يخدم غاية أخرى مثل الترغيب في الأعمال التي تصل بالإنسان إلى السعادة، إلى جانب أخذ العظة و الدرس للحذر من الأخطاء المماثلة.

لقد أولى القرآن الكريم أهميةً كبيرةً للإرشاد بواسطة قصص الأمم السابقة. و يتضح ذلك من إفراده مساحةً واسعةً للغاية من القرآن الكريم بلغت الثُلث لمثل هذه القصص.

يقول مولانا جلال الدين الرومي - قُدس سره - في معرض حديثه عن أهمية هذه القصص:

"القرآن الكريم هو حال و وصف للأنبياء. فإذا أنت قرأت القرآن الكريم بخشوع و طبقت ما جاء فيه، فكأنك التقيت بنفسك مع الأنبياء و الأولياء. فكلما قرأت قصص الأنبياء كلما بدأ قفص الجسم يصير ضيقاً على طائر الروح!"

"ونحن لن نتحرر من قفص هذا الجسد إلا بهذه الوسيلة. فلا يوجد مفر للخلاص من هذا القفص سوي بهذا الطريق أي طريق التوحيد!..."

" ألم تر ما فعلته الريح بقوم عاد؟ ألم تسمع عمّا فعله الماء في الطوفان؟"

"ألم تر كيف أهلك بحر الحقد ذلك (البحر الأحمر) فرعون، و كيف خُسفت الأرض بقارون..."

"ألم تر ما فعلته الطيور الأبابيل بجيش الفيل، ألم تسمع كيف أكلت ذبابة صغيرة للغاية مخ نمرود الذي ادعى الإلوهية..."

"هل تعرف كيف أمطرت السماء حجارةً فوق قوم لوط الفاسقين و كيف دُفنوا في الظلام تحت ماء بحيرة ملوث؟"

"و ماذا لو تحدثتُ بإسهاب عن العون الذي قدمته الجمادات التي نظن انه لا روح فيها للأنبياء..."

"كم كان المثنوي عظيماً كبير الحجم لدرجة تعجز معها أربعون ناقة عن حمله..."

وقد تناول القرآن الكريم في هذه القصص تبليغ الأنبياء للرسالة و موقف أمة كل نبي منهم، و ذلك لتقوية عقيدة التوحيد في القلوب.

و يمكن تلخيص الهدف من القصص في شكل يتناسب مع الغاية من نزول القرآن الكريم، على النحو التالي:

يمكن القول أن الهدف من وجود القصص في القرآن الكريم هو إثبات نبوة سيدنا النبي ﷺ و بيان أن كل الأنبياء قاموا بنشر عقيدة التوحيد، و حتى يأخذ المُخاطبون بحديث القرآن الكريم العبرة و العظة و حتى يثير انتباه القلوب فتُغبِط الصالحين و تنحو نحوهم و يحذر الناس من الفاسقين. و هو بذلك يُعلِّم الناسَ أن يصبروا متخذين المثل في ذلك من الأنبياء الذين عانوا المحن و الإبتلاءات.

و يضم هذا الكتاب الذي بذلت أنا العبد الضعيف الجهد في تأليفه بتوفيق و لطف من اللّه، يضم الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم من أول صفحة فيه حتى آخر صفحة و ما في حياتهم من حكم و عِبر. فيحتوي هذا المؤلف:

سيدنا آدم عليه السلام الذي أُمرت الملائكة بالسجود إليه.

إدريس عليه السلام الذي حمل سر الإعجاب السماوي.

نوح عليه السلام الذي تطهرت الأرض من الكفر في عصره بالطوفان.

هود عليه السلام نبي قوم عاد الذين سوّت الريح العاتية بدارهم الأرض.

صالح عليه السلام نبي قوم ثمود الذين اهتزت ديارهم الفارهة بالزلازل.

إبراهيم عليه السلام الذي حوّل بخضوعه لأمر اللّه نيران نمرود الظالم إلى بستان من الورود.

إسماعيل عليه السلام الذي صار بإخلاصه و صدقه و توكله و تسليمه لأمر اللّه مثلاً أعلى. و سيظل يُذكر بين المؤمنين حتى يوم القيامة.

إسحاق عليه السلام الذي جاء من نسله بني إسرائيل.

لوط عليه السلام النبي الذي ظل يدعو قومه الطغاة الفاسقين للهدايه حتى اللحظة الأخيرة.

ذو القرنين عليه السلام الذي حمل راية التوحيد من الشرق إلى الغرب.

يعقوب عليه السلام الذي انكوى بنار الشوق و المحبة و صار مثلاً أعلى في الصبر.

يوسف عليه السلام الذي صار بنوره الذي يوازي نور البدر سلطاناً لمصر و للقلوب بعد ما مر به من الأسى و محنتي العبودية و السجن و اغترابه عن بلده و إحساسه بالوحدة و الألم و مجاهدته للنفس.

شُعيب عليه السلام الذي لُقِّب بـِ"**خطيب الأنبياء**" بخطابته التي أسرت القلوب.

موسى عليه السلام الذي أغرق بعصاه المُعجزة فرعون الأحمق في دوامات البحر الأحمر

هارون عليه السلام الأخ الصالح الذي صار عوناً لسيدنا موسى عليه السلام.

داود عليه السلام الذي جيّش بأذكاره الجبال و الحجارة و حتى الحيوانات المتوحشة.

سليمان عليه السلام الذي لم تستأثر ثروته و جاهه و سلطانه العظيم في الدنيا على قلبه.

عُزير عليه السلام الذي أحياه اللّه بعد مائة عام ليكون مثالاً لإحياء الموتى يوم القيامة.

أيوب عليه السلام الذي صبر على البلاء بتَفكُّره العميق.

يونس عليه السلام الذي جاشت نفسه فتخطى الظلمات و تعمق في حقيقة الذكر و الدعاء.

إلياس عليه السلام الذي خلّف من بعد ذلك شهرة بقول اللّه عزّ و جلّ عنه " سلام على إلياس"

إليسع عليه السلام الذي رُفع على العالمين.

ذو الكِفل عليه السلام النبي الصالح الذي استحق رحمة اللّه.

لُقمان الحكيم عليه السلام شيخ الحكماء ظاهرهم و باطنهم.

زكريا عليه السلام النبي الذي ظُلم و ظل متوكلاً خاضعاً لأمر اللّه و لم يَتَأَوَّهْ و القوم يشُقونه بالمنشار.

يحيى عليه السلام الذي لقي الشهادة مثل أبيه.

عيسى عليه السلام الذي زكى نفسه و كان يشفي المرضى و يحيي الموتى بتضرعه و لجوئه إلى اللّه عزّ و جلّ.

و الخلاصة هي أننا قد بذلنا الجهد كي ننقل شرارة الحكمة من الأحداث التي مر بها كل الأنبياء و أممهم، حتى يمكن أن تكون مداراً يدرك منه الناس في زماننا احتياجاتهم الروحية و ما يمر بهم من محن فتضيء لهم مثل هذه الأحداث أي لَبْس قد يحدث. و في الوقت نفسه حاول العبد الفقير بإمكانياته المحدودة و بما أسعفته قدرته أن يبين أن الأنبياء قد كُلفوا بتجهيز و إعداد الأرضية البشرية على شكل قافلة من المبشرين (حاملي البشرى) في تسلسل يعقب أحدهما الآخر، من أجل نقطة كمال النبوة التي سيرسلها اللّه هداية للعالمين، من أجل نور الوجود و سر الخلق من أجل محمد ﷺ.

لقد تم إعداد كتابنا " سلسلة الأنبياء " ليكون أكثر تفصيلاً وأدق دلالة بناءً على رغبة عامة لذلك. و إني لأتوجه بالشكر الخاص لأصدقائي الأكاديميين و أعضاء اللجنة الذين بذلوا الجهد في إعادة تجهيز الكتاب على هذا الشكل، و أرجو من اللّه ﷻ أن يتقبل هذا العمل صدقةً جاريةً منا.

أعوذ برحمة اللّه و مغفرته التي لا حدود لها و أتضرع إليه أن يسامحني لخطأ أو سهو وقع مني تقصيراً أو سهواً.

و ما التوفيق إلاّ من عند اللّه ﷻ ...

عثمان نوري طوبّاش
١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م
أسكدار – اسطنبول

مدخل

الحمد للّه ﷻ الذي رزق عباده الضعفاء نشوة الإيمان و طمأنينته!

و الصلاة و السلام على سيد الخلق الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور!

أهمية القصص في القرآن الكريم

يُحدّثنا المولى ﷷ في القرآن الكريم عن حقائق التبليغ و الحكمة الإلهية بذكر خبر عن الأمم السابقة. و ينتهج القرآن الكريم في هذا أسلوب القص، و هو أسلوب يسهل على البشر إدراكه و فهمه. يقول اللّه ﷷ:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف، ٣)

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود، ٤٩).

﴿وَكُـلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود، ١٢٠)

الهدف من وجود القصص القرآني

كان لوجود القصص في القرآن الكريم أهمية كبيرة لتحقيق مجموعة من الأهداف المتصلة بالدين. و تعرض هذه الغايات لمحتوى محيطي واسع. لأن الغاية من هذه القصص تضم كل الأهداف و الغايات التي يدعو إليها القرآن تقريباً. فهي تضم أهداف مثل إثبات الوحي و النبوة و إثبات وحدانية اللّه تعالى و الوحدة بين الأديان و عدم وجود تعارض بينها و الترهيب و الترغيب و بيان الأماكن التي تجلت فيها قدرة اللّه ﷻ و الخير و الشر و الصبر والتذمر و الشكوى و الشكر و جحود النعمة بالإضافة إلى عدد آخر من القيم والغايات الدينية و الأخلاقية التي عَمدتْ القصص القرآني إلى توضيحها و الحض عليها.

و يمكن تلخيص الأهداف والغايات الواضحة والمهمة للقصص القرءانية كما يلي:

١- إثبات و توضيح أسس الإيمان.

٢- إثبات الوحي و الرسالة.

لقد كان نبينا ﷺ أُمياً لا يعرف القراءة و الكتابة. و لم يُعرَف عنه أنه جالس أو تسامر مع أحبار اليهود أو قساوسة المسيحيين. و على الرغم من هذا فقد نزل عليه القرآن الكريم به قصص أذهل المسيحيين و اليهود جميعهم. و قد فسرت القصص القرءانية في

بعض مواضعها تفسيراً عميقاً ودقيقاً للأحداث؛ كما هو الحال في قصص إبراهيم و يوسف و موسى و عيسى عليهم السلام. وكثيراً ما يفصح القرآن الكريم عن تلك الغاية و ذلك الهدف سواء أكان ذلك في بداية تناوله لقصة من القصص أو في نهايتها:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ. وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ. وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (القصص، ٤٤ – ٤٦)

٣- التأكيد على أن كل الأديان من آدم عليه السلام حتى نبينا صلى الله عليه وسلم هي جميعاً من عند اللّه، و أن المؤمنين كلهم أمةٌ واحدةٌ، و أن ربهم جميعاً هو اللّه وحده لا إله غيره.

٤- بيان النعم التي أنعم اللّه عز وجل على أنبيائه و من اصطفى من عباده.

٥- التحذير من الشيطان بوصفه العدو الأزلي لبني آدم.

يقول اللّه عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ. إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة، ١٦٨- ١٦٩)

٦- الترويح عن رسول اللّه ﷺ و المؤمنين كافة و تثبيت قلوبهم على الإيمان، و تقديم اللّه ﷻ العون لكل الأنبياء و إهلاك المكذبين.

و لهذا أيضاً مقصد آخر و هو شد أزر نبينا ﷺ و شد عزيمة من آمنوا به.

٧- ضمان تربية و تزكية النفوس بشكل تدريجي.

و هناك عدد آخر كبير جداً من الغايات و الأهداف للقصص القرءانية. من هذه الغايات إثبات أن اللّه ﷻ قادر على كل شيء لا تعجزه الخوارق و أظهار القصص القرءانية لهذا لهو من الأمر المهم. مثال ذلك خلق اللّه ﷻ لآدم عليه السلام من العدم و خلقه ﷻ لعيسى عليه السلام من دون وجود أب.

خلاصة القول أن اللّه ﷻ يُرشد بني آدم عن طريق القصص القرءانية إلى عدد لا حصر له من التعاليم العلوية الواضحة. فيشير إلى ما تَميَّز به كل نبي من الأنبياء و يُسكنها عقول البشر و إدراكهم. مثال ذلك:

لو أننا نظرنا إلى حياة سيدنا نوح عليه السلام؛ لوجدنا أنه لم يَلق سوي نظرة البغض من أرباب الكفر بدون سببٍ غير أنه دعاهم للإيمان و تحمّل و صبر على آذاهم.

أما سيدنا إبراهيم عليه السلام فقضى حياته يحارب بلا هوادة ضد الشرك و يحاول القضاء على عبادة الأوثان، فأصبح نموذجاً فريداً

في التسليم لأمر اللّه ﷻ و توكله عليه، فحوّل اللّه ﷻ له نار نمرود إلى بساتين.

و قضى سيدنا موسى عليه السلام حياته يحارب فرعون و أعوانه، وأسس بعد ذلك بنصرته للحق لنظام اجتماعي بين المؤمنين.

ووُصِف سيدنا عيسى عليه السلام بأن له قلباً رقيقاً ملؤه الشفقة والرحمة في تعامله مع المؤمنين. كما لفت الإنتباه بتواضعه و حبه للعفو عن الناس.

أما سيدنا سليمان عليه السلام، فعلى الرغم من أنه حكم سلطنة مبهرة صارت حديث الألسنة، إلا أنه ارتقى في عبوديته للّه ﷻ و حافظ على قلبه متواضعاً شاكراً.

و أيوب عليه السلام الذي صار في حياته مظهراً عالياً في الصبر على البلاء و شكر اللّه ﷻ في كل الأحوال.

و حياة سيدنا يونس عليه السلام التي كانت مثالاً كاملاً أظهر اللجوء إلى اللّه ﷻ و الندم على فعل الذنب.

وسيدنا يوسف عليه السلام الذي كان في ذروة التعلق باللّه ﷻ والدعوة إليه حتى وهو في الأسر سجيناً. و عرض مثالاً عظيماً للعفة حتى في الوقت الذي دعته إليها امرأة جميلة ذات مال و جاه، امرأة تملكت منها الغريزة و هي تقول له "هَيْتَ لَكَ". فكان قلبه الذي زُيِّن بتقوى عالية، مصدراً عظيماً لكمال السلوك.

و سيدنا داود عليه السلام الذي امتلأت حياته بصفحات من العبرة و العظة أمام العظمة الإلهية. و كم هي كثيرة تلك العبر المستقاة من حمده و ثنائه و ذكره و تضرعه للّه عز وجل ساكباً دموع عينيه.

أما سيرة سيدنا يعقوب، فكانت نموذجاً عظيماً في التعلق باللّه و الصبر الجميل بدلاً عن الوقوع في اليأس في وقت أظلمت الدنيا من أمام عينيه، إلا أن أمله لم ينقطع من رحمة اللّه عز وجل.

أما حياة سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم فقد شملت الجميع بكماله و سموه بشكل تعجز الكلمات عن وصفه.

و الخصوصيات التي تُميز القصص في القرآن الكريم:

و يلفت القرآن الكريم الإنتباه إلى جوهر الأحداث. ولا يولي اهتماماً كبيراً لعنصري الزمان و المكان و أسمائهما. لأن الدخول في تفاصيل لا تخدم الغاية الأساسية من القصص من شأنه أن يزج بالمسألة في تفرعات لا طائل من ورائها و يجعل من العسير إدراك الهدف منها.

و ها هي خصوصية أخرى تجذب الإنتباه في القصص القرءانية:

فالقرآن الكريم إذا نقل لأي سبب من الأسباب قصة ما، فإنه يتناول الجزء الذي يحتوي على المقصد فقط. و لأن القرآن الكريم يولي الإهتمام بالغاية الدينية من القصة، لذا نجده لا يُلقي بالاً للتسلسل التاريخي، فيبدأ القصة من أولها أو منتصفها أو حتى من

آخرها. و لا يترك القرآن الكريم الشخص المُخاطب يذهب بوقائع القصة بعيداً و يتعمق فيها؛ بل يوزع الإرشاد الديني و الحكمة و العظة في فواصل مختلفة.

و يستهل القرآن الكريم القصص بصفة عامة بمقدمة تجذب المُخاطَب. أي أنه لا يقدم الحوادث بشكل جاف يدعو إلى النفور منها. بل و على العكس من ذلك يعمد إلى تقديم الأحداث في شكل مجسد يمتلئ بالحركة و الحيوية. و تحتوي معظم التعبيرات القرآنية على صور تمثيلية. و يعرض المشاهد المهمة بوضوح تام؛ و يترك كثيراً من التفرعات الأخرى التي تحتويها القصة لفكر و خيال المُخاطب.

و تتضح هذه الحقائق كلها في القرآن الكريم عن طريق التكرار.

الحكمة من التكرار

و التكرار هو أحد أهم سمات القصص القرءانية. فتغلب صفة التكرار في القصص القرءانية بشكل أكبر من المواضيع الأخرى التي يتعرض لها القرآن الكريم. و التكرار المقصود هنا ليس تكراراً تاماً بمعنى انه يأتي بأسلوب يحتوي على تفاصيل مختلفة عن المرات السابقة.

لذلك فكل تكرار هو وسيلة لإستنباط عبر و عظات جديدة. و يفتح آلاف النوافذ العلوية من القلب نحو العوالم الغيبية. فعلى

سبيل المثال لقد تكررت مسألة عدم سجود إبليس لآدم عليه السلام سبع مرات في القرآن الكريم. و في كل مرة يلفت القرآن الكريم الإنتباه إلى واحدة من حيل و دسائس إبليس اللعين.

و تتضح الحكمة من التكرار في الآيتين الآتيتين:

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾ (طه، ١١٣)

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات،٥٥)

إن المقصد الأساسي من التكرار هو تقديم المراد و لكن بأساليب مختلفة. لهذا السبب لم تتكرر الأحداث العادية. فعلى سبيل المثال لا نجد تكراراً لحوادث ميلاد و شباب و زواج موسى عليه السلام. و على النقيض من ذلك تكررت حادثة المباراة التي أقيمت بين موسى عليه السلام و السحرة من بني إسرائيل لأن بها خصوصيات مهمة لهدف الرسالة.

و من ناحية أخرى، فإننا لو قمنا بتجميع كل المعلومات الخاصة بشخص واحد و التي وردت في أماكن مختلفة، فإننا سنشاهد بناءً كلياً متكاملاً بخصوص تلك الشخصية. و بذلك فهو يعرض كل قصة من القصص في وحدة متكاملة ذات موضوع واحد متوافق العناصر لا تضاد فيها أو اختلاف فيه.

و تكرار المعنى هو الذي يهم أكثر في القصص القرءانية. فالهدف الأساسي من ذلك هو نقش الغايات الإلهية العلوية على الأرواح و القلوب. فالإنسان يفهم و يدرك المسألة بشكل أفضل إذا تكررت بأسلوب تعبيرين مختلفين. و هذا يشير أيضاً إتباع كتاب اللّه لأسلوب تعليمي إلهي يتناسب مع الطبيعة النفسية للبشر.

و يعبر التكرار عن المعنى نفسه و لكن بقوالب و أساليب متعددة، و القرآن من المعجزات الإلهية التي أنزلها اللّه ﷻ و أن البشر لا طاقة لهم أن يأتوا بمثله.

و أحياناً ما يكون التكرار للتفصيل، أو للإجمال في أحيان أخرى. و قد عمد القرآن الكريم إلى إتباع هذا الأسلوب حتى يتمكن من خطاب كافة المستويات الذهنية المختلفة. لأن هناك من الناس من يهتم بالإجمال و البعض الآخر يفضل التفصيل. و لأن القرآن الكريم يخاطب الإنسانية جميعها بعوامها و خواصها. و بذلك يستطيع الناس من أي مستوى و طبقة و مرتبة و أي قدرة عقلية، يستطيعون أن يستفيدوا مما جاء فيه.

لقد عمد القرآن الكريم إلى تكرار الكلمات و الجمل حتى يضمن تحقيق كل صفة من صفات البلاغة مثل إثارة الدهشة و الحيرة و إفادة التحذير. مثال ذلك ما جاء في سورة "القارعة" فنجده يكرر كلمة القارعة ثلاث مرات، و هو في ذلك يستثير خيال المُخاطَب ليجعله يشعر بفزع القيامة.

و الحال نفسه في سورة الرحمن فنجده بعد أن يُعدّد النِعم التي خلقها اللّه ﷻ للإنس و الجن، نجده يقول:

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

و يظل يكرر نفس العبارة واحداً و ثلاثين مرة، و هو بذلك يريد أن يزيح ستار الغفلة عن العباد و يحثهم على الإعتراف بالنعم الإلهية و تذكيرهم أن يشكروا اللّه ﷻ على نعمائه.

إضافة إلى أن أسلوب قراءة هذه الجملة المكررة واحداً و ثلاثين مرة في ثنايا سورة الرحمن بشكل طمأنينة دون ملل أو ضجر، هي خصوصية استثنائية لا نظير لها في الأدب العربي.

وفي سورة المُرْسلات يكرر القرآن الكريم ﴿**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ**﴾ عشر مرات. و تأتى هذه الآية بعد آيات تحدث فيها عن كثير من الحقائق الإلهية و يخبر أنه من يكذب بهذه الحقائق ستكون عاقبته الخسران المبين و سيلقى عذاباً أليماً.

لهذا السبب كان المفسرون كُلّمَا تعرضوا لمثل هذه الآية، كانوا ينظرون إلى المعاني الواردة قبلها و يفسرونها قائلين:

"ويل لكل من يكذب بيوم الدين و آيات اللّه ﷻ و قدرته المطلقة و نعمائه التي لا تُعد و لا تحصى، ويل لكل من يكذب بجهنم التي هي محل العذاب و بالجنة التي هي محل الثواب.!".

و القرآن الكريم هو كتاب للدعاء و الذكر و هو المرشد الذي يهدي الناسَ للحقيقة. و لا يكون الدعاء و لا يظهر ولا يصبح له تأثير إلا بالتكرار.

فتكرار قراءة الفاتحة في كل ركعة من الركعات في الصلاة، و تسبيحنا دبر كل صلاة عدداً مختلفاً مثل ثلاث و ثلاثون و تسع و تسعون و مائة و عشرة مراتٍ و تسبيحنا في الركوع و السجود، كلها أمور مباركةٌ الهدف منها طبعها جميعاً بشكل جيد داخل القلب.

و كما أنه من شأن هذه العبادات النوعية تقوية الصلة بين العبد و ربه، فإن الصلوات الشريفة من شأنها كذلك تقوية الرابطة مع رسول اللّه ﷺ. و سيأتي يوم تُؤمِّن فيه هذه الأذكار التي تتكرر بكثرة، انتقالها في القلب و في الإدراك إلى حقيقة الذكر.

جاء رجل إلى جُنيد البغدادي - قُدس سره - و سأله قائلاً:

- أستاذي، ما معنى "لا إله إلا اللّه"؟

فأجابه هذا الرجل العارف باللّه ﷻ و قال:

- "أكثر من تكرار هذه الكلمة كثيراً يا بني حتى تصل إلى معناها الحقيقي".

و من ناحية أخرى هناك تأثيرات مختلفة و متنوعة لسور القرآن الكريم التي تتكرر بتلاواتها القرآنية بنغمتها القلبية و اللغوية.

لذلك قال سيدنا النبي ﷺ متحدثاً عن فضل الآيات الثلاثة الأخيرة من سورة الحشر:

"من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ باللّه السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر ،وكَّلَ اللّهُ به سبعين ألف مَلَكٍ يصلّون عليه حتى يمسي،وإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً، ومن قالها حين يُمسي كان بتلك المنزلة" (الترمذي، فضائل القرآن، ٢٢، ٢٩٢٢)

و يضم القرآن الكريم عدداً كبيراً جداً من التجليات المشابهة لذلك فمثلاً من قرأ سورة الواقعة فلن تُصيبَه الفاقة، و هناك آيات أخرى إذا قرأها المرء شُفي من الحسد.

و لأن القرآن الكريم من ناحية اللفظ و المعنى هو نفحة إلهية، لذلك ينال الإنسان كسباً معنوياً من تكرار الآيات سواء أكان المحتوى هو نفسه أو بتكرارها بألفاظ مختلفة و الموضوع هنا هو تأثير ذلك التكرار على الناحية المعنوية للإنسان وعلى الناحية المادية له أيضاً في نطاق من الإرادة الإلهية. و لعل حادثة سيدنا على ﷺ مع البدوي من أفضل الأمثلة التي تعرض الحاجة إلى القوام القلبي الذي نتحدث عنه:

قصد أحد الفقراء من البدو ذات يوم سيدنا عليّا طالباً الصدقة. و لم يكن لدى سيدنا علي ﷺ في تلك اللحظة شيء يعطيه إياه،

فأخذ حفنة من الرمل و نفخ فيها و هو يقرأ أشياءً. ثم سكب ما بيده من رمل في كف البدوي و قد صار ذهباً. فتملكت البدوي الدهشة لما رأى، و توسل إلى سيدنا علي ﷺ أن يفسر له كيف تحول الرمل الذي في يده إلى ذهب.

فرد عليه سيدنا علي ﷺ بأنه لم يفعل شيئاً سوى أنه قرأ سورة الفاتحة بخشوع. فقام البدوي مغتبطاً و اغترف حفنةً من الرمل في يده و بدأ يقرأ الفاتحة و هو ينفخ عليها. و لكن شيئاً لم يتغير و ظل الرمل كما هو رملاً. فسأل سيدنا علياً ﷺ سبب ذلك. فلخص سيدنا علي ﷺ المسألة للبدوي في قوله:

«هذا لأن القلب مختلف».

ويتمكن أي شخص يتعسر في قراءة القرآن الكريم كاملاً؛ سواءً أكان ذلك لغفلة منه أو لضعف مقدرته على ذلك، يتمكن من قراءة أي سورة من السور الصغيرة بسلاسة. لأجل هذا أدرج الخالق ﷻ أهم الرسائل -أحياناً بشكل جزئي و أحياناً أخرى بشكل كلي- في قصار السور في شكل شِفرات علوية محددة النقاط و عادةً ما كان يجعل كل واحدة منها في شكل حكم قرآني صغير.

و في ذلك يقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«لَوْ تَدَبَّرَ النَّاسُ هَذِهِ السُّورَةَ، لَوَسِعَتْهُمْ». (ابن كثير، التفسير، سورة العصر)

الأنبياء و القصص في القرآن الكريم

يُقدم الأنبياء في القرآن الكريم بوصفهم أفضل و أصلح أناس في البشرية. و أنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه بجهد أو عمل عملوه بل باختيار و اصطفاء إلهي[١]. يقول اللّه ﷻ:

﴿... وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الأنعام، ٨٧).

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (الحج، ٧٥)

وقد فصل القرآن الكريم في آيات مختلفة ما يميز كل نبي ورسول من فضائل وعلامات فارقة. وفيما يلي ذكر لبعض هذه الآيات:

﴿...وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ (النساء، ١٢٥)

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ. وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ.

١- توضح الآيات الكريمة الآتية أن النبوة هبة من الله ﷻ و ليست كسب:
﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الجمعة، ٤)
﴿وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾ (الأنعام، ١٢٤)
﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ﴾ (القصص، ٨٦)

إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ. وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ. وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنْ الْأَخْيَارِ﴾ (سورة ص، ٤٤– ٤٨)

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً. وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً. وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً. وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً. وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً. وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً. وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ (مريم، ٥١– ٥٧)

أما نور الخلق سيدنا الرسول الذي خاطبه المولى قائلاً "حبيبي" فقد اجتمعت لديه فضائل كل الأنبياء. و نزلت بحقه الآية الكريمة:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1] (الأنبياء، ١٠٧)

بيد أن اختيار اللّه ﷻ للأنبياء و اصطفاءهم ينطوي على مسؤلية

١– رسول الله ﷺهو رحمة للعالمين في الدنيا والآخرة. فهو الهادي في الدنيا والشفيع في الآخرة. فقد ورد كثيراً في الأحاديث أن الناس سيتجمعون في أرض المحشر يوم القيامة وهي يومئذٍ أرض واسعة مستوية. و أن الناس الذين سيتجمعون منتظرون حسابهم سيكونون في هم وفزع شديدين، وأنهم سيبدؤن في البحث عن من يخلصهم مما هم فيه. وأنهم سيذهبون إلى الرسول ﷺ و يتوسلون إليه بعدما يئسوا من مساعدة الأنبياء الذين لجئوا إليهم. لذلك سيتوجه نبينا ويسجد تحت عرش الرحمن و سيطلب من الله أن يُشفِّعه في أمته. فيعطيه الله إياها فيشفع لأناس يدخلون الجنة مباشرةً ثم يشفع بعد مدة معلومة للعُصاةِ الذين لا يملكون من الخير سوى قولهم كلمة الشهادة فيدخلون الجنة كذلك. (البخاري، الرقاق ٥١، التوحيد ٣٦؛ مسلم، الإيمان، ٣٢٢، ٣٢٦، ٣٢٧)

عظيمة ثقيلة. و اللّه ﷻ يعرف أنهم عاجزون، كما أنه لا يمكن إسناد صفة الألوهية إليهم على الإطلاق لأجل هذا قال اللّه ﷻ:

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف، ٦)

فالأنبياء بالشكل الذي بينته الآية الكريمة و إن كانوا آمنين، إلا أن اللّه ﷻ سيسألهم عن درجة اعتنائهم و اهتمامهم بتبليغ رسالات ربهم. و تذكر احدى الروايات أن سليمان عليه السلام سيدخل الجنة متأخراً عن باقي الأنبياء بسبب ما أعطي إليه من عظمة و ثروة في الدنيا[1].

و لا أحد غير الأنبياء آمن بعد ذلك[2]. و الإنسان العاقل هو الذي ينظر إلى حال نفسه المعنوي، و يسعى لأن يحقق الكمال في قلبه، أما في نواحي المادة فيجب أن يبذل الجهد كي يعيش حياته شاكراً للّه و أن ينظر إلى من هو أدنى منه.

و قد جاء في الحديث الشريف:

قال رسول اللّه ﷺ:

"إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّل عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه" (البخاري، الرقاق، ٣٠، ٦٤٩٠)

و يبين المولى ﷻ في الآيات الآتية مخاطباً الرسول ﷺ أن

١– انظر: الطبراني، المجمع الكبير، ٥، ٩٤– ٩٥.
٢ – على الرغم من هذا فهناك أشخاص بشرهم سيدنا رسول الله ﷺ بالجنة، لهذا يمكن اعتبارهم من الآمنين.

جميع الأنبياء مسؤلون أمام اللّه ﷻ:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ (المائدة، ١٠٩)

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (الحاقة، ٤٤ – ٤٧)

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء شَهِيداً. يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثاً﴾ (النساء،٤١– ٤٢)

حدثنا محمد بن يوسف: حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد اللّه بن مسعود قال: قال لي النبي ﷺ:

"اقْرَأْ عَلَيَّ".

قلت: يا رسول اللّه، اقرأ عليك وعليك أنزل؟

قال: "إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي".

فقرأت سورة النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾.

قال: "أَمْسِكْ".

فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان. (البخاري، فضائل القرآن، ٣٢؛ مسلم، المسافرين، ٢٤٧)

عظمة القرآن الكريم و فضائل النبي ﷺ

ورد في الآيات الكريمة التي سبق ذكرها أنه إلى جانب كون النبوة مسؤلية عظيمة، فإن كل ما ينطق به الرسول ﷺ إنما هو وحي أوحى به اللّه ﷻ إليه. و يوضح هذا الكتاب العظيم تلك الحقيقة في الآية الكريمة:

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة، ٢)

و مما لاشك فيه أن هذا الكتاب قد نزل من عند اللّه ﷻ، و أن هذا يستوجب أن يكون كاملاً بشكل يتلاءم و العظمة الإلهية. فكان الإعجاز القرءاني واحداً من أهم الخصوصيات التي تشهد على كماله. كما أن تأمينه السعادة للإنسان في الحياة الدنيا و في الآخرة هو سبب و مظهر آخر من مظاهر هذا الكمال.

و قد أنعم اللّه ﷻ بآخر الكتب المقدسة على سيدنا رسول اللّه ﷺ فكان أكبر معجزة ستستمر حتى قيام الساعة. لأن اللّه ﷻ أعطى كل نبي مجموعة من المعجزات يستطيع بها إثبات صدق نبوته في زمانه. فشاهد الناس هذه المعجزات الإلهية الخارقة للعادة، فقال من أضاءت قلوبهم بنور الهداية:

- «أنت رسول اللّه!» و صدقوا رسولهم.

أما التعساء الذين حُرموا الهداية فقالوا:

- «ما أنت إلا ساحرٌ».

وبذلك كان المؤمنون والجاحدون كذلك مرغمين على تصديق المعجزات الخارقة للعادة التي أتى بها الرسل. فقد شاهد كل أهل مكة معجزة انشقاق القمر في عهد رسول اللّه ﷺ إلى جزأين.

و لكن اختلفت طريقة تقبلهم لهذه المعجزة، و انعكس ذلك في إيمان البعض و استمرار البعض الآخر في الكفر و فق قلب كل منهم.

لقد تحولت عصا موسى عليه السلام و هي المعجزة التي أعطاه اللّه إياها، تحولت إلى حية وجدت صدى عند بني إسرائيل فقضت على سحرهم. و أُعطي عيسى عليه السلام معجزة إحياء الموتى و هي المعجزة التي لم يستطع عالم الطب الوصول إليها. فوقف عالم الطب عاجزاً حائراً أمامها.

أما في زمن الرسول ﷺ فكان الشعر و البلاغة يعيشان عصرهما الذهبي. و كان يُرتب لأسواق مثل سوق عكاظ و ذو المجاز و مجنّي حيث كان يتبارى الأدباء و الشعراء مع بعضهما البعض. و من يُحرز منهم قصب السبق، تُكتب آثاره على قماش ذي اللمعان و تُعلق على جدار الكعبة. و قد عُلقت سبعة أشعار على جدار الكعبة و أُطلق عليها اسم «المعلقات السبعة».

و مع نزول القرآن الكريم ببلاغته المُعجِزة و خطابتها اضطربت أسواق الأدب تلك التي استمرت كتقليد تعودوا عليه حتى لعصور. و لم تَفُز أشعار أي شاعر بعد ذلك لتُعلق أشعاره على جدار الكعبة.

و ستستمر قدرة نبوة الرسول ﷺ التي أعجزت حتى أعتى الخطباء و أشدهم بلاغة، ستستمر لتشمل كل مكان و زمان حتى قيام الساعة، لهذا السبب فاقت معجزة القرآن كل ما أُعطي الأنبياء السابقين جميعهم من معجزات و صلاحيات.

و من الضروري هنا الإشارة إلى نقطة مهمة، و هي أن كل الأنبياء السابقين قد انحصرت رسالاتهم في زمان و مكان محدودين. لهذا السبب لم ينتقل إلينا عنهم منظومة واسعة ثرية تبين سلوكهم و تصرفاتهم. هذا في الوقت الذي شملت فيه بعثة الرسول ﷺ كل زمان و كل مكان إلى أن تقوم الساعة، لهذا السبب انتقلت إلينا أدق تفصيل سيرته بروايات صحيحة و سيظل هذا الموروث متسلسلاً إلى أن تقوم الساعة.

و تتحدث الآيات الكريمة الآتية عن شمولية رسالة النبي ﷺ للعالم كله:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف، ١٨٥)

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ، ٢٨)

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً. الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ (الفرقان، ١ – ٢)

ويأتي السبب وراء ذلك إلى أن اللّه ﷻ أراد لأمة آخر الزمان الذي بُعث فيها النبي ﷺ أن تكون"أسوة حسنة" أي نموذج و قدوة يقتدون بها.

من أجل هذا أنعم اللّه ﷻ على الرسول ﷺ بعدد من المعجزات حتى تتجلّى إرادة اللّه ﷻ. فالغرض من المعجزات هو تحقيق طاعة الناس للأنبياء و طاعة وجهاء القوم و أكثرهم سطوة كذلك، و قد استند سيدنا النبي ﷺ إلى جانب عدد من المعجزات الأخرى التي أعطاه اللّه إياها، استند إلى معجزة القرآن الكريم الذي حاز الكمال في الإعجاز بشكل تجاوز كل المعجزات الأخرى.

و على الرغم من أن المعجزات هي أحوال خارقة تصدر عن الأنبياء، إلا أن القرآن الكريم بوصفه معجزة لا نظير لها، كان أكثر تأثيراً على مسامع و قلوب الناس، و ظلَّت الوسيلة الأساسية التي استخدمها الرسول ﷺ في نشر الرسالة.

و لهذه الأسباب أصبح إعجاز القرآن الكريم الذي قدمه الرسول ﷺ إلى البشرية بيديه مضيئاً كالمشعل لا ينطفئ إلى الأبد، و أصبح المؤثر الأساسي الذي ضمن طاعة إنسان "عصر السعادة" الذي فقه

الفصاحة و البلاغة، للنبي ﷺ. ففي الوقت الذي مضيفيه سيدنا عمر رضي الله عنه قاصداً أقبح الغايات مثل إطفاء شمس السعادة الأبدية، نجده يتحول بسرعة البرق بعد أن استمع بالمصادفة لبعض آيات القرآن الكريم، انتقل إلى الهداية كما لو كانت آيات القرآن الكريم قد انتقلت به من قطب الشرك إلى قطب الإيمان.

و كذلك الأمر مع ابنة الشاعر الشهير امرؤ القيس التي تملكتها الدهشة و الذعر لما استمعت إلى جزء صغير من القرآن الكريم، وقالت من كثرة دهشتها:

"إنه ليس بكلام البشر! فلو كان في الدنيا حديث مثله، لوجب إنزال أشعار أبي من فوق جدار الكعبة! اذهبوا فأنزلوه، وعلقوا هذه الآيات بديلاً عنه!..".

و هذا مثال واحد فقط من الأمثلة التاريخية الشاهدة على هذه الحقيقة الإلهية[1].

لقد ألجم القرآن الكريم بجلاله حتى المشركين و هم يستمعون إليه لدرجة أنهم كانوا على وشك الإيمان لولا أن هناك من أخذوا

---

١ – الكلمة تُذكِّر بصاحبها. و بقدر ما للمتحدث من شأن و مقدرة، يقدم الجلال و الكمال. لهذا السبب تركت بلاغة و فصاحة القرآن الكريم بسبب قدرة و عظمة شأن صاحبه و هو المولى عز و جل، تركت البشرية جمعاء مشدوهةً عاجزة. فوصف القرآن الكريم بأنه السهل الممتنع، هو سر إلهي آخر، فكلنا يدرك كم هو القرآن سهل البيان، و لكن ليس بمقدور أي شخص على الإطلاق أن يأتي بمثله.

يصيحون حتى يعيقوا و يمنعوا الناس من الإستماع إليه. و قد تحدث القرآن الكريم في الآية التالية عن هذه الحقيقة بقوله ﷻ:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت،٢٦)

و على الرغم من هذا فقد كان بعض المشركين يستمعون خفيةً للقرآن الكريم. فقد كان ألد المشركين مثل أبو جهل يستمعون إلى القرآن الكريم من وراء الجُدر، وكانوا يتأثرون به حتى لو لم يؤمنوا، فغلبهم كفرهم و عنادهم، و كان الواحد منهم يفر من أخيه حتى لا يراه و هو يستمع إلى القرآن الكريم.

و للقرآن الكريم تأثير عظيم من شأنه أن يغير فهم الإنسانية التي تعيش الكفر و الجحود، أن يغير فهمها عن الكون و الحياة والإنسان، و بالتالي تنهض البشرية و تحقق أعظم انقلاب لها. ولعل أبرز مثال على ذلك هو تحول المجتمع الجاهلي إلى مجتمع مسلم يسير على طريق الهداية. و القرآن كلام عظيم، يتجاوز تأثيره الإنسان إلى الحيوان كذلك.

و قد رُوي عن أُسيد بن حضير رضي الله عنه:

بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوط عنده، إذ جالت الفرس، فسكت فسكتت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت وسكتت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى

قريباً منها، فأشفق أن تصيبه، فلما اجْتَرَّهُ رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال:

"اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ".

قال: فأشفقت يا رسول اللّه أن تطأ يحيى، وكان منها قريباً، فرفعت رأسي فانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال:

"وتدري ما ذاك". قال: لا، قال:

"تِلْكَ المَلاَئِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لاَ تَتَوَارَى مِنْهُمْ" (البخاري، فضائل القرآن، ١٥، ٥٠١٨)

و تكمن الحكمة في أن تأثير القرآن الكريم وأحكامه تشمل الموجودات كلها في تشكيل منظومة كاملة للوحي تنتهي فيها حلقة النبوة بخاتم الأنبياء و المرسلين سيدنا محمد ﷺ و توضح أن ما سيأتي من زمان بعد ذلك و حتى الأمكنة هي نطاق لنبوة رسول اللّه ﷺ أيضاً.

أي أن هذا الكتاب الإلهي الأخير يحتوي من القواعد ما سيلبي مصالح و أمور الناس ما دامت الدنيا موجودة. و من هنا كان محتوى و معنى القرآن الكريم عبارة عن منظومة من حكم و إعجاز لا نظير له. وسوف تستمر هذه الهبة الإلهية حتى يوم القيامة مثبتةً صدق الرسول و صدق النبوة.

و لم ينل أي نبي من الأنبياء كتاباً مثل القرآن الكريم بفصاحة أسلوبه و بلاغته و بما يحوي من أحكام و بامتداد حكمه لكل زمان و مكان. ولعل أبرز علامات هذا التفوق أنه سيستمر حتى يوم القيامة وستأتي امة محمد ﷺ يوم القيامة أكثر الأمم عدداً.

و كل ما يحوي القرآن الكريم؛ من تعبير و أسلوب و معجزات و تاريخ و أي شيء آخر كلها أمور خاصة باللّه ﷻ. و بناءً على ذلك يكون ترتيب نزول الآيات هو أيضاً من أمر اللّه ﷻ و لم يتدخل فيها الرسول ﷺ بأي حال من الأحوال.

و بالطريقة نفسها تكون نغمة الصوت في القرآن مثلها مثل الأسلوب القرآني أمر راجع للّه ﷻ أيضاً. فالتصرف في القرآن الكريم بإحداث أي تغير في نظمه سواء بالتقديم أو بالتأخير من شأنه إحداث خلل في التناغم بين آيات القرآن. و قد تحدث محمد حميد اللّه و هو من علماء الإسلام المعاصرين، عن التناغم في القرآن الكريم على هذا الشكل:

«حدثني احد الموسيقيين الفرنسيين الذين اعتنقوا الإسلام قائلاً أن قراءة سورة النصر على هذا الشكل (في دين اللّه أفواجاً. فسبح...) أمر غير متزن موسيقياً.

فوضحت له الأمر بقولي أننا لا نتوقف في القراءة عند كلمة (أفواجاً) بل نقرأها (أفواجاً فسبح...) أي أننا ندمج بين النون (التنوين) في أفواجاً و الفاء في بداية كلمة (فسبح).

فرد عليَّ أخونا الموسيقي الفرنسي على الفور قائلاً:

- «أنا الآن أُجدد إيماني. فلم يعد عندي بعد ما أوضحت لي الآن أي اعتراض على القرآن الكريم من ناحية التناغم الموسيقي. ويمكنني القول أن القرآن الكريم به انسجام يفوق المعايير البشرية. فهو يعرض في معظمه روعة في التناغم. فهل هناك ثمة أحد يمكنه التفكير في أن يأتي بشيء بشري على غرار القرآن الكريم؟!» (محمد حميد الله، تاريخ القرآن الكريم، ص ٩٤-٩٥)

لقد استنهض القرآن الكريم بخاصيته تلك تأثيراً قوياً في قلوب الناس. فجاء العرب من كل فج عميق و استمعوا إليه من فم رسول اللّه ﷺ فآمنوا به.

و فيما يلي مثال يعود لتاريخ قريب يدل على روعة القرآن و تأثيره:

عمل إمام و خطيب جامع "ير آلطي" السيد علي أسكداري إماماً للسرايا في فترة حكم عبد الحميد خان. ويُروى وفق ما نقله السيد محمد علي صاري و إسماعيل قره تشم و هم من طلبة معهد الإسلام العالي، يُروى أن ملك المجر قد وجه الدعوة لعلي أسكداري بصحبة وفد آخر لزيارة المجر. و بعد أن شارك في الأنشطة الثقافية المختلفة هناك، استدعاه الملك على وجه الخصوص و بعد عدة لقاءات بينهم طلب ملك المجر من علي أسكداري أن يقرأ عليه القرآن الكريم. فظل يقرأ عليه القرآن من مقام النهاوند الموسيقي وفق رواية محمد علي. و كان علي أسكداري

وقتها في ريعان شبابه و كان حافظاً للقرآن الكريم و قد حباه اللّه بصوت عذب جميل و أداء حسن في قراءته للقرآن. لهذا السبب أخذ الآيات التي قرأها لُب الملك، لدرجة أنه التفت إلى الملكة و حدثها ببعض الكلمات. فأصاب الفضول علي أسكداري كي يعرف ماذا قال الملك، فتحدث إلى المترجم و قال:

- «ماذا قال جلالة الملك للملكة؟» فرد عليه المترجم و قال بأن الملك خاطب الملكة قائلاً:

- «إن هذا الكلام المقروء لا يمكن أن يكون كلام بشر. فكلام البشر لا يؤثر بهذا الشكل في الإنسان... ».

و قد بيَّن رسول اللّه ﷺ أن أمته ستكون أكبر الأمم بالنظر إلى الأمم السابقة، و أن السبب في ذلك ما في القرآن الكريم من إعجاز عقلي علوي و ماله من تأثير على من يسمعه، فقال رسول اللّه ﷺ:

"مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ" (البخاري، الإعتصام، ١، ٤٩٨٠)

رأينا في الحديث الشريف كيف ربط الرسول ﷺ بين زيادة عدد أمته و بين معجزة القرآن الكريم. و يمكن رصد الحكمة من ذلك فيما يلي: القرآن الكريم ليس مثل باقي المعجزات التي جاءت و انتهت في زمن بعينه، فالقرآن الكريم معجز في ألفاظه ومعانيه التي

تخاطب عقل الإنسان. و سيظل الإنسان يتفكر في آيات القرآن الكريم طالما وجد العقل و العلم لتظهر مع الوقت ما يحويه من دقائق.

لا ترتبط المعاني التي يحويها القرآن الكريم بزمن أو أمة بعينها، بل تحيط بكل الأزمنة و كل الناس. و سيظل العلماء في كل عصر يمر يشهدون على إعجاز القرآن، و بهذه الوسيلة ستستمر أمة رسول اللّه في التزايد.

و ستعاود الإكتشافات العلمية التي ستظهر بعد عصور، و تلقي الضوء على إعجاز القرآن الكريم، و ستؤيد كونه كلام اللّه ﷻ و لا دخل للبشر فيه. و تؤكد لنا الأبحاث العلمية التي يجريها العلماء في مجالات خلق الإنسان و أسرار الكون و الأرض و الشمس و حال القمر بل، و الأبحاث الأكثر دقة في مجالات الفيزياء و الجغرافيا و الاجتماع و ما شابه ذلك من مجالات أخرى، ستؤكد جميعاً على هذه الحقائق الواردة في القرآن الكريم.

و إذا وجب علينا أن نضرب مثالاً على هذا لقلنا أن هناك أبحاثاً تجري مؤخراً مفادها أنه يمكن نقل الأشياء عن طريق الإشعاع و هو أمر مقبول من الناحية العلمية و يمكن تحقيقه. و قد نجح العلماء للمرة الأولى في تفكيك جزيئات مقدار من الماء و نقلها لمكان آخر بواسطة الإشعاع. و لم يتصور أحد أو يقبل بإمكانية حدوث مثل هذا الشيء قبل خمسة عشر قرناً، و مع هذا فقد أخبر القرآن الكريم عن

ذلك. فتذكر الآية ٤٠ من سورة النمل كيف تم نقل عرش بلقيس ملكة سبأ في طرفة عين مسافة لا تقل عن ألفي كيلو متر.

من أجل هذا يزداد فهمنا كل يوم يمر لحديث مولانا جلال الدين الرومي عن القرآن الكريم، حيث يقول:

((يمكننا أن نخط كلمات القرآن الكريم بحبر مِحبرةٍ واحدةٍ. أما إذا أردنا أن نكتب كل الأسرار التي يحويها فلن يكفي لذلك بحر مترامي الأطراف من الحبر، و لن تكفي أشجار الدنيا كلها لو أنها صُنعت أقلاماً لهذا الغرض)).

لقد تحدى اللّه ﷻ الإنس و الجن حتى يوم القيامة أن يأتوا بمثل القرآن الكريم. و ظل هذا التحدي الإلهي قائماً منذ يومها دون جواب من أحد. و تشير الآية الكريمة إلى هذه النقطة في قوله ﷻ:

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء، ٨٨)

و على الرغم من أن اللّه ﷻ قد ضيّق مجال التحدي وحصره في أن يأتوا بعشر سور منه فقط، إلا أن الإنس و الجن وقفوا عاجزين مجدداً. تبين ذلك الآية الكريمة الآتية:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود، ١٣)

وزيادة في التحدي ضيق المولى ﷻ مجال التحدي أكثر وحصره في أن يأتوا بسورة واحدةٍ كي يظهر للعيان مدى العجز البشري و أن القرآن الكريم هو كلام اللّه ﷻ. و تحدثنا الآيتان الكريمتان الآتيتان عن ذلك في قوله ﷻ:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[١]. فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة، ٢٣- ٢٤)

و يحدثنا مولانا جلال الدين الرومي -قدس سره- عن ضرورة أن يقرأ الإنسان القرآن الكريم بقلب صاف براق، عندها فقط تكتسب القلوب الحكمة والعبرة وأسرار القرآن الكريم:

«هيِّيء نفسك جيداً قبل أن تقرأ آيات القرآن الكريم و الأحاديث الشريفة! فإن لم تَشْمُم الروائح الجميلة في بساتين الورود، فابحث عن العيب في أنفك أو في قلبك و ليس في البستان!...»

١ - فكما أنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بسورة مثله، فإنهم بالقدر نفسه لن يستطيعوا أن يلحقوا ثمة ضرر بالقرآن الكريم. أي أنهم لن يستطيعوا تحريف القرآن الكريم كما حدث مع الكتب الإلهية السابقة. لأن الله ﷻ يحفظه و يحميه: {**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**} (الحجر، ٩). و لعل المثال الروسي هو أبرز النماذج التي تدل على مدى حماية الله ﷻ للقرآن. فلم يدخر الروس وسعاً حتى يثنوا ملايين المسلمين عن دينهم. و مع هذا فلم يمسوا حرفاً واحداً من حرف القرآن الكريم.

يقول اللّه ﷻ في الآية الكريمة:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد، ٢٤)

يحتاج الإنسان كما ورد في الآية الكريمة إلى قلب سليم حتى يتمكن من فهم القرآن الكريم و إدراكه و حتى يشعر و يحس بأنه يقف على أسراره. لأن القرآن الكريم يفيض على كل قلب من أسراره حسب حالة هذا القلب أو ذاك. يقول اللّه ﷻ:

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ[١]﴾

(الشعراء، ١٩٣ - ١٩٤)

لهذا السبب يجب أن نأخذ القرآن الكريم عن رسول اللّه ﷺ تماماً كما فعل الصحابة الكرام. و تتوقف الإستفادة الحقيقية على درجة الإهتمام و الإستعداد لذلك. يقول رسول اللّه ﷺ:

"مثل ما بعثني اللّه به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكان منها نقية، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع اللّه بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين اللّه، ونفعه ما بعثني اللّه به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدي اللّه الذي أرسلت به" (البخاري، العلم، ٢٠، ٧٩)

---

١ - الإنذار: هو الأمر و النهي و التحذير ببث الخوف من وخامة الفعل.

–يشبه رسول اللّه ﷺ النوعين الأولين من أنواع الأراضي الثلاثة المتباينة في خواصها، يشبهها بأناس عرفوا و تفقهوا فيه و انتفعوا مما أتى به. أما الصِنف الثالث، فهو مثل شخص لا يرفع حتى رأسه كي ينظر لأي شيء حوله و هو الذي لم يقبل بالهداية التي أُرسل بها رسول اللّه–

قلب العلماء هو أرض خصبة بماء العلم الإلهي و الهداية الممتلئه بماء الحياء، و هي أرض اخضرت أوراقها و أعطت محصولاً مباركاً. يقول اللّه ﷻ:

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ...﴾ (الرعد،١٧)

و فسر بن عباس هذه الآية قائلاً:

((الماء المقصود في الآية هو العلم أما الأودية فهي القلب)).

و لأن النبي ﷺ هو أعظم مفسر لآيات القرآن الكريم، فقد أتى تفسير ما يرد في القرآن الكريم في الأحاديث الشريفة.

يقول اللّه ﷻ في الآيتان الكريمتان:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ. بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل، ٤٣ – ٤٤)

و أعظم المفسرين الذين جاؤا بعد سيدنا النبي هم أولياء اللّه الذين عملوا بعلمه، و أخذوا حصةً من حياته ﷺ القلبية.[١]

و تُحرم القلوب السوداء من أن تنال أي حصة من القرآن الكريم. فالقرآن الكريم لا يفيض بأسراره على المشركين و لا يهبهم الهداية، حتى إن ملكوا من علوم الدنيا الظاهرية؛ ذلك لأنهم حُرموا من الحياة القلبية. يقول ﷻ:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف، ١٤٦)

١- في هذا الخصوص يقول السيوطي و هو من علماء الإسلام و عظام المحدثين و المفسرين للقرآن الكريم:
"لا ينهض أي شخص لتفسير القرآن الكريم دون أن يلم بتلك العلوم; اللغة، النحو، الصرف، الإشتقاق، المعاني، البيان، البديع، القراءات، الكلام، أصول الفقه، أسباب النزول والقصص، الناسخ، المنسوخ، الفقه، الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم و علم الموهبة. و يُقصد بالعلم الأخير; العلم الذي يهبه الله ﷻ للشخص الذي يعمل بعلمه. وفي الحديث الشريف (من عَمل بما يَعْلَم ، عَلَّمَه اللهُ ما لا يَعلم) إشارة لذلك. (السيوطي، الإتقان، ٣، ٢١٣ - ٢١٥)

لهذا السبب استخدمت كلمة "لاَ يَهْدِي"[١] في آيات كثيرةٍ مع الظالمين والكافرين والفاسقين.

كم هو كتاب عظيم هذا القرآن الكريم الذي نستقي منه لِزَمَنِنا الحاضر العبر والإرشاد والتحذير من خلال تناولنا لعدد من القصص التي وردت ضمن محتواه العميق.

اللّهم اجعل لنا نصيباً من الخصال الحميدة كالصبر و الشكر على النعم و التوكل و التسليم بقدرك و الرحمة و الشفقة و التواضع و إنكار الذات وهي صفات ذخرت بها حياة أنبيائك الواردة في القرآن الكريم، ربنا ولا تحرمنا نصيباً من أن نعيش عباداً لك حقاً!...

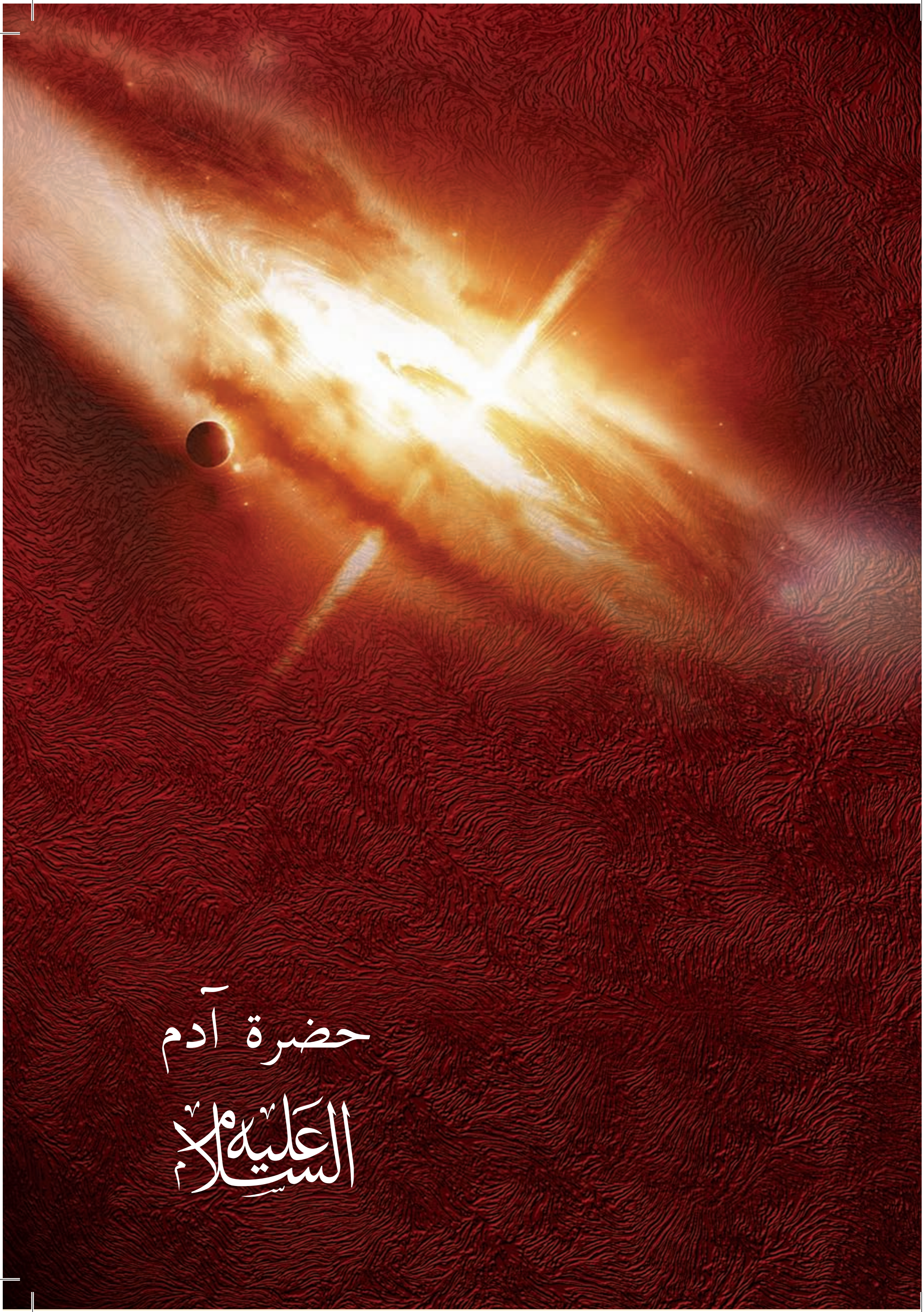
آمين!...

١- "لاَ يَهْدِى": أي لا يمنحه الهداية. و قد تكررت هذه الكلمة في ٢٦ آية في القرآن الكريم:

(...وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (البقرة، ٢٥٨)

(...وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (البقرة، ٢٦٤)

(...وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (المائدة، ١٠٨)



حضرت آدم

علیه السلام

الذي أُمِرَت الملائكة بالسجود له

حضرة سيدنا آدم

عليه السلام

لقد خلق اللَّه ﷻ هذا الكون بتجلي أسمائه الحسنى وصفاته العُليا، وكانت إرادته بخلق الكون في الأزل حيث كان ولم يكن شيء معه وقد أحب اللَّه ﷻ أن يُعرف من خلال هذا الخلق.

إن أكثر المواضيع التي ظهرت فيها تجليات ما استطعنا وما لم نستطع أن نعلمه من صفات اللَّه تعالى هي ثلاثة:

أ- الكون.

ب- القرآن الكريم.

ج- الإنسان.

فالكون مظهر فعلي للأسماء الإلهية. وأما القرآن الكريم فهو مظهر كلامي للأسماء الإلهية، وبعبارة أخرى فإن القرآن الكريم هو عالم مغَلَّفٌ في صورة كلام.

وأما الإنسان فنستطيع أن نشبهه بلبِّ الكون وبذرته، لأنه الكائن الوحيد الذي كان له الحظ في الأخذ من جميع صفات اللَّه تقريباً،

بقلة أو بكثرة، وهذا سبب نعته بأشرف المخلوقات، ولكن لأنه تجلّى فيه صفات الجلال كـ "**المضل**"[١] و"**المتكبر**"[٢]، وصفات الجمال كـ " **الهادي**" و "**الرحمن**" و "**الرحيم**" وغيرها فإنه مَيّال إلى الخير وإلى الشر بالفطرة، وفي ذلك قال اللَّه تعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس، ٧-١٠)

ومن هنا فإن على الإنسان أن يحاول الوصول إلى درجة الكمال، وذلك يكون عن طريق اتباع إرشاد الأنبياء والأولياء، ذلك الإرشاد الذي يدعونا إلى تزكية نفوسنا وتصفية قلوبنا، والتخلص من الطباع والصفات السُّفلية الموجودة بداخلنا، والعمل على تنمية الصفات الروحانية.

ولأن الملائكة ليست لديها قدرة أو استعداد للشَّر فإن الإنسان يمكنه أن يتخطى درجتهم بوصوله إلى اللَّه ﷻ. ولذلك فإن درجة الإنسان تكون بين مقامين؛ فقد تكون في مقام عالٍ أعلى من مقام الملائكة، وقد تكون في الدرك الأسفل أدنى من مقام الحيوان، فبين هذين المقامين تكون درجته، وذلك حسب اتباعه لوحي اللَّه تعالى. إن الإنسان الذي يستطيع اجتياز حاجز النفس يقدم لنا نموذجاً فنياً

١ المضل: يخذله ولا يلطُف به لما يعلم أنه لا ينجع فيه الإلطاف
٢ المكتبِّر: هو الذي يُظهِر جلالته وعظمته في كل شيء وأمر.

رائعاً وعملاً عظيماً، فهو فاتحة كتاب هذا الكون وخلاصته وسر خلقه، لأنه بالرغم من كونه عبارة عن دم ولحم في الظاهر إلا أنه يكمن داخل هذا الظاهر كائن معنوي يحوي الكثير من أسرار وأنوار وحقائق التجليات الإلهية.

يوضح لنا هذه الحقيقة سيدنا علي رضي الله عنه في هذين البيتين:

دواؤك فيك وما تبصر وداؤك منك وما تشعر

وتزعم أنـــــك جرم صغير وفيك انطوى العالَمُ الأكبر

ربط بعض العلماء بين الأعضاء والأحداث الموجودة في جسم الإنسان وبين الكائنات والحوادث المبثوثة في الكون؛ فشبَّهوا العظام بالجبال، والشعر بالنباتات، والأوردة والشرايين بالأنهار، والتَّنَفُّس بالرياح، والتكلُّم بالرعد. أي إنه يوجد في هذا الإنسان الذي هو شكل مصَغَّر عن الكون أثر ورائحة هذا الكون الكبير.

المهم أن نحاول قراءة الآيات السبحانية المبثوثة في جميع أنحاء الكون وأن نفهمها على وجهتها الحقيقية. فإن الآية الأولى التي أوحى بها اللّٰه تعالى إلى نبينا محمد ﷺ هي قوله تعالى: "اقرأ"، ومعنى القراءة هنا لا يقتصر على الشيء المكتوب فقط، بل يدل أيضاً على إنعام النظر بالعين، والتذكر والتفكر بالعقل. ومن هذا المنطلق قد تعني الآية الكريمة المعنى التالي:

«أيها الرسول، اقرأ الكلام الإلهي، تذكر وتفكر في الحقائق المكنونة في نفسك وفي الكون، وحاول إدراك حقائق الأشياء».

وبناء على هذا المعنى وضع شارحوا "المثنوي" التفسير التالي:

(ابتُدئ القرآن الكريم بـ "اقرأ" وأما المثنوي فبـ "بِشْنَوْ" يعني: "استمع"، كلمة "بِشْنَوْ" هي تفسير كلمة "اقرأ"، بمعنى: "استمع إلى الكلام الإلهي، استمع إلى الأسرار، استمع إلى الحقائق المكنوزة في داخلك).

إن ظهور الإنسان في هذا العالم قد بدأ بآدم عليه السلام، فهو الإنسان الأول والنبي الأول والمرشد الكامل الأول، وإن نسل البشرية جمعاء المتسلسل منذ بدايتها إلى يوم القيامة كان محتوىً ومدموجاً بعضها فوق بعض في شخصه، وذلك عندما خلقه اللَّه، ويشير اللَّه تعالى إلى هذه الحقيقة بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ (النساء، ١)

ويخبرنا أيضاً أنه كرم الإنسان وشرَّفه على جميع خلقه بقوله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء، ٧٠)

إن هذا المخلوق الرائع - أي الإنسان- يمثل قمة الإبداع الإلهي في هذا العالم المُزَيّن بنقوش القدرة الإلهية. وفي هذا

الموضوع يقول سليمان شلبي في "المولد": "خَلَقَ الحقُّ آدمَ وزَيَّنَ به العالَمَ" وكأنهما توأمان، وبعبارة أخرى فقد ألقي على عاتق الإنسان أكبر وظيفة، ألا وهي فهم أسرار الكون وإدراك حقائق الأشياء، وذلك لأنه نموذج مصغر عن الكون.

وكما تحوي حبة القمح بداخلها جميع الخصائص الموجودة في جنسها من القمح فإن بذرة كل نوع من أي جنس تحوي بداخلها خصائص وطباع جنسها. والإنسان كذلك هو كائن متميز يحتوي على حقائق جميع الأشياء الموجودة في هذا الكون. ومن هذا الوجه فكأن الإنسان بذرة أو جوهر انطوى بداخله العالم.

حيث يقول في شأن هذه الحقيقة الشيخ غالب:

انظر إلى نفسك بتمعُّن، فأنت زبدة العالَم، وأنت آدم الذي هو بؤبؤ الكون.

هناك الكثير من المقاصد الإلهية في خلق الإنسان؛ فمنها أن اللَّه سبحانه أراد أن يظهر لنا دليلاً جلياً على جماله وإبداع خلقه، فالمراد الإلهي في خلق الإنسان مهم جداً لدرجة أن اللَّه سبحانه من أجل تحقيق مقصده خَلَقَ الكون بما فيه مما يمكن إدراكه وما لا يمكن وسخره للإنسان لكي يستفيد منه.

إن الإنسان مكلَّف بعمارة الأرض، وبأعمال هي عبارة عن حصائد قلبه، لأنه خُلِق ليكون خليفة اللَّه على الأرض. ووظيفة

الخلافة هذه التي تعني العيش كوكيل للّه تعالى هي بناءً على احتوائه القابلية التي تمكنه من تحقيق تلك الوظيفة الكامنة في فطرته. واللَّه سبحانه قد وضع للإنسان برنامجاً لا بد منه لكي ينمي هذا الإستعداد كما تنمو البذرة في المنبت، ألا وهو الأوامر والنواهي الموجودة في القرآن الكريم.

وقد بين اللَّه تعالى في الحديث القدسي الدرجات المعنوية للذين يسيرون في هذا الطريق، فقال تعالى:

"من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه" (البخاري، الرقائق، ٣٨)

وفي الآية الكريمة:

﴿اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة، ١)

فإن اللَّه سبحانه وتعالى قد خلق عوالم كثيرة، وقد جاء بشأن عدد هذه العوالم في روايات مختلفة أنها بين ١٨٠٠٠ و ٣٦٠٠٠٠ عالَم. وقد تعتبر هذه الروايات كناية عن الكثرة بسبب أن عقل الإنسان لا يستطيع أن يدرك عدد هذه العوالم. وهذه العوالم كلها ممكن أن نصنفها ضمن شكلين رئيسين:

١- عالم الخلق.

٢- عالم الأمر.

وقد حصل الإنسان على حصة في خلقه من هذين العالمين.

وبين اللّه تعالى خلقه لعالمي الخلق والأمر بقوله:

﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف، ٥٤)

وقد قدم المفسر ألمالي لي حمدي يازِر شرحاً يتعلق بهذه الآية فقال: (إن التقدير والتكوين من الأزل إلى الأبد له سبحانه، وإن القبول ووضع التشريع له أيضاً.

ومن هنا فإن المخلوقات الموجودة حجماً ومقدارا ملكه، والأوامر التي تجري عليها والتي ليس لها مقدار ولا حجم له أيضاً، أي إن الخلق له والأمر له. فالجسم والمادة والشكل بإيجادها وتكوينها، والروح والقوة التي تديرها هي من تأثيره وقوته. ولا يمكن لغيره أن يصدر منه إيجاد عدم أو إيجاد ممكنات. فالإيجاد له، وجعل الشيء واجبا يرجع له، والمعجزة له، والقانون له، وكل ما سواه خاضع لحُكمه، هذا ما يؤخذ من قوله تعالى:

﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾. أما هو فخالق كل شيء، وصاحب التصرف المطلق، ولا يوجد كائن غير مستند لإيجاده، ولا يمكن أن يصدر أمر على خلاف أمره وإيجاده).

إن العالم المتشكل من الأكوان المخلوقة والمحدودة بالزمان والمكان يقال له عالم الخلق، كما يقال له عالم المُلك والشهادة، والأشياء التي نحسها بحواسنا الخمسة الظاهرية هي من هذا العالم.

أما العالم الغيبي المعنوي والروحي فيقال له عالم الأمر.

وبعبارة أخرى عالم الأمر هو العالم الكائن بأمر اللّٰه تعالى بكلمة "كن"، والغير متعلق بموضوع المادة والزمان، ويقال له عالم الملكوت وعالم الغيب أيضاً، والعقل والنفس والروح والقلب والسر وغيرها من اللطائف تعود لهذا العالم. وقد بين اللّٰه تعالى في القرآن الكريم أن الروح من عالم الأمر فقال:

﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (الإسراء، ٨٥)

والآية الكريمة التي تشير إلى نوعي الخلق في هذين العالمين هي قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس، ٨٢)

الأسباب والحِكَم الأساسية من خلقنا:

١ – المقصد الأساس من خلق الإنسان هي عبوديته ومعرفته للّه تعالى. قال تعالى:

﴿وَمَاخَلَقْتُ الْجِنَّ[1] وَالْاِنْسَ اِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات، ٥٦)

إن العبودية التي هي الغاية المذكورة من خلق الإنسان في هذه الآية الكريمة هي مرتبة شريفة لدرجة أننا نرى موقعها الجليل في كلمة الشهادة، وبناءً عليه فإن النبي ﷺ كان عبداً أولاً ثم أصبح رسولاً، وهذا يدلنا على أن العبودية تكون أولاً، أما الرسالة فهي لا تخرج عن حدود العبودية. وقد قال النبي ﷺ تنبيهاً لمن بالغ في تعظيمه زيادة على حده، وللدلالة على أهمية مرتبة العبودية:

"لا ترفعوني فوق حقي، فإن اللّٰه ﷻ اتخذني عبداً قبل أن يتخذني رسولاً" (الهيثمي، ٢١\٩)

وقال اللّٰه تعالى في آية أخرى:

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْلا دُعَاؤُكُمْ...﴾(الفرقان، ٧٧)

١ لقد خُلِق الإنسان من التراب الذي هو جوهره الأصلي، وبالمقابل فإن الجوهر الذي خُلِق منه الجن هو النار البراقة التي لا دخان فيها (مارج من نار)، وبالتالي فإن الجن ليس له كثافة، لكن عنده قابلية للتشَكُّل في مختلف أنواع المخلوقات ذات الكثافة. وبالرغم من أن لديه القدرة على الحركة بسرعة الضوء إلا أنه ليس مخلوق متكامل مثل الإنسان في الكثير من المجالات؛ فهو من حيث المنزلة أقل من الإنسان. إن نبينا محمداً ﷺ قد أُعطي مَيِّزة خاصة به، ألا وهي أنه بُعِثَ رسولاً لكل من الإنس والجن، ولهذا لُقِّب بـ"رسول الثقلين"، وفي صعيد آخر فإن "مفتي الثقلين" هو لقب كان يُطلق على الإمام الغزالي وأبو السعود أفندي وأمثالهما ممن كانوا يُفتون كلاً من الإنس والجن، وأما "مرشد الثقلين" فلقب يطلق على المرشدين الكاملين الذين يتخصصون في تربية الإنس والجن في سلوكهم إلى اللّٰه ﷻ.

أي لولا عبوديتكم بالدعاء والتضرع لما كان لكم قيمة عند اللَّه تعالى ولا يُبالي ولا يَعْبأُ بكم. ومن معاني العبودية "**معرفة اللَّه**"، ولذا فإن الإمام الماتُريدي رحمه اللَّه وضع شرطين للإيمان، وهما:

أ- معرفة اللَّه ﷻ

إن خلق الإنسان متعلق بغاية تحقيق العبودية، ومعرفة الإنسان للّه ﷻ. ولهذا قال اللَّه تعالى في الآية الكريمة السابقة التي تبين سبب خلقنا: (**لِيَعْبُدُونِ**)

وقد فسر بعض المفسرين هذه الكلمة بكلمة: "ليعرفون" أي ليصلوا إلى معرفة اللَّه في القلب، والتي تؤدي إلى معرفته حقيقة. (تفسير ابن كثير، ٤، ٢٥٥)

إن السبب الرئيسي لخلق الإنسان هو وجود اللَّه تعالى، وإرادته إن يُعرَف، ولهذا قال اللَّه تعالى في الحديث القدسي:

"**كنت كنزاً مخفياً فأحببتُ أن أُعرَف، فخلقتُ الخلقَ لأُعرَف**"[١]

ب- المحبة

يقول اللَّه تعالى في الآية الكريمة:

﴿...**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلّهِ**...﴾ (البقرة، ١٦٥)

ولهذا فإن حب اللَّه تعالى أكثر من أي شيء آخر حباً شديداً هو

١ انظر: ابو السعود، ارشاد العقل السليم، جـ ٢، ص ١٣٠ (آل عمران،١٩١)؛ الآلوسي، روح المعاني (الفاتحة، ٣)؛ العجلوني، كشف الخفاء، جـ ٢، ١٣٢.

من أهم الأسباب والحِكَم لخلقنا، لأن اللّٰه تعالى أحَبَّنا، وأنعم علينا بنعمه التي لا تحصى، ولذلك فقد طلب من عباده أن يحبوا ذاته الإلهية، وأن لا يطغى حبهم لأي شيء آخر على حبهم له تعالى، فإن تصرفوا بخلاف ما طلب منهم فإنه يُعلِمهم أن عاقبتهم ستكون وخيمة، وأنه ينتظرهم عذاب أليم، وقد بيَّن اللّٰه تعالى في الآية الكريمة، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللّٰهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...﴾ (المائدة، ٥٤)

وفي آية أخرى كأن اللّٰه سبحانه وتعالى يخبرنا بأن السبب الأول لهلاك بعض الأفراد والأقوام هو قطع المحبة، فيقول:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللّٰهُ بِأَمْرِهِ وَاللّٰهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة، ٢٤)

وقد جاء في الحديث الشريف أن حلاوة الإيمان لا يذوقها إلا من يحمل هذه الخصائص الثلاثة:

- أن يكون اللّٰه ورسوله أحب إليه مما سواهما
- أن يحب في اللّٰه ويبغض في اللّٰه

- وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه اللَّه منه كما يكره أن يُلقَى في النار. (انظر: البخاري، الإيمان ٩، ١٤، مسلم، الإيمان ٦٧)

ولكن شرط محبة اللَّه ﷻ هي المحبة المفرطة لرسول اللَّه ﷺ النابعة من القلب، والتي ينتج عنها اتِّباعه والاقتداء به، وذلك يعني الفناء فيه، يقول اللَّه تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران، ٣١)

وقد جاء في الحديث الشريف أيضاً أن محبة الرسول الكريم ﷺ هي شرط للإيمان الحقيقي، قال ﷺ:

"واللَّه لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أمه ووالده وولده والناس إجمعين" (البخاري، الإيمان، ٨)

٢- إن اللَّه سبحانه وتعالى خلق الإنسان لكي يُظهر العظمة والإبداع في خلقه، فالإنسان من روائع الخلق وبدائع الوجود، ولذا فقد قال اللَّه تعالى:

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ. وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

(الذاريات، ٢٠-٢١)

وفي آية أخرى أيضاً بعد أن بين اللَّه تعالى لنا مراحل خلق الإنسان يلفت نظرنا إلى عظمته، فيقول ﷻ:

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [١] (المؤمنون، ١٤)

وهناك وجه آخر لعظمة خلق الإنسان، ألا وهو كونه أشرف المخلوقات واتخاذ اللَّه سبحانه له خليفة في الأرض، يقول اللَّه تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة،٣٠)

وقد وضع المفسر ألمالي لي حمدي يَزر لقوله تعالى جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً التفسير التالي: (سأهبه نصيباً من إرادتي ومن قدرتي ومن بعض صفاتي، وهو باسمي وبوكالتي سيكون صاحب التصرف في العديد من المخلوقات، ونيابة عني سيطبق أحكامي، ولن يكون أصلاً في هذا الخصوص، فهو لن يطبق الأحكام باسمه الشخصي أصالة، ولكنه سيكون نائبي ووكيلي، وسيكون مأمورا بتنفيذ إراداتي وأوامري وبتطبيق قوانيني بإرادته هو، ثم سيكون من يأتي بعده خلفاً له، فتكون وظيفتهم نفس وظيفته، وعندها يظهر سر قوله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ...﴾ (الأنعام، ١٦٥) (الماللي محمد حمدي يازير، حق ديني قرآن ديلي، أستانبول، ١٩٣٥، ١، ٢٩٩-٣٠٠)

---

١ في اللغة العربية يمكن أن يُضاف إلى معنى كلمة (خالق) معناً آخر وهو (إيجاد شئ ما). ولهذا عحينما يُقال "أحسن الخالقين" فهذا لا يعنى أن هناك خالقاً آخر غير اللَّه. فمثلاً عندما يُقال: "عليُ أحسن طالب" فإن هذا ليس شرطاً لوجود طلاب آخرون متفوقون في الفصل، ويمك أن يُستخدم هذا التعبير حتى لو أن علياً كان هو الطالب الوحيد في الفصل، وفي هذه الحالة يكون المعنى أن "علياً طالباً متفوقاً جداً

حقاً لقد خُلق الإنسان بأوصاف واستعدادات يغبطه عليها الملائكة لقربها من الحق تعالى. ونرى هذه الحقيقة في قوله تعالى:

﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ (التين، ٤)

٣– إن اللّٰه سبحانه وتعالى خلق الإنسان لكي يُظهر تجلي الأسماء الإلهية في مستوى أعلى.

ويشير إلى هذا المعنى الحديث الشريف:

"**تَخَلَّقوا بخُلُق اللّٰه**" (المناوي، التعاريف، ص ٥٦٤)، لأن أكبر نسبة تَجلٍّ للأخلاق الإلهية نجدها في الإنسان من بين كل المخلوقات. ولأن الملائكة ليس لها نصيب من تجلي بعض الأسماء كالمضلِ والمتكبرِ فإن نفسها لا تشكل مانعاً ولا ترتكب ذنباً. ولهذا فإن الإستعداد الذي يُمَكِّن صاحبه من تخطي النفس والوصول إلى اللّٰه سبحانه وخلافته قد امتن اللّٰه به فقط على الإنسان وحده.

ولهذا فإن أشرف المخلوقات سيدُنا محمدٌ ﷺ قد نفذ في معراجه إلى حيث لم يستطع أن ينفذ أكبر الملائكة سيدُنا جبريلُ عليه السلام من الحدود، أي إلى سدرة المنتهى.

والخلاصة أن الإنسان يجب أن يعيش حياته مدركا أنه عبد للّه أرسله إلى هذه الدنيا، وأن يكون همه دائما شكر النعم اللا متناهية التي أنعمها اللّٰه عليه.

خلق سيدنا آدم عليه السلام

إنَّ خالقَ ومالكَ هذا الكون هو اللَّه عز وجل، وقد أراد خلق الإنسان وشَرَّفه على سائر المخلوقات لكي يعرفه، ولكي يطيعه ويعبده، ويعمر الأرض. وقد أبلغ اللَّه سبحانه ملائكته الذين كان قد خلقهم من قبلُ واصطفاهم لعبادته هذه الإرادة الإلهية، فقال اللَّه تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة، ٣٠)

وقد كانت ردة فعل الملائكة تجاه هذا الأمر أنهم جميعاً قالوا:

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة، ٣٢)

فالخلافة كالوكالة، وهي تقابل الأصالة، أي النيابة عن الغير، وهي تقريباً تعني تمثيل الغير بأخذ مكانه. والخليفة هنا بمعنى الوكيل الذي يمثل إرادة اللَّه تعالى في الأرض والذي يمتثل لأوامره ونواهيه، ومن هنا فإن الإنسان سيكون واسطة ووسيلة لإتمام نور اللَّه جل جلاله.[1]

---

١ لهذا فإن اللَّه تعالى اتخذ بعض الناس كوسيلة لاستمرار دينه إلى يوم القيامة، مثل: الإمام أبو حنيفة، والإمام البخاري، والإمام أحمد بن حنبل، وأئمة المذاهب الأخرى، وأهل التصوف الكبار

والوكالة في نفس الوقت تعني تكريم وتشريف الأصل للفرع، وجَعْلُ اللَّه أنبياءه خلفاء على هذه الأرض يعتبر من هذا القبيل. وفي الحقيقة إن هناك إشارة لذلك في الروح المنفوخة في الإنسان، أي يوجد وصف لهذا التوجيه فيها، وإلا لم تكن هذه الخلافة لتأتي بمعنى الوكالة عن الألوهية بأي شكل من الأشكال.

في هذه الآية الكريمة عندما أجرى اللَّه نوعاً من المشاورة مع الملائكة وأخبرهم أنه سيخلق خليفة له كأنهم بدؤوا يظهرون أنهم أليق بمقام الخلافة هذا، وبرهنوا على ذلك أنهم يسبحون اللَّه وينزهونه، ولكن اللَّه رد عليهم قائلاً: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ مُعْلمهم بذلك أن خاصية التسبيح والتنزيه التي يتصفون بها ليست كافية لأن تخولهم خلافته، وأن الخلافة يمكن أن تستأهل بنفخ سره، أي روحه، فيمن يخلفه، وتعليمه الأسماء.

وهكذا فقد كانت الخلافة لائقة بالإنسان، وذلك لكونه من بدائع المحدثات أي من روائع إبداع الخلق الإلهي ظاهراً وباطناً، فهو المخلُوقُ الرائع الذي اجتمع فيه تجلي كل أسماء اللَّه تقريبا.

حكم السؤال الذي سألته الملائكة للّه سبحانه وتعالى:

١ – أرادت الملائكة أن تعرف الحكمة من خلق الإنسان، وإلا فلم يكن الغرض من سؤالهم الإعتراض أو حسد سيدنا آدم، لأنه حسب ما أخبرتنا النصوص فإن الملائكة لا تتصف بمعصية اللَّه أو الإعتراض عليه سبحانه، ولا بالأخلاق السيئة كالحسد والحقد.

٢- هناك احتمال أن تكون الملائكة استطاعت أن تعرف من اللوح المحفوظ أن الإنسان سيفسد في الأرض ويسفك الدماء، فمن الممكن أن تكون قد سألت لهذا السبب، حيث إن بعض علماء الكلام ذهبوا إلى أن الملائكة تستطيع أن تقرأ ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ. (انظر: الرازي، التفسير، ٣١/ ١١٤)

٣- قد تكون الملائكة سألت هذا السؤال لأن اللّٰه سبحانه قد أطلعهم على هذا الحال (حال الإنسان) من قبل.

٤- طبقاً لرأي آخر فإن الملائكة سألت هذا السؤال لأنها كانت على علم بالفساد والخراب الذي سوف يحدثه الجِنُّ.

يروى أن المولى ﷻ عندما أراد أن يخلق آدم عليه السلام بعث اللّه جبرئيل إِلَى الأَرْضِ لِيَأْتِيَهُ بِطِينٍ مِنْهَا، فَقَالَتِ الأَرْضُ: إِنِّي أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ أَنْ تُنْقِصَ مِنِّي شيئا وتشيني[1]، فَرَجَعَ وَلَمْ يَأْخُذْ، وَقَالَ: يَا رَبِّ

١ يظهر أن الجمادات المعهودة لنا وغير المعهودة لها شعور تدرك به ثقل التكليف الملقى عليها، حيث إن سيدنا محمد ﷺعندما كان في إحدى المرات مع أبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم كانوا يصعدون جبل أُحد، فبدأ الجبل يرتجف بهم، فقال له رسول اللّٰه ﷺ: **"اثبت أُحد، فإنما عليك نبي وصِدِّيق وشهيدان"** (الترمذي، المناقب، ٣٧٠٣\١٨) إن كل فرد من الجمادات والنباتات والحيوانات يسبح بحمد ربه بلسانه الخاص، وهذا ما يبينه قوله تعالى في الآية الكريمة:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء، ٤٤)

إِنَّهَا عَاذَتْ بِكَ فَأَعَذْتُهَا، فَبَعَثَ مِيكَائِيلَ فَعَاذَتْ مِنْهُ فاعاذها فرجع، فقال كما قال جبرئيل، فبعث إسرافيل فَعَاذَتْ مِنْهُ، فَأَعَاذَهَا فَرَجَعَ، فَقَالَ كَمَا قَالَ جبرئيل، فَبَعَثَ مَلَكُ الْمَوْتِ فَعَاذَتْ مِنْهُ، فَقَالَ: وَأَنَا أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَرْجِعَ، وَلَمْ أُنَفِّذْ أَمْرَهُ، فاخذ مِنْ وَجْهِ الأَرْضِ، وَخَلَطَ

ومن أفضل الأمثلة التي تؤيد ما قلناه: أنين جذع النخلة للنبي ﷺ (البخاري، المناقب، ٢٥)، وتفريق البحر الأحمر بين سيدنا موسى وفرعون (البقرة، ٥٠).

ومثال آخر: البحث العلمي الذي قام به العالم الياباني Masaru Emoto على بلورات الماء المتجمد، حيث وجد أن منها المستوي ومنها المتناسق ومنها سداسي الشكل، وهذه البلورات لم تمسها يد الإنسان، بل هي موجودة في مصادر المياه الطبيعية، فأدرك أنها ذات أشكال من الجمال والتناسق بحيث تسحر أعين الناس. فأخذ من ماء هذه البلورات ثم فرَّغه في وعائين منفصلين وأجرى عليها تجربة، ورأى أن بلورات ماء الكوب الأول والذي نفث فيه كلمات حب وشفقة ودعاء وامتنان قد حُفظت بالجمال الطبيعي، وأما بلورات الماء الذي نفث فيه كلمات نابية ولفظ "الشيطان" فرأى أنها تصدّعت وفسدت أشكالها وفقدت كل ميزات جمالها. وفي نفس التجربة وجد أن أثر الموسيقى الجميلة والمريحة على هذا الماء يختلف عن أثر الموسيقى المزعجة والإيقاع غير المتناغم عليه.

ولتأكيد هذه الحقيقة التي وصل إليها Masaru Emoto فقد أجريت تجربة أخرى مشابهة لها على أرز مسلوق وضع في جرار منفصلة، فوضعت في جرة بطاقة مكتوب عليها "شكرا"، ووضع في الأخرى بطاقة مكتوب عليها "غبي"، وخلال مدة شهر ظلت هذه العبارات تُلفظ، فاكتشفوا أن الأرز الموجود في الجرة الأولى بقي محافظا على بياضه ونضارته، وأما الأرز الموجود في الجرة الأخرى فوجدوا أنه اسودّ وفاح برائحة نتنة.

فَلَمْ يَأْخُذْ مِنْ مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَأَخَذَ مِنْ تُرْبَةٍ حَمْرَاءَ وَبَيْضَاءَ وَسَوْدَاءَ، فَلِذَلِكَ خَرَجَ بَنُو آدَمَ مُخْتَلِفِينَ، فَصَعِدَ بِهِ فَبَلَّ التُّرَابَ حَتَّى عَادَ طِينًا لازِبًا- وَاللازِبُ هُوَ الَّذِي يَلْتَزِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ- ثُمَّ تُرِكَ حَتَّى تَغَيَّرَ وَأَنْتَنَ، وَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ: «مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» ، قَالَ: مُنْتِنٌ[1].

وبسبب القرار الذي اتخذه عزرائيل في هذا الموقف وكلَّ اللَّه تعالى إليه وظيفة قبض الأرواح. ولأن الإنسان خُلق من تراب فإنه يحمل خصائصه، فالتراب ييبس أحيانا، ويُصلى من الحر، ويتلهف شوقاً إلى الماء. يتحمل قسوة موسم الشتاء، ولكنه سرعان ما ينتعش ببركة أمطار الربيع، وعندها يعرض لنا مختلف أشكال القدرة الإلهية المتمثلة بالجمال والألوان والروائح والتناغم.

والإنسان يشابه التراب أيضاً في قدَر آخر، وذلك أن الشهوات الدنيوية تعصف بالإنسان كما يعصف الإعصار الموجود في الصحراء بالرمال، ثم يهدأ. فإن النفس إنْ تسلَّطَتْ على الإنسان تجعل حياته تعسة، ولكنه بتخطيه حاجز النفس يصل إلى الكمال. وكما أن التراب يجد الحياة في أمطار الربيع فإنه ينال معها الفيض وتجليات الرحمة ويؤثر ما ناله إلى غيره. وهكذا فإن الإنسان ينفق النعم التي اكتسبها من أجل رضاء اللَّه ﷻ مثله في ذلك مثل التراب المُنبِت في فصل الربيع وبركته وجماله.

١ الطبري، التاريخ، ١، ٩٠

وبسبب أن جسد الإنسان الفاني مخلوق من التراب فإنه يتغذى عليه وفي النهاية يفنى فيه، أي يعود لأصله. إن جميع العناصر الموجودة في التراب موجودة في جسم الإنسان، سواء بقلة أو بكثرة، وأيضا فإن جسم الإنسان هو مظهر آخر من مظاهر التراب، حيث جاء في رواية أن آدم عليه السلام سمي "آدم" لأنه خلق من تراب[١]. والآية الكريمة التي تخبرنا أن آدم عليه السلام خلق من تراب هي قوله تعالى:

﴿...خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران، ٥٩)

وكما أن التراب له ألوان مختلفة كالأحمر والأسود والأبيض وغيرها فإن للإنسان المخلوق منه كذلك ألواناً مختلفةً أيضاً. ومن ناحية أخرى فكما أن بعض أجزاء التراب صلب وبعضها لَيّن فإن الناس من حيث الإستعداد والقابلية متنوعون كذلك. وهذا ما يخبرنا به اللّٰه سبحانه في قوله:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر، ٢٧-٢٨)

١ انظر: ابن سعد، الطبقات، ١، ٢٦

وفي هذا الشأن يقول سيدنا محمد ﷺ:

"إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ: جَاءَ مِنْهُمُ الْأَحْمَرُ، وَالْأَبْيَضُ، وَالْأَسْوَدُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ، وَالْحَزْنُ، وَالْخَبِيثُ، وَالطَّيِّبُ «زَادَ فِي حَدِيثِ يَحْيَى» **وَبَيْنَ ذَلِكَ"**. (أبو داود، السنة، ١٦)

وحسب ما روي فإن اللَّه ﷻ عَجَنَ التراب الذي خُلق منه آدم بيده أربعين يوماً (الطبري، التفسير، ٣، ٣٠٦) وإن كَيفيّةَ كل يوم من هذه الأيام هو مجهول بالنسبة لدينا.

وحسب ما أطلعتنا عليه المصادر فإن الطين الذي خُلق منه آدم عليه السلام تُرِكَ أربعين سنةً، وأحمي على قالبه النار، وأمطر عليه أمطار الحزن تسعاً وثلاثين سنةً، وأمطار السرور سنة واحدةً، ولهذا فإن الحزن عند ابن آدم أكثر من السرور. وقد قال أصحاب الحكمة:

ها هي الدنيا إذا أضحكتْ يوما أبكتْ أياماً

المطر المذكور هنا ليس مادياً، وإنما هو تجليات معنوية، سمي مطراً مجازاً.

الحزن دائماً يعقبه سرور، فالمكافآت الكبرى تأتي دائماً بعد الصبر والمعاناة، وذلك كمعجزة المعراج، فإن اللَّه أنعم على نبينا بها بعد جولته الشاقة والمؤلمة إلى الطائف، والمرحلة المدنية

السعيدة جاءت بعد المرحلة المكية الصعبة. فقد قال اللّٰه تعالى:

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الانشراح، ٥-٦)[١]

عندما نزلت سورة الانشراح سُرَّ رسول اللّٰه ﷺ لأن اللّٰه تعالى قرن العسر بيسرين، فخرج إلى أصحابه مسروراً فرحاً وهو يضحك وقال: "**لن يغلب عسرٌ يسرين**" ثم تلا:

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الحاكم، ٢، ٥٧٥)

يقول الشاعر لمن واجه ظرفاً صعباً من مشقات هذه الحياة مرشداً إياه إلى طريق الخلاص:

اِذَا ضَاقَ بِــــكَ الْاَمْرُ   تَفَكَّرْ فِى «أَلَمْ نَشْرَحْ»
فَعُسْرٌ بَيْنَ يُسْرَيْنِ   اِذَا فَكَّرْتَهُ تَفرَحْ

لا شك أن الدنيا دار ابتلاء مليء بالمحن المختلفة، وذلك ما أخبرنا اللّٰه به في قوله تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ

١ تكررت في هذه الآية كلمتي "العسر" و "اليسر"، ولكن كلمة "العسر" جاءت مُعَرّفة بأل، وجاءت كلمة "يُسر" منكّرة، وحسب قواعد اللغة العربية فإن تكرار الكلمة المعرّفة يُفيد نفس المعنى، ولكن تكرار الكلمة المنكرة يفيد شيئا آخر، ولهذا السبب فإنه بالرغم من ورود كلمة "العسر" في السورة الكريمة مرتين فأنهما تفيدان عسراً واحداً، وأما اليسر فأنه موجود مرتين كما ورد. (انظر: البخاري، التفسير، ٩٤)

وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. اَلَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ. أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة، ١٥٥- ١٥٧)

حتى الجمادات والنباتات فإنه عندها نضوج بعد مرورها بمرحلة عمومية من مراحل الصبر، فمجيء الربيع يكون بعد تحمل التراب العذاب في موسم الشتاء، والإنسان أيضاً ينضج بالصبر وتحمل المشقة، ويصبح إنساناً كاملاً. يبين اللَّه تعالى لنا في القرآن الكريم مراحل خلق آدم عليه السلام من تراب كما يلي:

١. مرحلة التراب

﴿...خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران، ٥٩)

ولأن الإنسان خُلق من تراب فإنه يحتوي على خصائصه المختلفة في بنيته، فكما أن من التراب الطيني، ومنه الرملي، ومنه الناعم ومنه الخشن، فكذلك الناس يعرضون لنا في طبيعتهم هذا الإختلاف. وكذلك فإن التراب يُداس، ويمكن أن يُعمل عليه أي شيء بشكل مريح، ولا يصدر من التراب أي تذمر تجاه هذه الأمور، وهكذا فإن الصفات الموجودة في الإنسان كالصبر والتواضع تأتي من هنا. وبالمقابل فإن بعض الأوصاف كالسكون والعطل والكسل الموجود في التراب نراه في الإنسان أيضاً.

٢. مرحلة الطين

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (السجدة، ٧)

في مرحلة الطين يأتي دور الماء. قبل كل شيء فإن الماء منظِّف، فيمثل النظافة، ومن هذا المنظور فإن الماء يمثل العفة والشرف وطهارة الحواس المادية والمعنوية عند الإنسان.

٣. مرحلة الطين اللازب (الملتصق بعضه ببعض)

﴿...إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ (الصافات، ١١)

اللصوق يمثل عدم الإنقطاع وحس الولاء والتعلق عند الإنسان، وأيضاً فإن العناد والإصرار في الدفاع عن فكر معين عند الإنسان ناتج عن هذه المرحلة.

٤. مرحلة الصلصال (الطين المجفف بالهواء)

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر، ٢٦)

في مرحلة الصلصال من حمإ مسنون المذكورة يدخل عنصر الهواء، والهواء يُدخِل لطين الإنسان قابليته للحركة، فعدم الإستقرار والتقلب وعدم الوفاء بالعهد والتهدم ومثل ذلك من الأوصاف الموجودة في طبيعة الإنسان ناتجة عن هذه المرحلة.

٥. مرحلة الحمأ المسنون (الطين المُشَكَّل)

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر، ٢٨)

تشير مرحلة الحمأ المسنون إلى خاصية قابلية الإنسان للتشكل والتربية والتزكية، ويمكن لهذه الخاصية أن تُستعمل في الخير أو الشر، والمهم أنها تمكنه من تقويم نفسه.

٦. مرحلة "صلصال كالفخار"

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (الرحمن، ١٤)

يدخل في هذه المرحلة عنصر النار. وتنشأ من هذه النار بعض أوصاف الإنسان، كالكبر والغرور والحسد ومخالفة أوامر اللَّه والخيانة.

تلخص لنا الآيات ١٢-١٤ من سورة المؤمنون أحداث خلق الإنسان منذ حضرة آدم عليه السلام إلى من بعده ممن جاء من صلبه من النّاس، يقول الحق تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً[١] فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (المؤمنون، ١٢- ١٤)

---

١ التعبير بالمضغة: أي لحمة ممضوغة، في هذه الآية الكريمة هو معجزة قرآنية اكتُشِفت في عصرنا الحديث، إن المضغة التي تشكل المرحلة الثالثة من خلق الإنسان، ويكون الإنسان في فيها كأنه لحم ممضوغ تظهر عليه آثار الأسنان.

لم يستطع علم الطب أن يصل إلى هذه الحقائق إلا في عصرنا هذا، ولكن اللَّه سبحانه أخبرنا بمراحل خلق الإنسان في القرآن الكريم على نحو موافق للحقائق العلمية قبل ألف وأربعمئة سنة ونيّف.

يذكر اللَّه تعالى في الآيات الكريمة السابقة مراحل خلق الإنسان المليئة بالعبر والملفتة للنظر. إن الطين الذي يشكل المرحلة الأولى من مراحل خلق الإنسان، أي مرحلة التراب المستعمل في خلق آدم عليه السلام، هو من حيث المظهر مادة ليس لها جمال ولا قيمة، وأما ما بعدها من المراحل

فهي تقدم لنا مادّة غير جذّابة، بل مُقرفة، تعرض لنا مناظر من ماء مهين لا قيمة له، وتخثر دم جامد دَبِق (العلقة)، ومضغة. وبعد ذلك تتدخل التجليات الإلهية، فتظهر قدرة اللَّه تعالى في بديع تشكيل الإنسان وروعة وظرافة مظهره. ويعقُبُ ذلك زوال القوة المودَعة في هذه المادة، وخروج الروح منها، فتنعكس الرحلة سيرها، ويُكمِلُ ذلك الجسد رحلته بعد اكتمال مراحل نضوجه، ويعود مرة أخرى إلى المكان الذي أتى منه، ألا وهو التراب، فيتعَفَّن ويتحلّل فيه. وبعد ذلك يأتي دور بذرة الجسد الوحيدة التي لا تَفنى ولا تتعفَّن، والتي تُسَمّى "عُجبُ الذَّنَب"، والتي تكون في هذا البدن المتعفِّن كأنها قطرة زِئبق، فتُنبِتُ الجسد مرة أخرى وتدب فيه الحياة بشكل سريع، وتخرجه من مرقده.

وقد دعا اللَّه سبحانه وتعالى الإنسان إلى التفكُّر في سير رحلته هذه في آيات كثيرة، ومنها قوله تعالى:

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ﴾ (يس، ٦٨)

وقوله تعالى:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾

(الروم، ٥٤)

وقوله أيضاً:

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾

(طه، ٥٥)

مما سبق تخبرنا هذه الحقائق أنَّ بدن الإنسان نتيجة للمراحل التي يمر بها في الدنيا، ووفقاً لطبيعته وظروفه الذاتية فإنه محكوم عليه بالفناء، وأن الشيء الأصيل والدائم الأبدي هو سلطان الروح التي يكون معها طريق السعادة أو الشقاوة، الطريق إلى الجنة أو إلى النار.

نفخ الروح (نفث الروح)

بعد أن خلق ﷻ جسد الإنسان من قبضة تراب، نفخ فيه سرا من روحه منعماً عليه بأعظم المراتب بين المخلوقات. غير أن الحياة الموجودة في الإنسان المخلوق كجسد كانت قد بدأت بنفخ

الروح. ومن هذا المنطلق فإن نفخ الروح يعد قبل كل شئ تقدير من اللّه ﷻ لعبده، ومنحه الحياة. ويبين اللّه ﷻ هذه الحقيقة في الآية الكريمة:

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ...﴾

(الحجر، ٢٩)

إن نفخ اللّه تعالى من روحه في آدم ﵇ إنما هو تعبير مجازى. وكذلك في منح اللّه ﷻ العبدَ بعضاً من صفاته وفقاً لقدرات العبد واستعداداته. وبهذا النفخ يعرف الإنسان ربه ببركة وقدرة هذه الأمانة التي تلقاها منه، ويكون عبداً له. ويكون الإنسان على بصيرة من الأسرار والعظمة الإلهية على قدر طاقته وقدرته. أما مركز هذه الإحاطة فهو القلب. والقلب هنا ليس ككيان فيزيقي، إنما بوصفه مكاناً للتجلي ومركزاً للإحساس. إن امتلاك النفس السلطانية يجعل الإنسان بثلاث مهام أساسية ويكون مزوداً بالقدرة على الإيفاء بتلك المهام وهي:

١ - معرفة نفسه، أي معرفة ذاته وحقيقتها.

٢- معرفة خالقه، أي معرفة ربه (معرفة اللّه)

٣- إدراك فقره وحاجته إلى خالقه، الوصول إلى العدم

ولقد ورد في الأثر أن:

(من عرف نفسه فقد عرف ربه)

إن أول موجود خُلق إنما هو النور المحمدي، مثلما أن روحه الشريفة هي الأولى في خلق الأرواح. أما الأرواح الأخرى فهي من قبيل مكنون الجوهر وذلك من أجل معرفة قدر وقيمة روحه الشريفة.

ولهذا السبب يقال لنبينا محمد ﷺ: "أبو الأرواح".

ويروي أبو هريرة أن الصحابة رضي الله عنهم سألوا رسول اللّه ﷺ قائلين:

"مَتَى وَجَبَتْ لَكَ النُّبُوَّةُ "

فأجاب عليهم رسول اللّه ﷺ قائلا:

"وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ" (الترمذي، المناقب، ١، ٣٦٠٩)

وعلى هذا يكون سيدنا محمد ﷺ هو الأول في النبوة أيضاً. وإن الحكمة الكامنة في كونه الأول من حيث خلق الجسد، الروح، والنبوة سنتناولها لاحقا في موضوع أمر اللّه للملائكة بالسجود لسيدنا آدم عليه السلام. ويمكننا أن ندرس الروح في قسمين:

١- الروح السلطانية:

وهي من عالم الأمر. وتكون منفصلة عن الجسد. وكونها معه إنما يكون لسيطرتها عليه وتحكمها فيه. ولا يؤثر فيها كون الجسد يفنى ويتعفن. غير أن الرغبات الجسدية بهذه الصورة تتخلص من السيطرة التي هي عليها.

٢- الروح الحيوانية:

وهي من عالم الخلق. وتنتشر في كل أنحاء البدن. تكون سيطرتها الأساسية على الدم. مركزها هو المخ. وهي تشكل نقطة البداية بالنسبة للأفعال والحركات. ولو لم تكن هناك الروح الحيوانية لما أصبح هناك تأثيرا في الجسد.[١]

الأطوار الخمسة للروح:

١- طور العدم: كان اللّه ﷻ موجودا وحده في الأزل، ولم يكن يوجد هناك أي موجود آخر سواه. وخلال تلك الفترة كانت الأرواح في عدم تام. وهكذا تخبرنا الآية الكريمة:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ (الإنسان، ١)

٢- طور وجود عالم الأرواح (مرحلة ألست):

خلق اللّه ﷻ الأرواحَ قبل خلق الأجساد لحِكَم كثيرة جداً. وهكذا يتناول الحديث الشريف هذه الحقيقة:

"خُلقت الأرواحُ قبل الأجساد بألفي عام" (الديلمي، المسند، جـ٢، ص ١٨٧- ١٨٨)

٣- طور إرسال الأرواح إلى الأجساد:

إن الأرواح التي خلقت قبل الأجساد بأزمنة بعيدة، و التي أُخذ منها العهد والميثاق فيما يتعلق بالإقرار بربوبية اللّه ﷻ، كان قد شُرع

١- انظر: اسماعيل حقي البروسوي، تمام الفيض، (تحقيق على ناملى)، رسالة ماجستير غير منشورة، استانبول، ١٩٩٤، ص ٤٧.

في نقلها وإرسالها إلى الأجساد واحدة فواحدة بما يتواءم مع خطة القدر التي كانت قد أُعدت في الأزل. وهكذا تتحدث الآية الكريمة عن نفخ الروح في آدم عليه السلام بوصفه أول إنسان:

﴿...وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ (الحجر، ٢٩)

٤- طور الانفصال عن الأبدان:

تنفصل الأرواح التي استوفت أجلها الذي كان قد قُسِم لها في هذه الحياة الفانية، تنفصل واحدة فواحدة عن أبدان التي لبثت فيها فترة مؤقتةً. وهذا المصير المحتوم الذي لا يمكن لأي أحد أن ينجو منه يقال له: الموت. وهكذا تخبرنا الآية الكريمة:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ...﴾ (آل عمران، ١٨٥)

٥- طور العودة إلى الأبدان مرة أخرى:

الموت في العقيدة الإسلامية ليس فناءً وزوالاً، إنما هو أشبه تمام الشبه بميلاد الطفل الموجود في رحم الأم حينما ينقطع ارتباطه به. فحينما تتخلص الروح من هذا العالم الفاني يكون ميلادها في صباح حياة أبدية.

وهناك سيحاسب الإنسان عن الحياة التي عاشها في الدنيا، وكنتيجة لهذا، فإما سيصل الإنسان إلى سعادة لا حد لها، أو يتعرض لعذاب أبدى (أعاذنا اللّه عز وجل).

وهاتان آيتان اثنتان من بين مئات الآيات المتعلقة بهذا الموضوع:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس، ٧٩)

وعندما يتحدث المولى ﷻ في الآية السابعة من سورة التكوير عن علامات يوم القيامة الشديدة والرادعة يخبرنا اللّه ﷻ برده الأرواح للجسد من جديد:

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (التكوير، ٧)

ليس ممكناً بأي حال من الأحوال معرفة ماهية الروح التي تُنفخ من قبل اللّه ﷻ في الإنسان بوصفها سراً. ذلك لأنها تنتمي إلى عالم الغيبيات وتعبر عن ماهية لن يستطيع أن يعيها إدراك البشر. وبناء على هذا يخبرنا المولى ﷻ في الآية الكريمة بشأن ماهية الروح:

﴿و يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء، ٨٥)

- الروح من الأمور التي لا يعلمها إلا ربنا ﷻ.
- الروح هي الجوهر الذي يكون أساس "الأمر".
- الروح عبارة عن فعل من قبيل أمر ربنا ﷻ.

و يمكن إيضاح كلمة "أمر" الواردة في الآية بكلمات مثل (الأمر، السلطة، السيادة، الإمارة) بوصفها متعلقة أيضاً بكلمة إمارة

التي هي من نفس أصلها. وفي هذه الحالة يكون معنى الروح صفة وحالة الأمر. وهذا أيضاً يعتبر تجلى لصفات اللّه في العبد.

وهذا يعنى أيضاً أن الإمارة (الحكم والإدارة) تكون إحدى الصفات التي تتجلى في العبد. وبناء على هذا فإن كون الإنسان خليفة اللّه، فهذا يتصل بتجلي السلطة (الإدارة) التي توجد هنا.

والإمارة خاصة بالإنسان. فالبرغم من أن الأسد يكون أقوى من الإنسان من الناحية الجسمانية، إلا أنه يظل ضعيفا في مقابل نضج الإنسان وتكامله العقلي، فمثلا إذا عاش الأسد ألف عام فلن يستطيع أن يصنع لنفسه آلة أو منزلاً.

علاوة على ذلك أيضاً فلا يوجد تجلياً بالمعنى الكامل عند الملائكة. إن هذا النمط من التجلي يكون متوائماً مع الإنسان فقط. والإنسان يكون بين "أحسن تقويم" و"بل هم أضل: درجة أدنى من الحيوانات".

فمثلاً نجد صفات "الرحمن" و"الرحيم" التي تتجلى في محيط قلب الإنسان، مجتمعة في نفسه جنباً إلى جنب مع صفات "مُضِل" و"كبرياء".أي أن الإنسان يعد جامع الأضداد. فهو يجمع في داخله جميع الصفات الإيجابية والسلبية. وكونه جامع الأضداد إنما هو أمر يختص به الإنسان دون غيره من المخلوقات.

في نهاية الآية الكريمة السابق ذكرها يتم التعبير بشكل قاطع عن أن الإنسان أُعطى علم قليل فيما يتعلق بماهية الروح بوجه خاص.

وعلى هذا يجب على الإنسان ألا ينشغل بفك أسرار الروح متجاوزاً في ذلك حده، وعليه أيضاً ألا يغتر بعلمه، وفي مقابل ذلك عليه أن يولى أهمية أكبر للعبودية متفكراً بشكل أعمق في طبيعة مسؤولياته. بعد أن خلق اللّه ﷻ آدم عليه السلام علَّمه أسماء الأشياء كلها من أجل تحقيق القوامة له على سائر المخلوقات. وتروى الآية الكريمة التالي ذلك في قوله ﷻ:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَـؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة، ٣١)

وعندئذٍ سبّحت الملائكة بحمد اللّه تعالى منزهين إياه عن كل صفات النقص، وفي هذا يقول اللّه تعالى:

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة، ٣٣)

إن المقصود بالأسماء التي عُلمت لآدم عليه السلام طبقاً لأحد التفسيرات- كان أسماء جميع الأشياء الموجودة على وجه الأرض، وماهيتها، وخصائصها.

نحن لا نستطيع أن نعلم بقدر ما ينبغي مظاهر القدرة الإلهية، جميع الأسرار الإلهية بما فيها من حِكم، أي غايات الأسماء الحسنى ودلالتها. ومن ثم فإمكانية معرفة اللّه ﷻ يمكن أن تتم فقط من خلال حياة قلبية. وهكذا تتضح حقيقة الأشياء وأسرارها من خلال الحدث القلبي. وهذا يتعلق فقط بالإحاطة بأسماء اللّه الحسنى والتعرف إليه. ويعرف اللّه سبحانه وتعالى نفسه لعباده من خلال الأسماء الحسنى فيقول سبحانه وتعالى:

﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ...﴾ (الأعراف، ١٨٠)

ذلك لأن العبد يحقق من خلال الاسم صلته بالإلوهية. و توضح هذه الحقيقة أن اسم اللّه تعالى يُعد مكوناً لا يمكن التخلي أو الانقطاع عنه. ومن هذا المنطلق فإن أفعال الخير والشر التي يقوم بها العبد تجاه اللّه لا تتجه إلى حقيقة الإلوهية وإنما تتجه إلى اسمه. وهكذا تظل حقيقته جل وعلا منزهة دوماً.

وفي حقيقة الأمر، فإذا لم تكن هناك أسماء قد اختص بها اللّه ﷻ نفسه، لواجه العبد حينها متاعب في تنظيم صلاته باللّه. ذلك لأن الإنسان متعود على رؤية الموجودات في أسمائها، ومتعود أيضاً على التعبير بالاسم. فالاسم بالنسبة للإنسان هو تجلى الكون. ولذلك فحينما خلق اللّه ﷻ آدم عليه السلام علَّمه الأسماء كلها، ولقد عبر سبحانه بهذا عن أفضلية سيدنا آدم بالنسبة للملائكة. ذلك لأن معرفة أحد أسماء الوجود يعنى التعرف على وجوده الحقيقي في

أحد المعاني. وبناء على هذا فإننا إذا لم نعرف اللّه ﷻ بأسمائه الجليلة فماذا نستطيع أن نعلم بشأنه سبحانه وتعالى؟

ومعنى هذا أن الإنسان محتاج دوماً إلى الأسماء التي تبين سمات ربه جل وعلا. كل عبد يريد أن يدعو ربه باسم يلاءم حاله، وذلك من خلال المواقف المختلفة التي يعيشها. ولولا هذه الأسماء لبقيت صلة الإنسان باللّه ﷻ منقوصة جداً، بل لعلها أيضاً ستكون مستحيلة.

ويمكن القول بأن هذه الأسماء تعد بمثابة الأقوال التي تزيل بَكْم الإنسان حيال الذات و الإلوهية، أي أنها تعد أيضاً المفاتيح التي تفتح مغاليق النفس البشرية وتخلصها من مآزقها. فحتى مجرد ذكر أسماء اللّه ﷻ فقط يكون له بالغ الأثر في زيادة إيمان العبد، وجعله يشعر بالحضرة الإلهية، وزيادة عشقه ومحبته للّهﷻ، وجعله خاشعاً للّه ﷻ.

وفي الترغيب في التواجد في معية اللّه ﷻ، وهجر الدنيا والتخلي عن متعها ولذاتها الزائلة، وجعله يتجه إلى كل ما هو خالد أبدى، والشعور برغبة عارمة في العودة إلى الحق جل وعلا والوصل به. إن الأدعية والأذكار التي أوصى النبي ﷺ بقراءتها، إنما هي مليئة بأسماء اللّه الحسنى، ومثل هذا يوجد فوائدها أيضاً.

إن أي مؤمن يواجه ظروفاً شديدة الصعوبة يكون حينئذ في أمس الحاجة إلى رحمة اللّه. وحينما يريد عون ربه فإنه سرعان ما

يبحث عن عبارة لكي يلخص بها حاله ويعبر عنه: فيتعلق بأسماء: «الرحمن والرحيم».

وحين يشعر بانقطاع صلة القلب وذلك عندما يُسحَق تحت وطأة ذنوبه الثقيلة، فإنه حينئذ يبادر بالبحث عن وسيلة تقربه من اللّه: فيلوذ بأسماء: «الغفار والستار».

وعندما يمعن النظر في العظمة أو في القدرة الإلهية التي تتجلى في الكون أو في نفسه، فإنه يبحث عن تعبير يعبر من خلاله عن عاطفته وانطباعه، الأمر الذي لا يمكن التعبير عنه من خلال الكتب: فيهدئ نفسه الهائجة قائلاً: «اللّه أكبر». وجملة القول أن العبد في مختلف أحوال نفسه يستطيع أن يتغلب على الكثير من حاجاته واختلاجاته التي يشعر بها، ويفتح أبواب نفسه المنغلقة وذلك بواسطة صفات اللّه ﷻ المتنوعة.

ومن أجل هذا، فلقد عرَّف اللّه ﷻ نفسه بأسلوب يتمكن الإنسان من فهمه، وبشكل يتفق مع الواقع. أي أن اللّه ﷻ حينما يُعرِّف نفسه من خلال صفات: العليم، الحكيم، القدير الغفور، وغيرها، وكذلك في معرفة الإنسان للّه ﷻ هكذا، فإنه في حقيقة الأمر يوجد سبب خاص يتعلق بالإنسان. ذلك لأنه يوجد بداخل الإنسان -ولو بدرجة محدودة جداً- جزء من هذه الصفات. وهذه أيضاً تُعد موهبة إلهية مُلطَّفة من أجل هداية وإيمان البشر.

وفي أحد معاني الآية الكريمة التي أخبرنا اللّه ﷻ فيها أنه علم آدم عليه السلام الأسماءَ، يقول تعالى فيما معناه:

«سأعلم الإنسان أسماء الأشياء، وأسرارها، وحكمها الدقيقة ومظاهر جمالها، والإعجاز الإلهي...»

وهنا يمكن الإشارة إلى أن شرف الإنسان وفضيلته سيتمكن من تحقيقهما بفضل العلم النافع الذي سيحصله. ولهذا ينبغي على الإنسان أن يبذل قصارى جهده في القيام بالأعمال الصالحة، وفي تحويل علمه إلى فهم ومعرفة، ذلك لأن الهدف إنما هو التقوى. يقول اللّه ﷻ في الآية الكريمة:

﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾ (الحجرات، ١٣)

و العقل هو مخلوق من مخلوقات اللّه ﷻ. و يمكن للعقل أن يثبت وجود اللّه بالحجة. ذلك لأنه يصل من خلال الأثر إلى المُؤثِّر، ومن الإبداع إلى المبدع. أما حكمته فيمكن أن تُحل فقط في ضوء الوحي. إلا أن قدرة وصلاحية العقل ومضمون الوحي تكون محدودة من حيث الفهم والإدراك. فحيثما ينتهي العقل ويتوقف، فإن القلب يواصل تقدمه بفضل نشاطه وفعاليته.

لكن حتى هذا لا يعد كافيا من أجل الوصول إلى الحقيقة المطلقة. لأن ذات اللّه مطلقة. وليس من الممكن الوصول إليها بواسطة العقل المقيد (أي أنه ليس مطلقاً) إلى الذات المطلقة

وإدراكها بشكل تام على ما يقتضيه الأمر. فيقول اللّه تعالى:

﴿...وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ...﴾ (البقرة، ٢٥٥)

وبالرغم من ذلك ينبغي على الإنسان ألا يُحجم عن طريق المعرفة، وأن يبذل كل جهده في البحث عن مختلف الوسائل للوصول إلى ربه. وإن أفضل النماذج لمن يبذلون هذا الجهد إنما هم الأنبياء. وعلى هذا، كان إبراهيم عليه السلام قد قال:

﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ (الصافات، ٩٩)

ويشار في الخبر أيضاً إلى عدم إمكانية معرفة اللّه عز وجل كما ينبغي، ومع ذلك يشار إلى أهمية هذه المعرفة قائلاً:

"**سبحانك ما عرفناك حق معرفتك...**" (المناوى، فيض القدير، ١١، ص ٢٥٠).

لقد تلقى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم العلم على ثلاثة وجوه:

أولاً: **علم محفوظ** بينه وبين اللّه جل جلاله. و هذا العلم لم يصرح به للناس، لكونه فوق مستوى إدراك البشر. لكن يمكن إدراكه واستيعابه بنور النبوة. ومن هذا القبيل تلك المعاني التي تحملها الأحرف المقطعة. وبناء على هذا لم ينقل سيدنا رسول اللّه إلى أصحابة كل معرفة أُخبر بها على نحو خاص، فيما عدا الوحي لكونه مأمور بتبليغه. ويشير حديث سيدنا رسول اللّه لهذه الحقيقة بقوله:

"**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**" (البخارى، الكسوف ٢، مسلم، الصلاة، ١١٢)

ويقول رسول اللّه ﷺ أيضاً في نفس الموضوع:

"لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل" (العجلوني، كشف الخفاء، رقم: ٢١٥٩)

ثانيا: **علم الشريعة** الذي يتعلق بالعامة. وكل البشرية مكلفة بالإيمان بهذا العلم والعمل به. وتعبر هذه الآية الكريمة عن هذا النوع من العلم: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ...**﴾ (المائدة، ٦٧)

ثالثاً: **قسم يُتاح لأهل الاختصاص**. ولقد نهى اللّه تعالى رسولَه ﷺ للأشخاص ممن هم ليسوا أهل اختصاص. فذات مرة أوصى النبي ﷺ ابن عباس رضي الله عنه قائلاً:

"يا ابن عباس! لا تحدث حديثاً لا تحتمله عقولهم فيكون فتنة عليهم" (الديلمى، المسند، ٥، ٣٥٩/ ٨٤٣٤)

ولهذا يقول سيدنا علي رضي الله عنه:

«حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكَذَّب اللّه ورسوله» (البخاري، العلم، ٤٩)

وطبقاً لإحدى الروايات التي وردت عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الصحابة الكرام سألوا رسول اللّه ﷺ قائلين:

«يا رسول الله ما نسمع منك نحدث به كله؟؟

فأجاب رسول اللّه ﷺ قائلاً:

"نعم إلا أن تحدث قوما حديثا لا تضبطه عقولهم فيكون على بعضهم فتنة، فكان ابن عباس يكن أشياء يفشيها إلى قوم".

وبعد هذا التحذير كان ابن عباس ﵄ يوضح بعض الأشياء بالتلميح(بطريق غير مباشر) وذلك إذا قام بشرح مسألة إلى العامة من الناس. (علي المتقى، كنز العمال، ٥، ٣٠٧/ ٢٩٥٣٧)

وهكذا يقول أبو هريرة ﵁ في هذا الشأن:

«حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وِعَاءَيْنِ: فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ» (البخاري، العلم، ص٨٢)

هذا العلم الذي كتمه خيار الصحابة عمن هم ليسوا أهلا له كان عبارة عن حقائق سيتمكن من إدراكها أناس مستثنون، مزودون بمقدرة فائقة فيما يتعلق بالفهم والإدراك.

كان رسول اللّه ﷺ قد نقل حقائق كهذه إلى بعض الأشخاص ذوى الفهم الفائق من أصحابه الكرام أمثال سيدنا أبو بكر الصديق وسيدنا علي ﵄. إن كل شخص يكون مسئولا عن هذا بقدر استعداده ومهارته. وينبغي على العبد تنمية هذا الاستعداد من أجل نجاته وبلوغه السلامة، والوصول إلى مشاعر الزهد والتقوى والإحسان، وبتعبير آخر ينبغي عليه أن يسعى إلى معايشة التصوف في أبهى صوره وأجملها. وهذا أيضا يمكن تحقيقه فقط من خلال تزكية النفس وتصفية القلب.

وبادئ ذي بدء، فإن سلامة الفرد تكون ممكنة بإتباع التكاليف الشرعية. أما كونها تتفق مع مبادئ التصوف، فذلك يضمن تحقيق هذه السلامة بسمو عالٍ وعلى نحو خاص.

ولما كانت التكاليف الشرعية تخاطب كل الناس، لذا فهي تُطبَّق في حدها الأدنى بما تقتضيه الرحمة الإلهية، وتؤخذ قدرة أكثر أفراد العامة عجزاً كمقياس لذلك. أما فيما يتعلق بالترقي والسير قدما في طريق التصوف فتظل مقدمة هذا الطريق مفتوحة وفقا للاستعداد، وتعرف رخصة إلى أهلة حتى الفناء في اللّه والبقاء باللّه.

فمثلاً بالرغم من أن زكاة المال تكون اثنين ونصف بالمائة، فإن اللّه ﷻ لم يضع حداً للإنفاق. فلقد حث اللّه المؤمن على إعطاء أخيه المحتاج ولو حتى نصيبه الذي يكون هو نفسه في حاجة إليه مُؤْثرا إياه على نفسه. وهذا النصاب الشرعي للزكاة يكون طبقاً للحد الأدنى فيما يتعلق بالقلب.وكلما زادت محبة القلب زاد معها حد الإنفاق.

ومن هذا المنطلق فإن علم التصوف بوصفه حقيقة إنما هو «علم لدنى»، والذي يمكن الوصول إليه على حسب قدرة الفرد واستعداده نتيجة الرياضة الروحية. والدليل على ذلك تحدث القرآن الكريم بشأن هذا العلم في عددٍ من الآيات الكريمة. يلطف اللّه كثيراً باللذين يتقونه على ما ينبغي من تلقاء أنفسهم، وكذلك

بقلوب العباد اللذين تخضع إرادتهم البشرية ورغباتهم لإرادة اللّه تعالى، كما يلطف كثيراً أيضاً بهؤلاء اللذين لا يستطيعون أن يزنوا الأمور ويقدروها. وبناء على هذا، يخبرنا ربنا جلَّ وعلا في القرآن الكريم أنه سبحانه قد تفضل على عبادة المتقين بحكمة وعلم على نحو خاص:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الأنفال، ٢٩)

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحديد، ٢٨)

إن أشخاصاً مثل الإمام الغزالي وعبد القادر الجيلانى كانوا قد وصلوا من قبل إلى قمة العلم الظاهري، لكنهم تمكنوا بعد ذلك من الوصول إلى بعض التفاصيل الغيبية، وذلك بفضل المشاعر الرقيقة المتجهة إلى اللّه، التلطف والرأفة، وكذلك بفضل قوة المشاعر القلبية وعمق التفكير القلبي، فصاروا عشاقاً للّه ﷻ.

لقد منح اللّه ﷻ بعضَ صفوة الخلق بعضَ الأسرار التي لم ينعم بها على العامة، وذلك بقدر قوة مشاعرهم القلبية. ولو لم يكن الأمر هكذا لما ظهرت تلك الشخصيات المعروفة.

سجود الملائكة لآدم عليه السلام

بعد أن خلق اللّه آدم عليه السلام ونفخ فيه من روحه، وعلمه الأسماء كان قد أمر الملائكة بالسجود له.

وفي هذا الشأن يقول اللّه عز وجل في الآية الكريمة:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ للملائكة إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ يٰإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ لَمْ أَكُن لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (الحجر، ٢٨-٣٣)

ولقد تم الحديث عن هذه الواقعة في القرآن الكريم وأُفرد لها مكان في سبع سور باعتبار أن كل واحدة منها تختلف عن الأخرى من حيث السياق والسباق. وهذا أيضا يوضح أهمية الموضوع. وهنا توجد توجيهات بالغة الأهمية:

لم يأخذ إبليس أوامر اللّه بعين الاعتبار، وتحرك في اتجاه رغباته و أهواءه. كان قد قدم مقايسة المنطقية وقياسه العقلي على أوامر اللّه عز وجل.ولهذا فإن العبد أيضاً إذا قدم عقله ومنطقه ورأيه على أمر اللّه عز وجل فإنه سيصبح حينئذٍ عرضة للخطأ نفسه الذي وقع فيه إبليس. حيث ورد ذلك التحذير الإلهي بهذا الشأن في الآية الكريمة:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾

(الحجرات، ١)

ويخاطب اللّه ﷻ إبليس و يسأله عن سبب امتناعه عن السجود بقوله:

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بيدي...﴾ (ص، ٧٥)

إن كلمة «بيدي» التي ذُكرت في هذه الآية إنما تعبر عن قدرة اللّه تعالى، وفي الوقت نفسه فإن هذا التعبير يظهر تلك الأهمية التي أولاها اللّه ﷻ للإنسان.

وهكذا يعبر «محي الدين بن العربي» عن هذا المعنى بتعبير آخر إشارى فيقول: «اليدان هما تجليات اللّه الجلالية و الجمالية. حيث إن بُنية جسد الإنسان وجانب الخلق الجسدي يعتبر تجلى جلال، أما الجانب الروحاني المعنوي فيعد تجلى جمال. وفي الإنسان يكون الجمع بين الاسمين، أما عند إبليس فيتوافر له تجلى الجلال فقط، ويظل محروما من تجلى الجمال»

ولقد ورد في الحديث الشريف:

"خلق اللّه آدمَ على صورته..." (مسلم، البر،١١٥)

إن الحقيقة التي تم التعبير عنها في الحديث الشريف ليست صورة جسدية، إنما هي صورة باطنية ومعنوية. فهي ليست جانب الجسد والكينونة وإنما جانب السر والروح.

لو لم يكن يوجد في آدم عليه السلام مظهر هذه التجليات الإلهية بكاملها، ولو لم يكن فيه صفات سامية تختلف عن بقية المخلوقات، لكان مستحيلاً أن يصبح خليفة، ولما استطاع الإيفاء بمهمته. لكن قيامه بإنجاز تكليفه بوصفه خليفة في الكون إنما هي كيفية تعود إلى إنسان كامل امتلك النضج مرورا بمراحل تزكية النفس، تهذيب الأخلاق وتصفية النفس.

وإذا تمكن الإنسان من الوصول إلى الطليعة في الحياة. ستكتمل تجليات اسم «الهادي» مثل: الهداية، الاستقامة، الإيمان، الإقرار، القبول، التودد (الصحبة والمحبة)، فإنه حينئذٍ يرتقى إلى درجة تفوق حتى الملائكة. وعلى العكس من ذلك، فإذا غلبت عليه تجليات الاسم الشريف «المُضل» مثل: الإضلال، الحيلة، الكفر، الإنكار، الحسد، والتسلط فإنه يتهاوى حينئذ إلى درجة أدنى من الحيوانات.

وبناء على هذا يقول اللّه تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَـٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف، ١٧٩)

إن عدم سجود الشيطان لآدم عليه السلام كان إشارة دالة على الخيلاء والكبر الكامن في شخصيته. لأنه كان في وقت من الأوقات يملك علما بدرجة جعلته كبيراً للملائكة. ولهذا السبب تبوأ مكانة بارزة.

ويتبين من هذه النقطة مدى خطورة العلم والجاه، كإثارة مشاعر الأنانية عند الإنسان. ومع هذا توجد إشارة أيضاً إلى أن العلم وحد غير كافٍ لطاعة اللّه ﷻ. حيث كان الشيطان من طائفة الجن مخلوق من نار ملتهبة بلا دخان. أجرى الشيطان مقارنة وفقاً لعقله المحدود مدعياً أن النار الملتهبة بلا دخان التي خلق منها إنما هي أعظم قدراً من الطين المبلل الذي خُلق منه آدم عليه السلام، ذلك لأنه كان يتصور في داخله أن ذلك يعد شرفاً وقيمة له. لأنه كان يعتبر أن من المذلة أن يسجد لآدم الذي هو أقل منه قدراً -طبقا لرأيه!- المخلوق من طين على اعتبار أصل الكينونة، معتبراً نفسه أعظم شرفاً حيث نشأ من أصل أعظم قيمة على اعتبار الجوهر الأصلي. ومثل هذا الموقف يشير إلى عدم كفاية العقل للوصول إلى الحقيقة.

وطبقا لما يُفهم من هنا فإنه يجب ألا تجرى مقارنة حيال أمر اللّه ﷻ. فالقياسات التي تجرى مخالفة للأصل تكون باطلة وفاسدة، ولا يُعتد بها. وهكذا وقع الشيطان في هذه السقطة.

إلى جانب ذلك، فحتى إدعاء الشيطان بأن منزلة النار أعلى من التراب يبقى تصوراً نسبياً. لأنه توجد خصائص كثيرة جداً في التراب تجعله أعلى منزلة من النار.

لكن المهم في ذلك ليس المقارنة وإنما الإمتثال لأمر اللّه تعالى. والذنب الأساسي الذي ارتكبه الشيطان إنما هو محاولة إضافة أمر بخلاف أمر اللّه.

وبناء على هذا قال إبليس بحماقة وتهور:

﴿...قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (الاعراف، ٧٦)

نظر الشيطان إلى الطين الذي خُلق منه سيدنا آدم في حين أنه لم ير عظمته. شاهد الطين المرتبط بهذه الدنيا، لكنه عمى عن المعنويات المتعلقة بالعالم الآخر.

والجانب الذي لم يستطع الشيطان إدراكه هو أن الإنسان «خليفة اللّه» بعين الواقع، وهكذا لم يستطع إدراكه أن يتجاوز مجرد مادة آدم عليه السلام. كان قد استمد إدراكه من نفسه وليس من اللّه عز وجل.

ولهذا السبب تحير وتحرك تحت تأثير عاطفته وانفعاله. إن إبليس الذي لم ينفذ أمراً آذى شعوره ولم يوافق رغبته، والذي لم يجتز اختباراً كهذا لم يستطع إدراك الحكمة الإلهية في ذلك. كان قد غرق وسط دوامات النفس وعصى اللّه بصورة قبيحة.

كان إبليس قد انقاد لنفسه المتفلتة وامتنع عن السجود لسيدنا آدم بسبب خوفه من فقدان كبريائه. لكنه بهذا التصرف أوقع نفسه في حالة أسوء من الخوف، حيث طُرد من هذا المقام العظيم الذي تفضل اللّه به عليه. أصبح مُحقراً وانقلب في هاوية سوء الحظ مطروداً من جانب الملائكة بعد أن كان في وقت من الأوقات يحتل مكانة كبيرة بينهم. وبناء على هذا يقول اللّه بشأن عصيان إبليس:

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الحجر، ٣٤-٣٥)

أيضاً قول اللّه تعالى لإبليس:

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[1] (الأعراف،١٣)

وهكذا فقد الشيطان مكانه بين الملائكة حينما ادعى التكبر والتعالي على سيدنا آدم عليه السلام. وحينما قلق بشأن حياته قال متوسلاً إلى اللّه:

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (الحجر، ٣٦)[2]

فتحقق له هذا المطلب بفضل الحكمة الإلهية:

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ.[3] إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (الحجر، ٣٧-٣٨)

يوجد لكل شخص في داخله نصيب من تكريم الإنسان، نظراً لأن جميع البشر الذين سيولدون إلى يوم القيامة من صلب آدم عليه السلام، ولكوننا متصلين جميعاً منذ البداية.

وهناك حقيقة أيضاً تتمثل في أن الناس جميعاً -متمثلين في شخص سيدنا آدم- مخاطبون بمعاداة الشيطان. هناك حاجة إلى اختبار العبد حتى تخرج جميع الرغبات التي تملكها النفس وتحتفظ بها. ومن أجل هذا كان من الضروري وجود محرض مثل الشيطان.

---

١ - بالإضافة إلى ذلك، انظر: (سورة ص ٧٧-٧٨)
٢ - بالإضافة إلى ذلك، انظر: سورة الأعراف، ١٤.
٣ - بالإضافة إلى ذلك، انظر: سورة الأعراف، ١٥.

إن واقعة الإقتراب من الشجرة المحرمة التي كانت سبباً في طرد البشر من الجنة ومجيئهم إلى الدنيا، كانت ضرورية من أجل إخراج الشيطان للرغبات الجسدية الكامنة في الإنسان حتى يوم القيامة.

وبناء على هذا فإن إبليس أيضاً يشكل عائقاً يحول دون الارتقاء الروحي للإنسان، وذلك بتحريضه له دوماً وإيقاظه المستمر لرغبات الجسد الجسدية. ولهذا السبب فالبشر جميعاً مضطرون إلى أن يكونوا دائماً في حالة تيقظ وانتباه.

وهكذا فبسبب كل هذه الحِكم كان اللّه ﷻ قد أمهل الشيطان إلى يوم القيامة. وفي المقابل أيضا أبقى اللّه باب التوبة والعفو مفتوحاً أمام البشر إلى أن يأتي الموت. لكن العبد بهذه الوسيلة كان قد عانى امتحان عسير في الآخرة. وهكذا يُسرد في سورة الإسراء بأسلوب بالغ الدقة طلب الشيطان الإذن من اللّه بذلك:

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـٰذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً. قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً. وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ (الإسراء، ٦٢-٦٤)

وفي هذه الآيات الكريمة تم تناول العديد من النقاط التي تحدثت عن تأثير الشيطان في الإنسان، وأنه مُسلط عليه بصورة كبيرة. ووفقا لهذا:

- الشيطان يستطيع فقط أن يوسوس لهؤلاء الأشخاص الذين يقعون تحت سيطرته وتحكمه.

- يضلل الشيطانُ الإنسان بكل أنواع اللّهو التي تحقق سهولة انحرافه لكونه ميال إليه بالفطرة، وبالمعازف والأغنيات التي تخاطب الجسد.

ولقد جاء في تفسير كلمة (صوت) التي وردت في الآية: كل أنواع الأصوات التي تؤدى بالإنسان إلى عصيان اللّه.

- يضلل الشيطان الناسَ عن طريق كثرة الأموال والأولاد في الدنيا.

شعر الشيطان بالأمان في داخله بعد أن أجاب له اللّه تعالى طلبه وأذن له، فقال الشيطان بسوء أدب مسنداً سبب عصيانه للمولى ﷻ:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَـأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لَـأَتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِين﴾ (الأعراف، ١٦-١٧)

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر، ٣٩)

أي سأزين لهم ذنوبهم بأن أظهر لهم الشر في صورة شئ جميل.

وهكذا يروي المتصوف الكبير يحي بن معاذ (٢٥٨/ ٨٧٢) مدى الهمة التي أظهرها الشيطان من أجل خداع الإنسان وإقناعه:

(الشيطان متفرغ غير مشغول، أما نحن فمشغولون، فلدينا أعمالنا ومشاكلنا. هو يرانا، أما نحن فلا نراه. نحن ننسى، أما هو فلا ينسى مهمته أبداً. علاوة على أن النفس التي هي عدونا الأكبر تسعى أيضاً لصالح الشيطان). وفي القرآن الكريم، بقول اللّه تعالى:

﴿...وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ...﴾ (البقرة، ٢٠٨)

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (فاطر، ٦)

﴿وَقُلْ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ (المؤمنون، ٩٧– ٩٨)

﴿وَإِماَّ يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (الأعراف، ٢٠٠–٢٠١)

ويلزم الإستقواء بشي آخر من أجل الوقاية من أي شئ يُتَخوَّف منه. وهذا يلزم الدخول في كنف اللّه ﷻ والتشبث به. يأمرنا اللّه ﷻ في سورة الناس باللجوء إليه وحده وذلك من أجل الوقاية من هذا

الإفساد الذي يقوم به الشيطان ذاكراً المولى ﷻ صفاته: رب، ملك، إله، لأن اللّه سبحانه وتعالى وحده القدير المتفرد بالملك الذي يستطيع حماية الناس ووقايتهم من شر الشيطان الذي يصرف كل جهوده، ويجرب كل أنواع الطرق من أجل إضلال الناس وخداعهم.

أما رسول اللّه ﷺ فيوصي بالتسمية من أجل الوقاية من الشيطان فيقول:

"إذا دخل الرجل بيته فذكر اللّه عند دخوله وعند طعامه قال الشيطانُ:(لجنوده) **لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر اللّه عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر اللّه عند طعامه، قال الشيطان أدركتم المبيت والعَشاء"** (مسلم، الأشربة، ١٠٣)

وفي الآية الكريمة يكون التمسك بالإخلاص بمثابة طريق آخر للوقاية من الشيطان، يقول اللّه تعالى:

﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الحجر، ٤٠)

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر،٤٢)

الإخلاص: هو عدم السماح بالرياء في العبادة وسائر الأعمال، والابتعاد عن المباهاة في العبادة والطاعة، وإبقاء القلب بمنأى عن الأشياء التي تعكر صفوه. وينبغي أن تكون العبودية للّه وحده، والتحرك وفقاً له، والتفكير في إرضاء اللّه وحده. ولهذا السبب

فإن الإخلاص يكون بمثابة الدرع الذي يمنع الشرور التي يسعى الشيطان إلى تزينها للناس، كما أنه يعيق محاولاته لإفساد الناس وإضلالهم ولكي يتم الوصول لتلك الحالة فإنه يلزم وصول العبد لمستوى الإخلاص، واجتهاده لنيل نصيب من معرفة اللّهﷻ.

كما أن ذكر اللّه قلباً ولساناً يعد أيضاً أحد أكثر العوامل تأثيراً في الوقاية من شر الشيطان. أما ترك الذكر فيكون ذلك سبب في عدم مفارقة الشيطان لنا أبداً. فجميع الذنوب تُرتكب إذا ما نسى اللّه ﷻ. فلا يمكن لأي إنسان أن يرتكب إثماً وهو يقول «باسم اللّه»، ولا يستطيع أن يظلم قائلاً «اللّه» ولا أن يجرح قلباً، ولا أن يغمس فيه شوكة. وهكذا يبين اللّه ﷻ هذه الحقيقة بقوله:

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (الزخرف، ٣٦)

وثمة وسيلة مهمة أخرى للوقاية من الشيطان تتمثل في طاعة اللّه والرسول، و الامتثال لأوامر الإسلام بكل صدق وإخلاص،وأن نجتهد بكل طاقتنا من أجل إعلاء كلمة اللّه ﷻ.

يقول ربنا جلّ وعلا:

﴿يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد، ٧)

ومن جهة أخرى توضح الآية الكريمة التالية أن جهنم هي مصير اللذين يتبعون الشيطان تاركين أوامر اللّه ﷻ:

﴿لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص، ٨٥)

﴿...لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَـأَمْلَـأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأعراف، ١٨)

وفي هذه الحالة فإن مهمتنا مثلما أخبرنا اللّه تعالى هي معرفة أن الشيطان عدوٌ لنا، ولا ننس أبداً أنه يلجأ إلى كل الحيل لكي نُقذف في جهنم.

وفقاً للرواية، فإن الملائكة حينما رفعوا رؤوسهم من السجود لآدم عليه السلام شاهدوا امتناع الجن أي الشيطان -الذي كان مشهوراً بكثرة عبادته والمعروف باسم عزازييل- عن السجود، وتحوله إلى صورة قبيحة.ولهذا خروا جميعا ساجدين مرة أخرى من أجل الشكر على نعمة إطاعة أمر اللّه عز وجل.

وتحول عزازيل الذي لُقب بـ (الشيطان) بعد أن امتنع عن السجود لآدم إلى ممثل للشر. إنه ليس مَلكاً لأنه كان قد خُلق من النار. كان واحداً من الجن وسط الملائكة الموجودة في الجنة، ولهذا السبب كان يرى أن خلقته هي الأفضل، ولم يكن يستوعب حمل سيدنا آدم عليه السلام روحاً من اللّه، ولا أفضليته ككونه خليفة للّه.

كان قد غفل عن أمر اللّه عز وجل، وتعرض لمحاسبة جسدية. وهكذا يعبر اللّه تعالى عن العجز والجهل والغفلة الموجودة عنده:

﴿مآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾ (الكهف،٥١)

وفي آية كريمة أخرى يحذر اللّه ﷻ عباده موقظاً إياهم من الغفلة بألا يتخذوا الشيطان وأعوانه أولياء بالابتعاد عن هدف الخلق. يقول تعالى: ﴿**كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً**﴾ (الكهف،٥٠)

إن أمر اللّه تعالى للملائكة بقوله (اسجدوا لآدم!) ليس معناه التعبد لآدم أي عبادته، ولكن من أجل إخبارهم أن آدم عليه السلام له أفضلية عليهم بصفاته الكاملة وقدراته التي يمتلكها. لأن اللّه ﷻ كان قد نفخ فيه من روحه، وجعله صاحب امتياز عليهم.

وهناك سبب آخر أيضاً، وهو أن هذا الأمر كان معناه «نفذوا أمر اللّه!»، لأن هذه السجدة على الرغم من كونها لآدم عليه السلام، إلا أنها كانت في حقيقة الأمر طاعة لذات اللّه وعبادة له، مثلما أن التوجه نحو الكعبة والسجود هناك لا يكون عبادة للكعبة. فالكعبة ما هي إلا رمز وإشارة للّه ﷻ، والتي تنظم عبادة الخلق، والمكان الذي تتجلى فيه الرحمة.

خلق السيدة حواء

يبين اللّه ﷻ في الآيات التالية خلق السيدة حواء من سيدنا آدم:

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء...**﴾ (النساء، ١).

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا...﴾ (الأعراف، ١٨٩)

لم يكن هناك وجود لأي موجود في الأزل -كما بينا من قبل- سوى اللّه ﷻ وحده. و لم تبدأ الموجودات في التزايد إلا بعد أن أراد اللّه لها ذلك، فجاء إلى الوجود هذا العالم.

وكان سبب ذلك هو أن اللّه ﷻ يحب أن يعرفه خلقه. لهذا السبب كان الدافع وراء كل خلق خلقه اللّه ﷻ هو المحبة؛ فكانت محبة اللّه ﷻ هي الدافع وراء خلق الحق ﷻ لرسول اللّه ﷺ. و يشير الحديث القدسي إلى هذه الحقيقة على النحو التالي[1]:

و هذه الكيفية هي التي تهمنا عند الحديث عن آدم عليه السلام. بيد أن الهدف من المحبة و الاشتياق الكامل كان بالميل إلى العودة إلى ربه أي إخلاص العبودية للّه ﷻ. لذا كان لابد أن تكون بداية الاستعداد لذلك من القلب.

لقد جعل اللّه ﷻ الوحدة أمر خاص به هو فقط، و لأجل ذلك جعل كل المخلوقات زوجين؛ فكل مخلوق له ما يقابله من نفس جنسه و ألقي ﷻ في كل واحد منهما الرغبة في الطرف الآخر، فصار كل منهما ينجذب تجاه الآخر. و بذلك نجد أن هذا الكون و ما به من ذرات و خلايا و حيوانات و نباتات و إنسان و مادة و

١ - للإطلاع على الحديث الشريف يرجى الرجوع إلى الصفحة رقم ١٤٢ - ١٤٣.

حتى العناصر السرية الدقيقة مثل الإلكترونات و البروتونات داخل الذرة، كل هذه الأشياء تتبع وفق طبيعتها قانون خاص عجيب أي، قانون خلق الأشياء في شكل أزواج.

و تحدثنا الآية الكريمة عن ذلك في قوله ﷻ:

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات، ٤٩)

وهذا الأمر ضروري في القوت نفسه تتحقق الطمأنينة في أن الوجود سيعود إلى أصله أي يعود إلى ربّه. أي العودة من عالم الكثرة الذي هو الدنيا إلى عالم الوحدة الذي جاء منه، و هو ميل أو جنوح طبيعي و جبري في الوقت ذاته. و يمثل الميل بين الأجناس بعضها تجاه الآخر، يمثل جسر نحو الوحدة. و قد جعل اللّه ﷻ هذا الميل في الوقت نفسه، وسيلةً لاستمرار النسل.

من ناحية أخري، فالإنسان الذي خلقه اللّه ﷻ هو في غربةٍ لبُعده عن خالقه. و الغربة لا تجلب سوى الوحدة و العجز و بالتالي الحزن و الملل و هي تُوَلِّد الحاجة لدي الإنسان لمن يًسرِّي عنه ويواسيه. لهذا السبب قيل أن «الوحدة هي أمر خاص باللّه ﷻ وحده».

و ما عدا المولى ﷻ في حاجة إلى التسلية و المواساة. و هذا ما حدث مع سيدنا آدم عليه السلام حيث جعلته تلك الأحاسيس الفطرية يشعر بضرورة خلق رفيقةٌ له من نفس جنسه على الرغم مما تزخر به

الجنة من جميع صنوف الجمال. و بذلك تحققت الكيفية التي بها تكوَّن جسر يضمن أن تنتقل المحبة إلى المولى في النهاية.

لقد أراد اللّه ﷻ لحكم كثيرة يعلمها، أن يخلق زوجةً لسيدنا آدم ﵇ يجد معها الطمأنينة و السكينة. فخلق بناءً على ذلك السيدة حواء من العظمة السفلى في القفص الصدري من الناحية اليسري، فكانت مثل النبتة أو الشتلة.

روي عن بن عباس و بن مسعود ﵄ قولهما أن آدم ﵇ بعدما أُخرج إبليس من الجنة، و سكنها هو، كان يتجول هناك وحيداً بلا رفيق. و على الرغم مما كان فيه من نعم، إلا أنه كان يرغب في وجود رفيقة له. و في يوم من الأيام أبصر لدى استيقاظه من نومه، سيدةً إلى جواره و قد خُلقت من عظمة في الجهة اليسري من القفص الصدري. فتحدث معها قائلاً:

- "من أنتِ؟" فردت عليه قائلةً: "أنا امرأة

فلما أراد أن يعرف منها عن السبب الذي من أجله خلقها اللّه ﷻ، ردت عليه و قالت:

- "لقد خلقني اللّه ﷻ كي تصل معي إلى الطمأنينة و السكينة"

- و قد أُطلق اسم "حواء" الذي يعنى الحية أو صاحبة الحياة نظراً لأنها خُلقت من مخلوق خُلِق من آدم و هو أيضاً مخلوق حي.

(الطبري، التاريخ، ١، ١٠٣– ١٠٤)

قال رسول اللّه ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري:

"اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاَهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ" (البخاري، الأنبياء، ١، ٣٣٣١)

لقد خلق اللّه ﷻ المرأة بطبيعتها أكثر ثراءً في العاطفة والأحاسيس من الرجل. و تعرض الآيات الكريمة المراحل الأولى لخلق الجنين موضحةً أن الجزء الذي يأتي من الذكر يكون مصدره مكان مجاور للصلب «عظمة الخصر «أما ما يأتي من المرأة فيكون مصدره الترائب (و هي جزء موجود بالقرب من القلب و هي عظام الصدر حيث يوجد مركز حسي عصبي). »[1] و في ذلك إشارة إلى أن المرأة غنية بعالم من الأحاسيس.

و هذا الثراء في الحس و المشاعر مؤهل للقيام بالوظيفة التي كلفه بها اللّه ﷻ؛ من المحافظة على النسل و تنشئته. لهذا السبب ينبغي حسن معاملتهن. فلا يهتم الأب بأبنائه كما تهتم الأم؛ و لا يغير لهم ملابسهم الداخلة إذا تلوثت ولا يترك نومه لأجل هذا. و في الوقت الذي لا تتورع فيه الأم عن أن تفتدي ابنها بنفسها إذا جرفه السيل، نجد أن الأب لا يمكنه فعل ذلك. الأم تعيش أفراح و أطراح أولادها على الدوام. فهي تحمله في بطنها تسعة أشهر و تحمله في

١– انظر: سورة الطارق، ٦ – ٧.

حضنها عامين، أما باقي العمر فهو محمول في قلبها. فإن لم يأكل أو يشرب حزنت و توترت لذلك. و إن هو بكي بكيت لبكائه. لهذا السبب لا يمكن الوفاء بحق الأم.

خاطب اللّه ﷻ بعد ذلك سيدنا آدم عليه السلام و أمنا حواء قائلاً:

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف، ١٩)

من هنا بدأت مغامرة حياة و اختبار الإنسان الذي هو أشرف المخلوقات.

الحياة في الجنة

أحل اللّه ﷻ لآدم و حواء بعد خلقهما أن يعيشا في الجنة و ينعما بما فيها من صنوف النعم عدا شجرة واحدة حرم عليهما أن يأكلا من ثمرها. و أخبرهما ﷻ كما هو واضح من الآية الكريمة أن إبليس هو العدو اللدود لهما:

﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (طه،١١٧)

فعاشا في الجنة حياة رغد و رفاهية. و تحدثنا الآيتان الكريمتان عن ذلك في قوله ﷻ:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى. وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ (طه، ١١٨– ١١٩)

عاش سيدنا آدم و السيدة حواء في الجنة على هذا المنوال، إلا أن الشيطان وسوس لهما و جعلهما يأكلان من الشجرة التي حرمها عليهما اللّه ﷻ مستغلاً في ذلك ضعف أحاسيسهم و حرصهم على الخلود.

النزول من الجنة إلى الأرض

لقد كانت مسألة اختبار اللّه ﷻ لعباده، إرادةً إلهيةً وضعها اللّه ﷻ موضع التطبيق مع خلق آدم عليه السلام.

فبقدر ما لدينا من معلومات أن الملائكة أيضاً تعرضت للإختبار عندما أُمرت في بادئ الأمر كي تسجد لآدم. و نجحت الملائكة جميعا في الإختبار. لأن الملائكة لا تملك نفس الميل و الهوى النفسي الموجود عند البشر. أما الشيطان فعصى أمر ربه. لأنه كان ينتمي لطائفة من الجن تملك نفساً مثل البشر.

لقد عمد المولى ﷻ بعد أن اختبر الملائكة ثم اختبر الشيطان بواسطة سيدنا آدم عليه السلام، عمد إلى اختبار سيدنا آدم و زوجته السيدة حواء بواسطة الشيطان كذلك. لقد انتهز الشيطان هذه الفرصة ولم يضيعها. و كان اللّه ﷻ قد حرّم على آدم و حواء الاقتراب من احدي الأشجار.

لقد بدأ أول جهاد للإنسان مع النفس التي تحاول دائماً أن تثني الإنسان عن الانصياع لأمر ربه، بدأ مع وسوسة الشيطان لآدم في

الجنة. و تتناقل بعض الروايات أن اقتراب آدم عليه السلام إلى الشجرة التي حرمها عليه اللّه عزّ وجلّ، كان بتأثير من السيدة حواء.

النساء مخلوقات لطيفة رقيقة خلقها اللّه عزّ وجلّ و وضع في قلب الرجال حساسية و جاذبية نحوهن. لهذا السبب من السهل أن يقع الكثيرون تحت تأثيرهن. من هنا حاول الشيطان أن يخدع سيدنا آدم عليه السلام و ذريته من بعده مستغلاً هذه الخصوصية، وكثيراً ما كان يحالفه التوفيق في ذلك.

و لعل أبرز مثال على ذلك هو استخدام المرأة في جميع جوانب الحياة الاجتماعية و السياسية و الإقتصادية و التجارية كوسيلة للدعاية والإعلان. و كما كانت المرأة مصدراً للسكينة و الرفاه، فهي في الوقت ذاته وسيلة عظيمةٌ للاختبار. بيد أن سعادة الإنسان في الدنيا و الآخرة مرتبطةٌ بالمرأة كذلك.

فعن ثوبان رضي الله عنه قال: لما نزلت:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة، ٣٤)

كنا مع رسول اللّه صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره فقال بعض الصحابة:

أُنْزلت في الذهب والفضة، فلو علمنا أي المال خير لاتخذناه، فقال رسول اللّه:

"أَفْضَلُهُ لِسَانٌ ذَاكِرٌ، وَقَلْبٌ شَاكِرٌ، وَزَوْجَةٌ مُؤْمِنَةٌ تُعِينُهُ عَلَى إِيمَانِهِ" (الترمذي، التفسير، ٩/ ٩، ٣٠٩٤)

و جاء في حديث شريف آخر أن رسول اللّه ﷺ قال:

"ما استفاد المؤمن، بعد تقوى اللّه، خيراً له من زوجة صالحة. إن أَمَرها أطاعته. وإن نظر إليها سرَّتْه. وإن أقسم عليها أبرَّتْه. وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله" (بن ماجة، النكاح، ٥/ ١٨٥٧)

"إنما الدنيا متاع. وليس من متاع الدنيا شيء أفضل من المرأة الصالحة" (مسلم، الرضا، ٦٤؛ النسائي، النكاح، ١٥؛ بن ماجة، النكاح، ٥).

فَسَّرَ عَلِيٌّ رضي الله عنه قَوْلَهُ تَعَالَى:

﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ (البقرة: ٢٠١) بِالْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ،

﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ (البقرة: ٢٠١) بِالْحُورِ الْعِينِ،

﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة: ٢٠١) بِالْمَرْأَةِ السَّلِيطَةِ. (علي القاري، المرقاة، ٥، ٢٦٥)

حاول الشيطان -عليه اللعنة- أن يُضل سيدنا آدم و السيدة حواء بشتي الطرق و الحيل. يقول اللّه عز وجل:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ (طه، ١٢٠)

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ. وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ. فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ[1] وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف، ٢٠ - ٢٢)

لقد كانت مسألة الاقتراب من الشجرة التي حرمها اللّه ﷻ هي السبب الذي من أجله وقف آدم عليه السلام و حواء في مواجهة مع النفس الأمَّارة بالسوء. لأن قيمة النتيجة التي يصل إليها المرء تتوقف على

١- التستر: هي كيفية تخص الإنسان وحده من بين سائر المخلوقات الأخرى. فالإنسان يجد نفسه مجبراً لأن يستر نفسه حتى يمكنه أن يحمي صفة الإنسانية والوقار و الحياء و الجدية التي أنعم بها اللّه ﷻ عليه. و يفقد الإنسان تلك الصفات بفقدانه صفة التستر. و يسقط حينها إلى مستوى ما دونه من المخلوقات الأخرى. و ضياع الحياء من بين الناس احدى علامات قيام الساعة المعروفة. فقد جاء في الحديث الشريف:

"**الحياء من الإيمان**" (البخاري، الإيمان، ٣). و على الرغم أنه لم يكن ثمة أناس آخرون في الجنة سوى سيدنا آدم و زوجته حواء، إلاّ أن كل منهما كان يخجل من الآخر و من المخلوقات الأخرى. فحاولا جهديهما أن يسترا عورتيهما بأوراق الأشجار المتاحة. و هذا يشير إلى أن الغطاء المادي و ما يرتبط به من غطاء معنوي آخر متمثل في الأدب و الحياء، هو واحد من أفضل ما يميز بني آدم.

حجم ما يقاسي من متاعب للوصول إليها. فإن اتبع المرء هوى النفس فحينئذٍ تكون الفاجعة، أما إن هذّبها و عوّدها الطاعة كان ذلك مصدر الفلاح. لهذا السبب قيل أن "نفسك مطيتك! عاملها برفق و لطف"

وخلاصة القول اللّه ﷻ بوصفة المتصرف الوحيد في شئون خلقه، قد أعطي للإنسان بإرادته الكلية، إرادةً جزئية منقوصةً و أنه قدّر نتيجة ذلك سواء بالفوز أو بالخسران بناءاً على استخدام هذه الإرادة. و نظّم وفقاً لذلك شروط تحقق الأسباب.

لهذا السبب فنحن مكلفون بأن نستخدم كما أُمرنا إرادتنا الجزئية التي منحنا إياها المولى ﷻ و أن نخاف من قهره و ترجوا رحمته.

هجر سيدنا آدم عليه السلام و زوجته حواء الشيطان و قد شعرا بندمٍ عظيم بعدما انطلت عليهما الحيلة التي نسجها إبليس رغبة منه في الانتقام. فضل آدم عليه السلام أن يتبع طريق الملائكة، و توجه إلى اللّه تائباً بكلمات تلقتها الملائكة من ربهم. فتضرعا إلى اللّه ﷻ قائلين:

﴿...رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف، ٢٣)

فقبل اللّه ﷻ توبتهما، و لكن قضت إرادة اللّه ﷻ المبنية على كثير من الحكم الإلهية، ان يُنزل آدم عليه السلام إلى الأرض. يقول اللّه ﷻ:

﴿قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ [1] وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ. قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ (الأعراف، ٢٤ – ٢٥)

و بيّن اللّه ﷻ إلى سيدنا آدم و حواء اللذان أنعما عليهما و قبل توبتهما و لنسليهما من بعد، طريق الخلاص و النجاة في قوله ﷻ:

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (الأعراف، ٢٦)

و يُشار هنا في الآية الكريمة إلى أن الملابس الظاهرة لا تكفي لستر عيوب الإنسان و نواقصه، فالملبس الحقيقي هو «لباس التقوى «الذي يحمي الإنسان من الأفكار و المشاعر السلبية في القلب، و تضمن أن يدرك العبد مسئوليته تجاه ربه. فالتميز على الآخرين كما تشير الآية التالية لا يكون إلا بما وقر في القلب من تقوى:

﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾ (الحجرات، ١٣)

و يحذر اللّه ﷻ عباده في الآية ٢٧ من سورة الأعراف بقوله ﷻ:

﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف، ٢٣)

١– العداوة: هي العداوة التي ستظهر و تستمر حتى يوم القيامة و ستكون بين الشيطان و الجن و الإنس من ناحية و بين الإنس و بعضهم البعض.

لقد خلق اللّه ﷻ أبا البشر آدم عليه السلام وأودعه الجنة وجعله أكرم المخلوقات. و لكنه ما لبث أن أُخرج من الجنة حيث موطنه الأصلي بسبب اقترابه من الشجرة التي نهاه اللّه عنها، فكانت النتيجة أنه أُرسل إلى الأرض حيث عالم الاختبار. و ينضوي هذا الأمر على بعض الحكم التي يمكن عدّها كما يلي:

١- لقد أُريد لذرية الإنسان ستأتي كلها عن آدم عليه السلام و أمنا حواء أن تستمر حياتها على الأرض.

٢- أُريد لآدم عليه السلام و أمنا حواء أن يسعيا لعمل الصالحات في الدنيا التي هي مكان اختبار على أمل نيل نعم الجنة التي خُلقوا فيها و عرفوا قيمة ما فيها من نعم.

٣- أراد اللّه ﷻ أن يفرق بين الذين لا يستحقون دخول الجنة من ذرية آدم عليه السلام و من ثم سيدخلون جهنم و بين الصالحين.

٤- أراد اللّه ﷻ أن يجعل له خليفةً في الأرض يطبق فيها أحكام اللّه و يُعمِّرها.

٥- عقل الإنسان هو سر من أسرار القدر لا يستطيع أحد أن يدرك ماهيته.

نقاط الضعف في نفس الإنسان

لقد نثر اللّه ﷻ بذور الفجور و التقوى على فطرة الإنسان و أعطي لكلا النوعين إمكانية الارتقاء و التدني. و للحالة الروحانية

للإنسان من هذه الناحية وجهان؛ أحدهما مثبت و الآخر منفي. و قد تعرض القرآن الكريم بشكل أكبر لنقاط الضعف في نفسية الإنسان رغبة منه في حماية الإنسان من السقوط في مهالك النفس و حتى يُقومه و يضعه على طريق الخير و التقوى.

١- الإنسان ظلوم جهولاً

يقول اللّه ﷻ:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (الأحزاب، ٧٢)

و المقصود بالأمانة في الآية السابقة هي مسئولية الإنسان تجاه ربه أي كونه مكلف بتنفيذ أوامر اللّه ﷻ الخاصة بالدين. و سيفي الإنسان بهذه الأمانة ''العقل''بواسطة ملكة ''الإرادة''و هي المقدرة على استخدام ذلك العقل. و هذه الأمانة التي فوّض اللّه ﷻ الإنسان دون غيره بأدائها، هي التي تفرِّق بينه و بين سائر المخلوقات الأخرى. و تعرض الإنسان للاختبار في الحياة الدنيا، هو السبب وراء تفويضه لحمل هذه الأمانة.

و يشير عرض الأمانة كما ورد في الآية السابقة على الأرض والسماء و الجبال، ثم رفضهم جميعاً لهذا العرض، يشير إلي أنه حتى الموجودات التي نعرفها على أنها مجرد جمادات، كانت على درجة من الوعي و الشعور جعلتها ثقل التكليف بحمل الأمانة.

يقول اللّه ﷻ:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر،٢١)

نفهم من الآية السابقة كذلك أنه حتى الجبال وهي من الجمادات قد تبدي رد فعل تجاه أوامر اللّه ﷻ.

و يخبرنا اللّه ﷻ أن الإنسان لم يخشى المسئولية وحمل الأمانة لأنه كان ظلوماً جهولاً.

و الظلم ضده العدل. و تستخدم كلمة العدل في الوقت نفسه بمعنى العمل الصالح، لأجل ذلك ينبغي بذل الجهد و أن نعمل صالحاً بكثرةٍ حتى لا نسقط في الظلم. و يتحدث الحق ﷻ في سورة العصر عن ضرورة أن يعمل الإنسان الصالحات حتى لا يكون من الخاسرين.

أما الجهل فضده "العلم". و العلم نوعان أحدهما ظاهري و الآخر باطني. و فيما يلي حديث للإمام الغزالي -قدس سره- يتحدث فيه عن العلم الحقيقي الذي يرتبط بجمع هذين النوعين معاً:

«العلماء الحقيقيون، أي ورثة الأنبياء، هم الذين يجمعون بين العلوم الظاهرية و العلوم الباطنية!».

و يقول اللّه ﷻ في آية أخري:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر، ٩)

و قد ورد في تفسير الزمخشري لهذه الآية الكريمة قوله:

«وأراد بالذين يعلمون: العاملين من علماء الديانة، كأنه جعل من لا يعمل غير عالم. وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم، ثم لا يقتنون ويفتنون، ثم يفتنون بالدنيا، فهم عند الله جهلة، حيث جعل القانتين هم العلماء» (الكشاف، ٣، ص١٥٦).

فإذا نحن اقتضينا بالآية الكريمة لصرنا من أصحاب الأعمال الصالحة و تمكنا من تحويل علمنا الظاهري و الباطني إلى العرفان، و بذلك نكون قد تخلصنا من صفة " ظلوم " و صفة "جهول". أي أنه يلزم وجود رأس مال قوامه العلم إلى جانب رأس مال قوماه القلب حتى نتعافي من هذه الأمراض المعنوية.

و تبين اللّه ﷻ في الآية الكريمة الواردة في السابق كذلك أن عيش الإنسان في غفلة عن الأسرار و العظمة الإلهية، لن ينتج عنه سوي التعاسة و النكبة.

يتحدث شارح المثنوي "طاهر المولوي" عن عِظم تلك المسئولية التي حملها الإنسان قائلاً:

صفر اليدين لا يسير حيث يكون المسير

يا ربي، لقد أتيت بذنب ولم آتي خاوي الوفاض

فها هو الحمل الذي لا تقوي الجبال على حمله

قد أتيت بضعفه أحمله على ظهري بصعوبة بالغة

يرى الصوفيون أن أهم صفة تميز الإنسان هي الجهل. و أن كلمة جهول "كثير الجهل" الواردة في الآية الكريمة دليل على ذلك. فالعلم المطلق لا يخص إلا اللّه ﷻ وحده. من أجل هذا يقول اللّه ﷻ:

﴿... **وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ (الإسراء، ٨٥)

و في المقابل تؤكد الآية الكريمة التالية عظمة علم اللّه ﷻ الذي لا تحده حدود:

﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (لقمان، ٢٧)

كما يبين الحديث الشريف التالي كذلك تلك الحقيقة أيضاً من خلال قصة الخضر وموسى التي وردت في سورة الكهف:

"...فَرَكِبَا السَّفِينَةَ، قَالَ: وَوَقَعَ عُصْفُورٌ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَغَمَسَ مِنْقَارَهُ فِي البَحْرِ فَقَالَ الخَضِرُ لِمُوسَى: مَا عِلْمُكَ وَعِلْمِي وَعِلْمُ الخَلاَئِقِ فِي عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِقْدَارُ مَا غَمَسَ هَذَا العُصْفُورُ مِنْقَارَهُ..." (البخاري، التفسير، ١٨/ ٤)

نستنتج من ذلك:

ما علم الناس إلى جانب علم أولياء اللّهﷻ في علم اللّه ﷻ إلا قطرة من بحر؛

و ما علم أولياء اللّه ﷻ، و علم الأنبياء في علم اللّه ﷻ إلا قطرة من بحر؛

و ما علم الأنبياء، و علم سيدنا رسول اللّه ﷺ إلا قطرة من بحر

و ما علم رسول اللّه ﷺ بجانب علم اللّه ﷻ إلا مثل قطرة بالنسبة إلى بحر.

و لكن وعلى الرغم من هذا، فإذا عمل الإنسان بهذا العلم القليل، فبإمكانه أن يصل إلى التقوى و من ثم يصبح بلطف اللّه ﷻ و إحسانه عبداً من العارفين. أي انه يبدأ في تلقي حصةً من المعرفة أي يصبح بإمكانه أن يعرف اللّه ﷻ حق المعرفة.

يقول اللّه ﷻ:

﴿... وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة، ٢٨٢)

و قد ذكر المفسر القرطبي في تفسيره لهذه الآية على النحو التالي:

«وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنَّ مَن اتَّقَاهُ عَلَّمَهُ، أَيْ يَجْعَلُ فِي قَلْبِهِ نُورًا يَفْهَمُ بِهِ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ، وَقَدْ يَجْعَلُ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ ابْتِدَاءً فُرْقَانًا، أَيْ فَيْصَلًا يَفْصِلُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً". والله أعلم (القرطبي، ٣، ٤٠٦)

و يؤيد الحديث الشريف هذا المعنى أيضا:

"مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ وَرَّثَهُ اللَّهُ مَا لَمْ يَعْلَمْ" (أبو نعيم، حلية الأولياء، ١٠، ١٥).

٢- خُلق الإنسان عَجُولاً

يبين اللّه ﷻ هذه الخصوصية في نفسية الإنسان على النحو التالي:

﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (الأنبياء، ٣٧)

﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ (الإسراء، ١١)

يريد الإنسان الشر قدر رغبته في الخير و يدعوه بما يفعل. و السبب في ذلك هو أن الإنسان على عجلة من أمره. فيطلب تحقق الشيء قبل أوانه نظراً لأن تحقق الشيء في وقته يحتاج صبر و تحمل. و يخرج هذا التصرف في كثير من الأحيان بنتيجة غير مرغوبة. و قد قيل: «من استعجل شيئاً قبل وقته، عوقب بالحرمان.» و المقصود من هذا أن أي شخص يرغب في تحقيق شيء ما قبل موعده المحدد لذلك فإنه يُعاقب بالحرمان من ذلك الشيء.

ومن أوصاف الإنسان العجول، أن له شهية الحصول على الأشياء بشكل سهل لا تعب فيه. لأنه يريد أن يعيش سعادة الآخرة في الحياة الدنيا. و لهذا السبب يترك عدد كبير من الناس الآخرة، و يميل إلى الدنيا.

ولأنه لا يولى مكافأة الآخرة الأهمية المرجوة، نجده و بالقدر نفسه لا يفكر في عذابها الأليم. و هو بسبب تسرعه لا يضع في حسبانه عاقبة ذلك، لأنه لا يفرق بين الخير و الشر. و تبين الآيتان الكريمتان انخداع الإنسان على هذا النحو:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ. وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ (القيامة،٢٠ – ٢١)

و الحقيقة هي أن الإنسان يمكنه بمنتهي السهولة أن يدعو بالشر على مخاطبيه في وقت غضبه أو عندما تمر به أزمة أو عندما تواجهه مصاعب في حياته. بيد أنه من الواجب عليه بديلاً عن ذلك أن يعمل جاهداً للتخلص من هذه الأوضاع العصيبة الصعبة بالصبر و الصلابة.

و لكن الإنسان و قد خُلق عجولاً، يظل يائساً متشائماً، ليس هذا فحسب، بل و قد يصل به الأمر و يدعو من تأثره و يدعوا على نفسه بالشر فيقول: «رب اقبض روحي، و خلصني مما أنا فيه!» والحقيقة هي أن تصرفه هذا خاطئ تماما.

يقول أنس رضي الله عنه:

«أن رسول اللّه ﷺ عاد رجلاً من المسلمين خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ. فقال له رسول اللّه ﷺ

"هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه؟"

قال: نعم. كنت أقول: اللّهم! ما كنت معاقبي به في الآخرة، فعجله لي في الدنيا.

فقال رسول اللّه ﷺ

"سبحان اللّه! لا تطيقه - أو لا تستطيعه - أفلا قلت: اللّهم! آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار"

قال، فدعا اللّه له. فشفاه» (مسلم، الذكر، ٢٣/ ٢٦٨٨؛ الترمذي، الدعوة، ٧١/ ٣٤٨٧)

و يقول ﷺ في حديث آخر:

"لا يتمنى أحدكم الموت، ولا يدع به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله. وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً".

(البخاري، المرضي، ١٩؛ الدعوات، ٣٠؛ مسلم، الذكر، ١٣،١٠).

لهذا السبب لا ينبغي للمؤمنين أن يدعوا بالشر، و أن يدعوا بديلاً عن ذلك بالخير متسلحين بالصبر و الحذر. و توصي الآية الكريمة الإنسان بضرورة أن يتضرع العبد ربه قائلاً:

﴿... رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة، ٢٠١)

٣- الإنسان ولع بما ينفعه

تقرر الآية الكريمة وصفاً آخر للإنسان على النحو التالي:

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ (الروم، ٣٦)

لم يمنع اللّه ﷻ بلطفه و رحمته الإنسان أن يسعد، بل و على العكس أُمِرَ بذلك (انظر: يونس، ٥٨). و لكن السعادة المقصودة هنا هي السعادة مع معرفة واهب النعمة و شكره و حمده عليها. و لكن السعادة التي نتحدث عنها هنا هي حال الأشخاص الذين يخضعون لأهوائهم ويؤمنون بالنعمة فقط دون أن يضعوا في حسبانهم واهب هذه النعمة. و يعبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله ﷻ:

﴿... لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (القصص، ٧٦)

و هذا الصنف حتى لو عبدوا اللّه فإن عبادتهم تلك تكون بغرض منفعة دنيويه. و لأنهم يؤمنون بشكل محض في بالنعمة وحدها، فإنهم سرعان ما يقعون في اليأس إذا ألم بهم سوء جرّاء ما فعلوه. و هو يقنطون من رحمة اللّه تماماً. لأن تسليمهم و خضوعهم ليس للّه ﷻ و لكن لأشياء زائلة فانية. وتصور الآية الكريمة الآتية بشكل جميل حب هؤلاء لمنفعتهم الخاصة، على النحو التالي:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج، ١١)

ويلجأ بعض الناس إلى عبادة اللّه ﷻ من زاويتهم الخاصة، لأنهم لا يستطيعون التخلص من أهواءهم النفسية؛ ليس هذا فحسب بل و يأخذون بمظاهر التدين، و لا يكون تدينهم هذا نابعاً من القلب و من الداخل، بل يكون تديناً قائماً على الغفلة و هدفه قضاء مقصدٍ معين. و الذكر عند هؤلاء لا يتعدى اللسان، فلا يصل إلى القلب و لا يستقر فيه. و إذا جاء هذا الصنف من الناس خيراً فرحوا، و إن أصابتهم الضراء عبس و انقلب على وجهه.

٤– إن الإنسان لربه لكنود

يقول اللّه ﷻ في محكم التنزيل:

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ. وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ (العاديات، ٦ – ٧)

و تحكي الآيات التالية بشكل مباشر عن تلك الخصوصية عن الإنسان الغافل، و تعبر كيف أن أحوالهم النفسية عُرضة للتغير وفق الظروف التي هم فيها:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً. أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً. أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ (الإسراء، ٦٧ – ٦٩)

و تتحدث هاتان الآيتان عن ذلك أيضاً، في قوله ﷻ:

﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ (الفجر، ١٥– ١٦)

يمتحن اللّه ﷻ عبده كل لحظة حتى يكافئه على قدر صبره. و في أثناء ذلك يمتعض الإنسان الذي ابتلاه اللّه ﷻ بضيق في الرزق أو بالمحن و يقول دون تفكير منه و بأنه سيؤجر على ذلك في الآخرة و سييسر اللّه ﷻ له حسابه نظير ذلك، يقول «رَبِّي أَهَانَنِ».

ويصل بذلك إلى حالة لا يستطيع معها أن يدرك نعم اللّه ﷻ عليه. و يغيب عنه ضرورة أن يؤدي المرء شكر الرزق حتى و إن كان قليلاً، و لا يستطيع إدراك أن الذي لا يعرف قيمة القليل، لا يمكنه أن يعرف قيمة الكثير كذلك. و لا يستقيم في ذهنه أن اللّه ﷻ يختبره بهذه الأشياء. و الحال أن اللّه ﷻ يقول:

﴿... وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء، ٣٥).

و إن لم يتخلى الإنسان عن ذلك فسوف تجره تلك الأحاسيس و الأفكار السلبية إلى الكفر، ليس هذا فحسب بل و سيتحول إلى عدو للّه ﷻ. لأن ذلك الإنسان لم يوجه نظره إلى الفضيلة، بقدر ولهه بأمور الدنيا ما جاء منها و ما ذهب. يقول المولى ﷻ:

﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (النحل، ٤)

٥- الإنسان حريص و بخيل

و إذا لم تُهذّب هذه الصفات المذمومة التي كان لها نصيب كبير في إخراج الإنسان من الجنة، فستتحول إلى واحدةٍ من أكبر المُهلكات في الحياة الدنيا و الحياة الآخرة. و اللّه ﷻ لا يريد لمثل هذه الصفات أن تكون في المؤمن. لذلك يحذر المولى ﷻ عباده في هذا الخصوص كما في الآيات التالية:

﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ. وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ. وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً. وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾ (الفجر، ١٧- ٢٠)

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً. وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ (المعارج، ١٩- ٢١)

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (العاديات ، ٨)

و يرجع السبب في التعبير بكلمة ''الخير'' في الآية الكريمة بديلاً عن التعبير بكلمة المال، لأن ميل الإنسان الفطري نحوه، جعل كثير من بني البشر يظنون أنها الخير المطلق لأن به تتحقق منافعهم الدنيوية. أي أن الإنسان يده مغلولة إلى عنقه، بخيل، لأنه أحب المال و الثروة و ظن أن فيهما الخير المطلق. فهو يحرص على المال و لا يريد أن يتصدق أو ينفق في أوجه الخير أو في شيء لصالح المنفعة العامة. و في الوقت الذي يحرص على المال و يسعي لكسبه و هو في كامل قوته، نجده يجحد حق اللّه و يزعم

عندما يأتي الوقت الذي سيؤدي فيه شكر المال، يزعم أنه ضعيف لا يقدر على شيء. و تعرض سورة القلم قصة أصحاب الجنة الذين لم يؤدوا شكر النعم التي أنعم اللّه ﷻ عليهم بل و جحدوها، فأصابتهم النكبة و لاقوا عاقبة حزينة.(١)

و يحدثنا المولى ﷻ في الآيات الكريمة عن عاقبة الذين يحملون هذه الصفات البغيضة على النحو التالي:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ. الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ. يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ. كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ (الهُمزة، ١- ٤)

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُوراً﴾ (الإسراء،١٠٠)

٦- الإنسان حسود غيور

الغيرة و الحسد هي من أقبح الصفات المذمومة في فطرة الإنسان و أكثرها هلاكاً. يقول اللّه ﷻ:

﴿... وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ...﴾ (النساء، ١٢٨)

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ...﴾ (النساء، ٥٤)

و قد حذرنا رسول اللّه ﷺ من الحسد و بين لنا ضرره؛ فيقول:

١- انظر: القلم، ١٦ – ٣٣.

"إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ– أَوْ قَالَ: الْعُشْبَ–" (أبو داود، الأدب، ٤٤)

و يرشدنا المولى ﷻ في الآية الكريمة التالية إلى ضرورة للإنفاق و الإيثار حتى نتخلص من تلك الصفة القبيحة:

﴿... وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر، ٩)

٧– خُلق الإنسانُ ضعيفاً

خلق اللّه ﷻ الإنسان ضعيفاً عاجزاً، يحتاج عون الآخرين مدةً طويلةً، على الرغم من أنه ﷻ قد خلق المخلوقات الأخرى في قوة تستطيع بها أن تعيش بمفردها و تتكيف مع ظروف الحياة بعد مدة قصيرة من مولدها. و تحدثنا الآية الكريمة عن ذلك في قوله ﷻ:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ...﴾ (الروم، ٥٤)

لا ينبغي للإنسان أن ينخدع بقوته في فترة الشباب و يعصي اللّه ﷻ. لأن فترة القوة لا بد و أن يتبعها فترة ضعف أخري. و لن يجدي الندم في مرحلة الشيخوخة نفعاً في إعادة الفرصة التي ضاعت من اليد، و لن يستطيع أن يوقف حسرة الروح و اضطرابها. و توضح الآية الكريمة العاقبة الحزينة لهذا الإنسان، على النحو التالي:

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (يس، ٦٨)

الإنسان ببنيته الفسيولوجية يحمل العديد من نقاط الضعف، و لعل نقطة ضعفه من الناحية النفسية هي الأكبر. و تشير الآية الكريمة إلى هذين النوعين في قوله ﷻ:

﴿... وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾ (النساء، ٢٨)

ويبين لنا الحق ﷻ في شخص سيدنا آدم عليه السلام الضعف البشري من ناحية الإرادة و الذاكرة و العزم، على النحو التالي:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (طه، ١١٥)

و قيل أن كلمة "إنسان" قد اُشتقَّت من جذرين مختلفين. الأول، هو "النسيان". فقد نسي آدم عليه السلام كما أوضحت الآية الكريمة العهد الذي قطعه على نفسه مع اللّه ﷻ. أما الجذر الثاني، فهو "المؤانسة" أي أن الإنسان يألف و يتعود بسرعة على المكان الذي يوجد فيه، فيألفه و يتلون في الغالب بلونه.

ولا يوجد ثمة سبب على الإطلاق تجعل الإنسان الذي تحدثت الآية الكريمة عن ضعفه و عجزة، لا يوجد سبب يدعوه للتكبر و الإختيال. يُضاف إلى هذا أن اللّه ﷻ لما خلق الإنسان لم يخلقه من عرق جبهة جميلة و بهية الطلعة، و إنما كان خلقة من ماء مهين قُذِف به. لهذا السبب لا يليق بمخلوق كهذا إلا أن يدرك عجزة و دونيته في مقابل قدرة الخالق اللامحدودة. و قد وجه المولى ﷻ تحذيراً في القرآن الكريم للإنسان في قوله ﷻ:

﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ (الإسراء، ٣٧)

يميل الإنسان بالفطرة إلى العبودية. و ميله هذا سيجعله عبداً لواحدٍ من ثلاث إما لهوى النفس أو لمتاع الدنيا أو أن يكون عبداً ربه. وحتى يصير الإنسان عبداً لربه، فلا بد له من تخطي عقبة النفس. و هذا يقتضي أن يظل العبد صادقاً لعهد ألست بربكم؟ حين اعترف بربوبية اللّه و رد مخاطباً اللّه ﷻ "نعم، أنت ربنا!".

لقد كان كل شيء واضح للعيان في الوقت الذي عاهدت الروح ربها. فكانت ترى الملائكة و تشاهد بكل سهولة و يسر العظمة الإلهية. و لكن عندما نُفخت هذه الروح التي عاهدت ربها، عندما نُفِخَت في بطن الأم في اليوم ١٢٠ وفق ما جاء في الحديث الشريف، دخلت تحت تأثير الحواس الخمسة. و تواجهت مع عقبة النفس. فتغطت متلفِّعةً بالسقم بعد النضارة و البهاء. و لكن كان هناك من يبين لها طريق الخلاص و النجاة من تلك السقم. و يكون الإنسان بذلك قد تخطي عقبة النفس بالاستعداد المعنوي الذي وهبه اللّه إياه و بتزكية الحواس الخمس في الاستقامة التي عرضها له. و لا تدخل الحواس الخمس إلى طريق الاستقامة إلا بتصفية القلب و تزكية النفس. و حينها ستتضاءل السقم، و تزداد الرهافة و الصفاء و يتحول القلب إلى مُستقبل للحقائق.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي...﴾ (الحِجر، ٢٩)

و الروح المقصودة في الآية الكريمة هي الروح السلطانية القادمة من "عالم الأمر". و هي التي دخلت إلى الجسد الفاني.

ويضرب مولانا جلال الدين الرومي المثال التالي بخصوص ضياع الروح السلطانية داخل الجسد و تحكمها فيه، و يقول:

"الروح التي في الجسد خفية غير ظاهرة تماماً مثل الزبد الذي في اللبن الرائب."

"يلزم رج اللبن الرائب بشده، حتي يظهر الزبد"

"و الروح السلطانية مثل ذلك تماماً، فلا بد من المجاهدة و الرياضة الروحية و الصبر على الحرمان من مجموعة من الأشياء، حتى تتمكن من السيطرة على البدن أي الجسد"

ولا بد للقلب أن يتخلص من السقم أي من ملذات الدنيا السفلية، و أن يمتلئ بالمشاعر و الأحاسيس الإلهية و الصفاء. و إلّا لن يتمكن الإنسان من الوصول إلى معرفة اللّه ﷻ. و كم هو جميل ما كتبه المرحوم نجيب فاضل عن الحقيقة القلبية في شكل تضرع:

الذنب عندي، و الصفاء عندك

رب اغفر!

السقيم يرجو العفو من اللطيف...

رب اغفر!

لباس من لحم و عظم

رب اغفر!

يقول اللّه ﷻ في الآيات الكريمة:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (الأعلى، ١٤ – ١٥)

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا. وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا. وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا. وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا. وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا. وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا. وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس،١– ١٠)

و الغاية من الدين هي خلق و تربية إنسان جميل، ظريف، حساس، يخلص العبودية للّه ﷻ. ولا يتحقق هذا الكمال إلا عند أولئك الذين بإمكانهم الوصول إلى المراتب العلوية بالتفكر والتخصص. و يصور اللّه ﷻ في الآيات التالية أصحاب الإيمان الكامل على هذا النحو:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال، ٢)

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الحج، ٣٥)

فإذا امتلأ القلب بمحبة اللّه ﷻ، فسيكون الهدف العام و النهائي لأي عمل يعمله الإنسان هو اكتساب مرضاة اللّه ﷻ. فيبدأ الإنسان و يسلك الطريق القويم ليعرف الحكمة من خلقة هو،

ومعرفة حقيقة القرآن و الكون. أما العباد ذوي القلوب الغافلة، التي لم تكتسب هذا العمق و الرقة، فلا يحبهم اللّه ﷻ على الإطلاق. يقول الحق ﷻ:

﴿...فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

(الزمر، ٢٢)

تبين الآية الكريمة أن الإنسان الذي ابتعد عن ذكر اللّه ﷻ، هو من عجز عن المحافظة على خاصية الإنسانية و شرفها عنده، أي أنه عجز عن إدراك خصوصية أن يكون في "أحسن تقويم".

تحاول النفس أن تجمع عندها كل الملذات الدنيوية. بيد أن "زكية النفس" تجعل من الممكن الإلقاء بكل هذا في خارج القلب. و يصبح الشخص الذي لم ينل هذه التربية المعنوية، أسيراً لهوي نفسه. يقول اللّه ﷻ:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ (الفرقان، ٤٣)

(أي أنك لن تستطيع أن تخلصه مما وقع فيه).

إن استخدام الآية الكريمة التعبير "مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ" الذي هو تعبير ثقيل من أجل أولئك الذين اتبعوا أهوائهم و ابتعدوا عما جاء به الوحي، لهو أمر يسترعي منا الانتباه.

و تعبر كلمة "هوى" في القرآن الكريم عن مضاد للكمة العلم و العلم هنا هو العلم الذي يأتي من لدن اللّه ﷻ. يقول اللّه ﷻ:

﴿... وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ البقرة الآية (البقرة، ١٤٥)

يذكر القرآن الكريم إتباع "الهوى" بوصفة السبب المهم و الرئيس للضلالة. و مما شك فيه أن الذين يتبعون الهوى أي أهواء النفس فيما يخص الدين، من المحقق أنهم سيحيدون عن الطريق القويم و يبتعدون عن طريق اللّه عزّ وجلّ.

ويحتاج الإنسان إلى طرق التربية المعنوية و الروحية مثل المناجاة و الرياضة النفسية و الذكر حتى يتمكن من أن يصل إلى تزكية النفس بشكل اللائق لذلك. و كما أن القلب هو مركز جوهر الإيمان، فهو أيضاً مركز جوهر الذكر. و تبدأ العبودية الحقيقية عندما يصل الذكر من اللسان إلى القلب؛ و يكون الإنسان بذلك قد دخل إلى الطريق الذي سيتخطى فيه عقبة النفس. و الاستمرار في الذكر يجعل متحكماً في حقيقة الذكر و كل أحواله. و حينها سيمحى كل شيء من القلب و لا يبقي سوي اللّه عزّ وجلّ. و يظل العبد مع ربه. فينال إحساس الإحسان. و يستمر في عبادته كما لو كان يري اللّه...

العفو عن سيدنا آدم و أمنا حواء

أُخرج آدم عليه السلام و أمنا حواء بعد مخالفتهما لأمر اللّه عزّ وجلّ بإغواء من الشيطان، من الجنة و أُرسلا إلى الأرض. نزلت الملائكة بسيدنا

آدم إلى جزيرة سيلان جنوب الهند، أما السيدة حواء فنزلوا بها إلى حيث المكان الذي توجد فيه مدينة جدة على ساحل البحر الأحمر. لهذا السبب ظل كل منهما بعيد عن الآخر مدة طويلةً. انقطع آدم عليه السلام و أمنا حواء للتوبة إلى اللّه والاستغفار. و لكنهم لم ينالوا عفو اللّه عز وجل. و في النهاية دعيا ربهما و قالا:

﴿...رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف،٢٣)

يروى كذلك أنهما توسلا بنبينا صلى الله عليه وسلم. أي أنهما لجئوا إلى روحانية رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فعفي اللّه جل جلاله عنهما ببركة رسولنا. و قد ورد في الحديث الشريف ذكر ذلك على النحو التالي:

"لما اقترف آدم الخطيئة، قال يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال اللّه عز وجل يا آدم، وكيف عرفت محمدًا ولم أخلقه[1]؟ قال لأنك يا رب لما خلقتني بيدك ونفخت فيّ من رُوحك رفعتُ رأسي فرأيتُ على قوائم العرش مكتوبًا لا إله إلا اللّه محمدٌ رسول

---

١ – أراد اللّٰه عز وجل الذي لم يكن هنا موجود غيره في الأزل، أراد يُعرف على مستوى إدراك الإنس و الجن فخلق كل ما سوى ذلك من مخلوقات. و كان «النور المحمدي «هو أول ما خلق اللّٰه تعالى. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى وَجَبَتْ لَكَ النُّبُوَّةُ؟ قَالَ: «وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ» (الترمذي، المناقب، ١). وهذا يعنى أن النور المحمدي –عليه الصلاة و السلام– هو جوهرة الأنبياء جميعهم، و هو مقابل كونه أول من خلق اللّٰه، سيكون خاتم الأنبياء و المرسلين. و نحن لا نقصد التعبير "النور المحمدي "بمعناها الحرفي بل "الذات محمد"المبعوث بصفاته البشرية.

اللّه، فعلِمتُ أنك لم تُضِفْ إلى اسمك إلا أحبَّ الخلق إليك، فقال اللّه ﷻ صدقت يا آدمُ، إنهُ لأحبُّ الخلق إليَّ، وإذْ سألتني بحقه فقد غفرتُ لك، ولولا محمد ما خلقتُك" (الحاكم، المستدرك، ٢، ٦٧٢).

تذكر آدم عليه السلام شرف و مكانة رسول اللّه ﷺ عند اللّه ﷻ و عندما طلب أن يعفو اللّه عنه حُرمةً لوجه الرسول، استجاب اللّه ﷻ لدعائه و كلّف مَلَكَاً يرشده الطريق إلى مكة.

و ببركة هذا الدعاء أيضاً وكّل اللّه ﷻ مَلَكَاً آخر سار بأمنا حواء إلى آدم عليه السلام و في يوم التاسع من ذي الحجة اجتمعا معاً في عرفات وقت العصر، فتوجها من بين دموع عينيهما إلى ربهما مستغفرين مرة أخري.

لم يكن مصدر الحب و الوله الذي جمع بين سيدنا آدم و السيدة حواء أنها من جنس آخر بل كان مصدره أن السيدة حواء خُلقت من آدم عليه السلام.

و كما استجاب الحق ﷻ بإحسانه و كرمه الذي لا تحده حدود لدعائهما، فإنه يستجيب بالكيفية نفسها و يعفو و يسامح حتى يوم القيامة من يأتي من عباده كل عام إلى عرفات في نفس الوقت و يسأل اللّه العفو و المغفرة. و هذه هي الحكمة من توجه الحجيج إلى عرفات و استغفارهم اللّه ﷻ هناك.

أول جريمة على سطح الأرض

اتخذ آدم عليه السلام و السيدة حواء بعد لقاءهما، مدينة مكة الحالية وطناً لهما بأمر من اللّه عزّ وجلّ. لهذا السبب أُطلق على مكة اسم"أُم القرى" أي مركز المناطق السكنية. و هناك بدأ عدد الناس في التزايد.

و يرجع السبب وراء الزيادة السريعة في العدد، إلا أن السيدة حواء كانت تضع في البطن الواحدة أكثر من طفل. و كان وليدو البطن الواحدة أخوة يحرم على أحدهما أن يتزوج بالآخر. و لكن يحل للذكر أن يتزوج بمن تولد من بطن أخرى و كذلك الأنثى.

أراد قابيل أن يتزوج من أخته التي ولدت معه في نفس الوقت من بطن واحدة. أما هابيل فأخطر أخاه بأن ما ينوي فعله مخالفاً للشريعة و أنه لا بد و أن يتزوج من أخوات له لم يولدن معه في نفس الوقت. لم يلتفت قابيل لهذه التحذيرات، و ادعى أنه بفعله هذا يكون قد سلك سلوكاً سليماً. و بناءً على هذا عرض هابيل على أخيه أن يقدم كل منهما قرباناً إلى اللّه عزّ وجلّ حتى يتضح لكليهما من كان على حق.

و كانت القرابين في حينذاك تُقدم من جنس مال الشخص ووفق وظيفته. وكانت توضع جميعاً فوق قمة جبل من الجبال، ويذهب الناس إلى هناك بعد مدة، فمن يجد قربانه و كان اللّه عزّ وجلّ يتقبل القربان بأن ينزل من الماء ناراً تحرقه عن آخره.

كان لهابيل قطيع من الخرفان، فأختار من بينها أسمنها و أجملها هيئة. أما قابيل فكان يشتغل بالزراعة. فقام بانتقاء حزمةً قمح رديئة كي يقدمها قرباناً للّه ﷻ.

و بعد مدة ذهب هابيل و قابيل معاً كي يتفحصا القرابين التي قدموها. فوجدا أن اللّه ﷻ قد تقبَّل الكبش الذي قدمه هابيل قرباناً؛ أما قابيل فوجد حزمة القمح الرديئة التي قدمها مستقرة كما هي. (ابن سعد، ١، ٣٦) فغضب قابيل لذلك أشد ما يكون الغضب.

و تصور الآية الكريمة الآتية كيف استبد به الغضب حتى قتل آخاه:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ [١]. **فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ**

١– ينضوي هذا الموضوع مسالتين: الأولى هي كيف يتحمل القاتل إثم المقتول و الآية الكريمة تقول (**وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**) (الإسراء،١٥)؟ ويمكن توضيح هذه النقطة على أكثر من شكل: فقد ورد في الحديث الشريف "**المستبان ما قالا. فعلى البادئ، ما لم يعتد المظلوم**". (مسلم، البر، ٦٩) أي أنه طالما لم يتعد المظلوم حده، فإن البادئ يُحَمَّل بمثل ذنب صاحبه لأنه ارتكاب الإثم نفسه من ناحية و لأنه كان السبب في ارتكاب صاحبة الإثم من ناحية أخري. فالمقصود هنا من قول (إِثْمِي)أي لو مددت يدي إليك،

فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ. فَبَعَثَ اللّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (المائدة، ٢٧-٣١)

يُعرض في هذه القصة لمُقارنة بين العقل الذي أُضيء بنور الوحي و العقل الذي لم يستطع أن يتخلص من سلطة النفس فحُرم ذلك و تعرض القصة كذلك لمثال حي لنتيجة هذه المقارنة. و للعقل قيمة يعطيها له الوحي. و العقل الحكيم هو يقف في خدمة الوحي و يقبله مرشداً له. أما العقل الذي حُرم ممن يرشده الطريق، فلا يمكنه أن يحمي الإنسان من آفات النفس. فالعقل كالسكين

فسأحمل نفس الإثم. و بهذا الحال يتخطي أحدهما الحد، أما الآخر فيكون قد ارتكب الإثم كله. و إذا لم يبد الآخر رد فعل، يكون قد نجى من هذا الإثم. و يكون القاتل قد ارتكب جريمتين و حمل إثمين؛ الأولى لأنه قتل المظلوم، و الأخرى لأنه استحق العقاب و ألقى بنفسه إلى النار. و بذلك تكون (إِثْمِي) هي (إثم قتلي)؛ و تكون (إِثْمِكَ) الآثام التي ارتكبتها من قبل.
أما الشكل أو الجانب الآخر، فكما أنه من غير الجائز أن يطلب الإنسان لنفسه أن يعصي اللّه، فلا يجوز أن يطلب لغيره أيضا أن يعصي الله. و ما دام الأمر كذلك فكيف يجوز لتقي مثله أن يطلب لأخيه أن يرتكب إثمين؟ لهذا جوابين: الأول، أن القصد الرئيس من هذه الكلمة لم يكن تمنى الطرف الآخر الوقوع في الإثم؛ بل كان يطلب ألا يقع هو أو أخيه في الإثم. و يكون المعنى بذلك، أنا لا أريد أن أقع في الإثم، فإن كنت مصراً، أنا لا أطلب من اللّه أن يجزيك بما تصر عليه. و لكنى أرجح الشكل الأول. (المللي، ٣، ١٦٥٤)

الحاد الذي يمكن استخدامه في كل الأغراض. قيمكن لأي أحد إذا أراد أن يقطع به الخبز، و يمكن لآخر أن يرتكب به جريمة. وبالطريقة نفسها أن عقل قابيل الذي عارض الوحي، هو نفسه الذي ألقى به إلى الضلالة و قضى على آخرته.

و العقل عند الأشخاص الذين حُرموا التقوى و الإخلاص هو الذي يزيد من ظلم ذلك الشخص لهم و للآخرين. و يمكنه أن يودي بصاحبه إلى قتل أخيه كما حدث في قصة قابيل. أما هابيل فاستخدم نعمة العقل على النحو الذي يقتضيه الوحي و توجه بالنصح لقابيل، و كان عبداً مخلصاً لذا تحرك بخوف من اللّه ﷻ.

دائماً ما ينظر الذين أُبتليوا بداء الغيرة و الحسد إلى النعم التي في أيدي الآخرين بدلاً من أن ينظروا إلى النعم التي وهبهم اللّه إياها. و إذا ما تمكنت الغيرة و الحسد و هي من صفات النفس المذمومة، من شخص، فإنه تحثه على فعل كل أنواع الموبقات. حتى أن هذا الشخص قد لا يتورع عن قتل آخيه. و لا يمكن لمثل هؤلاء الأشخاص أن يرضوا بما قدّر اللّه لهم.

ونتيجة لذلك سيتملكهم الندم و عذاب وجداني عظيم لأنه سيعيشون من الأرزال في الدنيا. أما في الآخرة فلهم عذابُ أليم. و يمكن للإنسان أن يبرأ من هذا المرض؛ بإعادة تربية و تهذيب النفس و التخلص من النفس الأمارة بالسوء و إدراك النفس المطمئنة، و أن يرضي الإنسان بما قسم اللّه له على وجه الخصوص.

و في شخصية قابيل و هابيل نوع من التكتل يذكرنا بما بين الملاك و الشيطان من تباين و تضاد. ففي الوقت الذي يبحث فيه قابيل في مقابله عن نواقصه هو مثله في ذلك مثل الشيطان، نجد أن هابيل قد تصرف دون أن يشعر بتوتر مثله في هذا مثل المَلاك لا يخشي أن يفقد اعتباره و لا يهاب التهديد بالقتل، و لا يخاف إلا من اللّه فقط. أي أن أحدهما ظل يصر على خطئه تماماً مثل الشيطان، أما الآخر فكان وجهته نحو اللّه ﷻ.

و يبين القرآن الكريم عظم جريمة قتل النفس ظلماً ة طغياناً في الأرض و يؤكد كذلك على عظم أجر من يُنجي إنساناً من القتل:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ...﴾ (المائدة، ٣٢)

و يحدثنا رسول اللّه ﷺ في الحديث الشريف التالي عن حادثة سفك دم الأخ و هي أول حادثة في تاريخ الإنسانية كلها بقوله:

"لاَ تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ" (البخاري، الأنبياء، ١؛ مسلم، القيامه، ٢٧).

و يقول سيدنا رسول اللّه ﷺ في حديث آخر:

"مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا

بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ" (مسلم، الزكاة، ٦٩؛ النسائي، الزكاة، ٦٤)

يبين هذا الحديث الشريف أنه إذا دل أحد على خير، فله حصة من ذلك الخير الذي سيستمر من بعده؛ و إذا تسبب أحد في وقوع شر فله نصيب كذلك من ذلك الشر الذي سيستمر من بعده.

و للأمام الغزالي في كتابه "الإحياء" كلمة جميلة في هذا الخصوص:

وَطُوبَى لِمَنْ مَاتَ وَمَاتَتْ مَعَهُ ذُنُوبُهُ
وَالْوَيْلُ الطَّوِيلُ لِمَنْ يَمُوتُ وَتَبْقَى ذُنُوبُهُ مِائَتَى سَنَةٍ

و ورد في الحديث الشريف أن الرسول الأكرم ﷺ قد قال:

"ستكون فتنةٌ القاعد فيها خيرٌ من القائم والقائم خيرٌ من الماشي والماشي خيرٌ من الساعي قال أفرأيت إن دخل على بيتي وبسط يده إلي ليقتلني قال كن كابن آدم" (الترمذي، الفتن، ٢٩، ٢١٩٤)

أمرنا الدين الإسلامي أن نحافظ و ندافع عن خمسة أشياء. هي: الروح و العقل و الدين و النسل و المال. و يجب على الإنسان أن يجاهد و يفعل كل ما هو ضروري للدفاع ضد أي تعرض لهذه الأشياء. و لكن ينبغي عليه و هو في دفاعه هذا أن يتبع الطريق التي بينتها الشريعة.

و عندما يتعرض لموقف سيكون فيه إما ظالماً أو مظلوماً، فعليه أن يتبع وصية رسول اللّه و يختار أن يكون مظلوماً لا ظالماً.

رزق اللّه ﷻ سيدنا آدم عليه السلام و السيدة حواء بسيدنا شيت[1] عليه السلام بعد مقتل قابيل. و كلمة شيت تعنى في اللغة "هبة اللّه".

أنزل اللّه ﷻ على سيدنا شيت هو أحد الأنبياء الذين لم يرد ذكرهم في القرآن، ٥٠ صحيفة. و قد نادى سيدنا آدم على سيدنا شيت -عليهما السلام- و هو يحتضر، و علمه ساعات الليل والنهار، والعبادات الواجبة في تلك الساعات و أخبره أن طوفاناً سيحدث على الأرض.

توفي سيدنا آدم عليه السلام يوم الجمعة، و جاءته الملائكة فغسّلته وكفّنته ثم قاموا بدفنه من بعد ذلك. و يروى أنه عاش على الأرض ألف عام أو ٩٣٠ عام.

١- وجدنا في مصادرنا أن هذا الاسم قد ذُكر على الشكل شيث كذلك. بيد أننا رجحنا أن نذكره هنا على الشكل شيت حتى يكون سهل التلفظ بالنسبة للغة التركية و لأنه أشتُهِر بين الأتراك بهذا الشكل.

العبر المُستقاة من قصة آدم عليه السلام

١- يجب أن نكون منتبهين يقظين إلى أبعد الحدود لحيل الشيطان، فهو عدو الإنسان اللدود والمحرض الدائم له على السوء.

٢- يجب أن نولي الاهتمام بتزكية النفس و تصفية القلب حتى نتخلص من الصفات المذمومة مثل الكِبر و الحسد و الحرص و العجلة و هي صفات تسوق بصاحبها إلى الخسران الأبدي.

٣- يجب على الإنسان أن يقتدي بسيدنا آدم عليه السلام في أن يُسرع بالاستغفار لدي ارتكابه الإثم.

٤- يجب علينا أن نتوجه إلى اللّه بالاستغفار حتى إن لم نكن قد ارتكبنا إثماً معترفين بعجزنا عن تأدية شكر نعمائه علينا.

٥- يمكننا أن نستقي من حادثة اقتراب سيدنا آدم عليه السلام و أمنا حواء من الشجرة التي حرمها اللّه، أنه يمكن لروحانيات العباد التي تلاشت بعد ارتكابهم الذنوب، يمكنها أن تعود مرةً أخري إذا هم لزموا الاستغفار.

٦- يجب علينا أن نتوسل في دعائنا بسيدنا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم كما فعل سيدنا آدم عليه السلام، و ألا نكف الصلاة عليه في وقت ضيقنا و راحتنا.

٧- يجب علينا نبذل جهدنا حتى ندرك سر "أحسن تقويم" و نجعل الروح السلطانية غالبةً على حياتنا النفسية.

٨- يجب ألا يغيب عن أذهاننا أنه إذا دل أحد على خير، فله حصة من ذلك الخير الذي سيستمر من بعده؛ و إذا تسبب أحد في وقوع شر فله نصيب كذلك من ذلك الشر الذي سيستمر من بعده. و بذلك يكون هابيل قد سنَّ سُنة في الخير، أما قابيل فسنَّ سُنةً في الشر.

٩- خلق اللّه ﷻ الإنسان مُكرماً و فضله على جميع مخلوقاته.

من كل ذلك يمكن الخلوص ببعض المعلومات عن سيدنا آدم عليه السلام:

أول من عاش في الجنة و الحياة الدنيا.

أول من تغطّى.

أول من نسي.

أول من ارتكب الإثم.

أول من تاب.

أول الأنبياء (أنزل اللّه عليه ١٠ صحف).

أول من كافح لإعلاء كلمة التوحيد.

أول من شعر بفاجعة فقدان الولد.

أول من ألقي السلام.

أول من عمل بالأرض (فلح الأرض).

و خلاصة القول أنه كان أول إنسان.

عليه السلام!...



آسيا الوسطى
البحر الأسود
بحر قزوين
الأناضول
تركستان
ما بين النهرين
البحر الأبيض
الشام
الجزيرة العربية
الهملايا
ايران
السند
مكة المكرمة
البحر الأحمر
الهند
أفريقيا
المحيط الهندي
سيلان

التوبة والإستغفار

الدنيا هي دار الإمتحان، يميل الناس فيها ويتجهون نحو الخير والشر. ومع مرور الزمن، تتكشف معالم هذا التوجه بالدعم والتشويق والإغراءات، فتتكون في نهاية الأمر هوية هذا الإنسان الشخصية.

أن يقوم أحدهم بتقديم كأس من الماء لمن هو أمامه، دون أن يكون مجبراً على ذلك، هو أمر يؤدي إلى ولادة واجب الشكر، كما أنه أمر يعتبر من الأمور الإنسانية والوجدانية. في الواقع، إن هذا الميزان يذكرنا بضرورة العيش وفق حس دائم يتزين بأحاسيس الشكر والمنة للحق سبحانه وتعالى أمام ما يقدمه لنا من نعم لا تُعد ولا تُحصى. وفي هذه الحالة، فإن التعامل وفقاً للصفات الإنسانية التي تولد معنا بالفطرة كالجهل والشهوة والكبر والغرور والحرص والبخل والحسد والإسراف والغضب، أو باختصار، أن يتعامل المرء حسبما تشتهيه نفسه فيجحد أمام نعم اللّه تعالى، فإن هذا التعامل هو خيانة كبرى للفطرة النقية التي نمتلكها.

ويميل الإنسان عادة إلى الخطيئة مستجيباً لرغبات نفسه عندما يفقد بريق الإيمان فيها. فعندما تضعف الأخلاق في وجدان البشر، يغيب معها التفكير السليم والعمق الروحي. ويظهر الضعف الشديد

في الطريق نحو الإستقامة. فالخطايا هي كالنغمات الموسيقية التي تنساب إلى النفس البشرية بشكل عذب جميل، فكأنما يقع فيها المرء دون أن يشعر بثقل وبائها وشدته.

والخطايا التي يقع فيها المرء في ساعة غفلته في هذه الحياة الدنيا، تمزق شرفه وحيثيته الإنسانية. وهذا الأمر هو ما يجعل الروح تتلطخ بظلماء الخطيئة.

مع العلم أن ابن آدم يولد في هذه الدنيا طاهراً نقياً مفطوراً على الشرف. والدين هو التجلي الواضح للرحمة واللطف الذي تكرم اللَّه به على البشرية حماية لهذه النقاوة الفطرية. ولهذا، إن تمكن العبد عبر هذين الدافعين من زحزحة أطراف ستار الخطيئة تكشف له في وجدانه ثقل هذه الخطيئة التي قام بها. فتصحو مشاعر الفضيلة المخبأة في عالمه الداخلي. ويحترق قلبه بندم كبير يجعل من قطرات الدمع تنساب طالبة مرضاة اللَّه ومغفرته. هذا التحرق وهذه الندامة هي ما يسمى "التوبة". وما يتبعها من رفع اليدين إلى السماء طلباً للمغفرة بكلمات تنبع من القلب التائب تسمى "استغفار".

❁

إن اللَّه تعالى جل جلاله يفرح ويرضى باستغفار وتوبة وندامة العبد. ذلك أن اللَّه هو الرحمن وهو الرحيم ولقوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة، ٢٢٢)

إن رحمة ولطف اللَّه تعالى بعباده دون أدنى شك أكثر بكثير من رحمة الأم لابنها. فهو لا يحب العذاب لعباده. أما إن أصرَّ العبد على نكران الجميل وعلى الظلم، فإنه يستحق عند ها كل ما سيناله من عقاب. إن الرحمة التي وضعها اللَّه في أسمائه الحسنى "**الرحمن والرحيم**" لهي أكثر بكثير من عذابه جَلَّ وعلا. علماً أن الحديث النبوي الشريف أدناه قد أخبر بشكل رائع عن رحمة اللَّه تعالى أمام توبة واستغفار العبد حيث قال:

عن أنس رضي الله عنه: يقول رسول اللَّه ﷺ:

"**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ**" (مسلم، التوبة، ٧؛ الترمذي، القيامة، ٤٩)

إن رحمته تعالى قد أحاطت بكل شيء، حيث يقول تعالى مبيناً عظمة رحمته بعباده:

﴿**...وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ...**﴾ (الأعراف، ١٥٦)

وفي إشارة منه إلى هذه الحقيقة الإلهية يقول رسول اللَّه ﷺ في الحديث القدسي: يقول اللَّه تعالى:

"لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ وَهُوَ يَكْتُبُ عَلَى نَفْسِهِ وَهُوَ وَضْعٌ عِنْدَهُ عَلَى العَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي" (البخاري، التوحيد، ١٥)
ولهذا، سعى الأنبياء جميعهم إلى حثَّ أممهم دائماً على التوبة والاستغفار.

إن كل نفس بشرية، عدا الأنبياء المعصومين، هي بما تمتلكه من خصائص بشرية غير معصومة عن الخطأ، ولهذا فهي معرضة دائماً للوقوع بالخطأ قليله أو كثيره.

ولهذا، فإن القرآن يحمل بين أرجائه سورة كاملة يبتدئُ اسمها بعبارة الطهارة من الخطايا أي "التوبة". إن كلمة "التوبة" قد ذكرت في القرآن الكريم في ما يزيد عن ثمانين موضعاً. كما يحتوي القرآن على مئات الكلمات التي تحمل في طياتها معنى المسامحة الربانية والمغفرة، ككلمة "غفور" التي ذكرت اثنين وتسعين مرةً، واسم الجلالة "الغفار" ذكر خمس مرات مختلفة، كما ذكر اسم الجلالة "الغافر" مرة واحدة. وجميع هذه الأسماء والكلمات تدل على أهمية التوبة وأن اللَّه سبحانه وتعالى سيقبل بها من عباده ويحثهم بذكرها على الاستغفار والتوبة.

إن اعتراف العبد بذنبه عند الخطيئة أو الغفلة هو عرفان بالجميل، وطلبه العفو من هذا الذنب هو دين وجداني. كما أن الغفلة التي هي انعدام الرؤية للخطيئة ضمن إطار الذنب، وبالتالي

الغفلة عن إدراك ضرورة التوبة عنها، وهي بالتالي والعياذ باللَّه إفلاس للقلب وعلامة الدخول إلى جهنم. ولهذا، فإن اللَّه يحذر هؤلاء بشكل واضح فيقول:

﴿...وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الحجرات، ١١)

وفي الحديث النبوي الشريف: يقول رسول اللَّه ﷺ:

"النَّدَمُ تَوْبَةٌ، وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ" (الطبراني، المعجم الكبير، جـ٢٢، ص ٣٠٦، ٧٧٥)

ولا يجب على العبد في معصيته للّه أن يتذرع بأن اللَّه سيغفر له فيؤجل من هذه التوبة والمغفرة، بل يجب عليه أن يباشر فوراً إلى التمسك بحبل التوبة. وفي هذا السياق، يحدد اللَّه سبحانه وتعالى التعجيل في التوبة شرطاً للقبول بها فيقول جَلَّ وعلا:

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء، ١٧)

كما يبشر اللَّه تعالى من يؤخر التوبة مستمعاً لوسوسة الشيطان بعاقبته الوخيمة فيقول:

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء، ١٨)

ويوضح بعض علمائنا طرق النجاة من هذا التهديد والتنبيه في الآية الكريمة بقولهم: "عجلوا بالصلاة قبل الفوت، وعجلوا بالتوبة قبل الموت" (المنافي، فوز القادر، جـ٥، ٦٥)

كما أن ذكر اللسان لكلمة "أستغفر اللَّه" ليست أمراً كافياً لقبول هذه التوبة. إذ يجب مع هذا القول أن يهتز القلب وأن يعقد المرء نيته على عدم تكرار نفس الذنب مرة أخرى.

ولقد بين حضرة مولانا جلال الدين الرومي الحالة الروحانية الضرورية لتحقق هذه التوبة حين قال:

"تب بقلب مليء بنار الندامة وعيون رطبة! علماً أن الأزهار تنبت في الأماكن المشمسة والرطبة!"

إن التوبة والإستغفار تصل بالفرد والأمم إلى بر السلامة والأمان. وتعزلهم عن البلاء والمصائب. والحديث الشريف الآتي مهم جداً في تنظيم تصرفات المؤمنين. يقول رسول اللَّه ﷺ:

"لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ" (مسلم، التوبة، ٢٣)

ومن هذا المنطلق يجب على المؤمن أن يحيا بين "الخوف والرجاء". فإن قيل "سيدخل النار رجل واحد" عليه أن يسأل نفسه بخوف "هل ذلك أنا؟" وإن قيل: "سيدخل الجنة رجل واحد!" عليه أن يسأل بأمل "هل أنا ذلك؟".

وكما أن مراحل الخوف هي متعددة، فإن مراحل الرجاء أيضاً هي الأخرى متعددة المراحل. فأهل الخطيئة هم أهل اللّٰه إن خافوا من عذاب اللّٰه تعالى، هم الذين يخافون من أذية محبوب القلوب سبحانه وتعالى والخائفون من أن يحرموا محبته.

لا يجب علينا أن ننسى أن الأنبياء حتى لم يعصموا من الزلاّتِ، وعاشوا ألم التوبة والإستغفار، فأذاقهم اللّٰه بذلك عجز نفوسهم البشرية. ذلك أن التفوق المطلق هو للّه وحده. والمستثنى والمنزّهُ عن العجز هو وحده لا شريك له.

إن أول من تاب إلى اللّٰه تعالى هو نبيه آدم عليه السلام. وتوبته التي تابها مع أمنا حواء هي هذه التوبة المشهورة:

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف، ٢٣)

هذا الدعاء هو أجمل نموذج للإستغفار يستفيد منه أولادهم من بعدهم إلى أن تقوم الساعة. ويدعو اللّٰه تعالى في العديد من الآيات الكريمة عباده للتوبة والاستغفار استفادة من رحمته، ويبشرهم فيها بأنه سيقبل هذه التوبة فيقول:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا. وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ (الفرقان ٧٠-٧١)

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ. أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (آل عمران، ١٣٥-١٣٦)

تؤكد هذه الآية الكريمة أن المحسن هو من يعيش حياته بعيداً عن الإصرار على المعصية وإن زل بأحدها سارع يطلب التوبة. فهم يتحركون ضمن أطر الحكمة التي تقول:

لاَ صَغِيرَةَ مَعَ ٱلاِصْرَارِ وَلاَ كَبِيرَةَ مَعَ ٱلإِسْتِغْفَارِ

ويقول اللّه تعالى في الآيات الكريمة:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة، ١٠٤)

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ...﴾ (الفرقان، ٧٧)

والأصل في الدعاء هو الإخلاص والمناجاة والصدق. فالأدعية الصادقة هي من مظاهر المناجاة. والآية التي تلى ذكرها تبين أن من يدعو اللَّه مناجياً هو العبد الذي يكسب قيمة ودرجة عند ربه. ولهذا فإن التوبة يجب أن تتزين بالعمق الروحي. يقول اللَّه تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (التحريم، ٨)

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء، ١٤٦)

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (النساء، ٢٧)

إن محاولة الإبتعاد بشكل كلي عن الخطيئة التي هي في مضمونها معارضة للأوامر الإلهية، لا تكون أمراً كافياً لإستثناء العبد من التوبة والإستغفار، وذلك لأنه لا يمكن لأحد من الناس أن يشكر اللَّه تعالى بشكل كاف على ما أنعم عليه من نعم. وهذا العجز البشري هو للجميع بدون أي استثناء. علماً أن التمكن من الشكر هو بحد ذاته مدعاة للشكر أيضاً. وهكذا فإن عملية الشكر هي عملية مستمرة إلى ما لا نهاية.

من الخطأ الإعتقاد بأن العبد بإمكانه الإبتعاد عن الخطايا بشكل كامل. فالعبد لا بد وأن يقع في الخطأ حتى ولو في لحظة غفلة، وسيشعر بعجزه وبالتالي سيلجأ إلى ربه جَلَّ وعلا. إن إدراك الإنسان لضعفه أمام عظمة ربه هو أمر ينبع من هذه النظرة والكيفية.
يقول رسول اللَّه ﷺ:

"كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ. وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ" (ابن ماجه، الزهد، ٣٠)

حتى الأنبياء لم يستثنوا من كيفية ارتكاب الخطأ. فهم ارتكبوا الأخطاء بين الفينة والأخرى وتابوا واستغفروا اللَّه على ذلك. يقول رسول اللَّه ﷺ:

"إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ"

(مسلم، الذكر،٤١؛ أبو داوود، الوتر،٢٦)

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى اللهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ، فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللهِ، وَأَسْتَغْفِرُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مَرَّةٍ" (أحمد، ٤، ١٦٢)

ولكن استغفار رسول اللَّه ﷺ وتوبته هذه هي في معظم الأحيان ليس لخطأ أو ذنب اقترفه، وإنما هي زيادة في التقرب من اللَّه تعالى وسعياً لكسب رضاه. ولكون رسولنا ﷺ كان في حالة ارتقاء دائم ومستمر، فإنه كان يستغفر اللَّه على حاله التي هي أقل من الحالة التي سيكون عليها بعد هذه المرحلة والحالة. وقد علم أمته ﷺ أنواع الإستغفار المتعددة. وأهمها: "سيد الاستغفار".

عن شداد بن أوس رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ قال:

" سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ:

اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ -ويكمل رسول اللَّه ﷺ حديثه- فيقول:

"وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ" (البخاري، الدعوات، ٢،١٦؛ أبو داوود، الأدب، ١٠٠-١٠١؛ الترمذي، الدعوات،١٥؛ النسائي، الإستعاذة، ٥٧)

مما لا شك فيه أن نعم اللّٰه تعالى علينا هي بقدر واسع لا يمكن لاستغفارنا أن يصل إليها أبداً. تقول الآية الكريمة:

﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم، ٣٤)

ويتحدث عطاء بن أبي رباح أحد أشهر علماء التابعين رحمة اللّٰه عليه عن شكر واستغفار نبينا ﷺ فيقول: دخلت انا وعبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها فقال لها عبيد بن عمير:

"حدثينا بأعجب شيء رأيتِه من رسول اللّٰه ﷺ ؟!"

فبكت عائشة رضي الله عنها ثم قالت:

"قام رسول اللّٰه ﷺ ليلة من الليالي فقال:

"يا عائشة ذريني أتعبد لربي" قالت: فقلت:

"واللّٰه اني لَأحب قربك وأُحِب ما يسرُّكَ"

قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي فلم يزل يبكي حتى بل حجره ثم بكى، فلم يزل يبكي حتى بل الارض وجاء بلال يؤذنه بالصلاة

فلما رآه يبكي قال:

"يا رسول اللَّه تبكي وقد غفر اللَّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟"

فقال ﷺ:

"أفلا أكون عبداً شكوراً؟! لقد نزلت عليّ الليلة آيات، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها"

وقرأ هذه الآية:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران،١٩٠-١٩١) (ابن حبان، ٢، ٣٨٦)

لقد أخبرنا رسول اللَّه ﷺ عبر كلماته هذه أن ما ذكره اللَّه جَلَّ وعلا من نعم لم تكن أبداً لانتقاص العبودية وإنما هي على العكس تماماً لكي تكون سبباً في زيادة الشكر.

وفي هذا الشأن ركزت الآيات الكريمة على ثلاث جوانب مهمة. أولها التفكر في العظمة الإلهية، فيدرك المرء من خلال ذلك عجزه أمام هذه العظمة وهو الأمر الذي يؤدي بنتيجته إلى التجاه إلى بارئه والتقرب منه.

ففي الليلة التي أنزلت هذه الآية الكريمة، أمضى رسول اللّٰه ﷺ ليلته باكياً بشدة اهتزت لها النجوم. إن لطف اللّٰه تعالى ودموع المؤمنين هي بدون أدنى شك زينة الليالي الزائلة، وضياء القبور المعتمة، وأريج حدائق الجنة في الآخرة.

وأهم أوقات التوبة هي أوقات السحر. فقد خص اللّٰه تعالى أصحاب التقوى ممن يقومون الليل عبادة لله بالنعم الإلهية الظاهرة في قوله تعالى:

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُون. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾

(الذاريات، ١٧-١٨)

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ (الفرقان، ٦٤)

فكما أن فترة ما بعد السحر هي الفترة التي تذوب فيها الظلمة عند الشفق، فإن الإستغفار كذلك في فترة السحر أيضاً هو الوسيلة التي توصل المرء أيضاً إلى الشفق الذي تذوب فيه ظلمة الذنوب بين أشعة نور المغفرة والرحمة.

نسأل اللّٰه تعالى أن يمن علينا بقلوب صاحية وأن يمن علينا بالسعادة بين أرجاء المغفرة.

آمين...

حضرة إدريس

عليه السلام

حامل أسرار العجائب السماوية

حضرة سيدنا ادريس ﵇

يروى أن ادريس ﵇ ولد في جوار بابل[1]. وهو من أحفاد آدم ﵇ من النسل السادس.

وكان إدريس ﵇ مشغولاً بالعبادة قبل أن تأتيه النبوة أيضاً. فكان يلتقي بالصالحين ويُؤمِّن معيشته من عرق جبينه. فكان أول من خاط اللباس في تاريخ البشرية، أي أن مهنة الخياطة بدأت مع إدريس ﵇.

وكان المجتمع الذي يعيش فيه هو جماعة من نسل قابيل. وكان مجتمعاً متردياً في كلا الناحيتين المادية والمعنوية. وكانوا قوماً ابتعدوا عن نهج شيت ﵇، وتركوا وظيفة العبادة. فكانوا يحلون كل محرم وخطيئة ويرتكبونها. فأرسل اللّٰه تعالى إلى هذا المجتمع الذي ابتعد عن طريق الحق إدريس ﵇ نبياً. وأنزل عليه ثلاثين صحيفة؛ بَيّن اللّٰه تعالى فيها أوامره ونواهيه. فقام إدريس ﵇ بتبليغ هذه الأوامر والنواهي إلى قومه.

---

١ مدينة بابل تقع في العراق وتدعى اليوم بـ مدينة الحِلّة وهي مركز الحضارات القديمة وتقع بالقرب من مدينة بغداد.

وكان الملائكة يزورون إدريس عليه السلام على شكل جماعات، يتحدثون إليه. وآمن معه من الناس ما يقرب من الألف.

وكان إدريس عليه السلام يتوجه إلى قومه ناصحاً بكلمات حكيمة. ومن هذه الكلمات قوله:

«يزداد تواضع المرء الذكي كلما ازدادت مرتبته»

«العاقل لا ينظر إلى عيب الآخر! لا يرمي بعيوب الناس في وجوههم! وإذا ازداد ماله لا يصيبه الغرور فَتسُوء أخلاقه!»

«لا عقل لمن لا يحسن تزكية نفسه!»

«لا يجتمع حب الدنيا وحب الآخرة معاً أبداً!»

«إذا دعوت فادع بنية حسنة!»

وقد رفع إدريس عليه السلام في نهاية حياته إلى السماء العليا. وهو ما ذكره اللَّه عز وجل في سورة مريم في الآية ٥٧ حين قال:

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾

والقصد من هذا المكان هو مرتبة رفيعة على مقربة من اللَّه عز وجل أو الجنة، أو رفع إلى السماء الرابعة. علماً أن الحديث النبوي الشريف يقول في هذا السياق:

«...فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟

قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قِيلَ مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟

قِيلَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَأَتَيْتُ عَلَى إِدْرِيسَ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ،

فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ،" (البخاري، بدء الخلق، ٦؛ مسلم، الإيمان، ٢٥٩-٢٦٤)

ويعتقد بعض العلماء أن إدريس عليه السلام هو حالياً في السماء وما زال على قيد الحياة.

ويتحدث اللّٰه تعالى عن صدق إدريس عليه السلام وفضيلته وصلاحه فيقول اللّه عز وجل:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾ (مريم، ٥٦)

كما أخبر تعالى في سورة الأنبياء في الآية ٨٥ و٨٦ عن إدريس عليه السلام بقوله:

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ. وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الأنبياء، ٨٥-٨٦)

وكلمة "من الصالحين" التي يذكرها القرآن الكريم عند حديثه عن الأنبياء هي للتأكيد على فضيلة هؤلاء الأنبياء.

ويخبر مولانا جلال الدين الرومي قدس اللّٰه سره عن حالة رفع إدريس وعيسى عليهما السلام إلى السماء فيقول:

"إن الجهاد ورياضة النفس اللتان قام بهما كل من إدريس وعيسى عليهما السلام بشكل يفوق العادة جعل منهما يصلان إلى

مستوى الملائكة. فأصبحوا وكأنهم لا يأكلون ولا يشربون. فرفعوا إلى السماء وكأنهم من نفس فصيلة الملائكة...“

وبنتيجة صبر وشكر ورياضة نفس روحيهما، اكتسبت هذه الروح وصف الكمال في إعمالها، والتفت بلطف اللّٰه فرفعت إلى السماء، وهو ما يشير إلى أن تزكية العبد لنفسه وتصفية قلبه هي من الأمور الواضحة التي ترفع بالعبد إلى المقامات العلية المختلفة.

والأنبياء اللذين هم قمة التكامل المعنوي، كانوا مثالاً للبشرية في التكامل المادي أيضاً. تماماً كما كان آدم عليه السلام في الزراعة، وإدريس عليه السلام في الخياطة. كما أن الكتابة التي ابتدأت مع تاريخ البشرية نفسها، قد تطورت بشكل كبير جداً في عهد إدريس عليه السلام.

وبالنتيجة فإن إدريس عليه السلام:

هو نبي أنزل إليه الصحف.

مدح في القرآن الكريم بصدقه وصلاحه وفضيلته.

هو من ابتدأ مهنة الخياطة.

رفع إلى مكان عليّ.

من العباد الصابرين.

من الصالحين.

ظهرت عليه الرحمة الإلهية.

عليه السلام!..

حضرة إدريس عليه السلام



القلب وأسراره

إن حياة إدريس عليه السلام هي مثال يظهر لنا أسرار العجائب السماوية وكيف يمكن للقلب النقي الصافي من أن يعكس التجلي الإلهي. وهي الحياة التي تظهر لنا أن الإنسان الذي هو متقلب في درجاته بدرجة أدنى من الحيوانات أو درجات أرقى من الملائكة، هو نفسه الإنسان الذي يمكنه أن يصل إلى الذروة مكتسباً خصائص الملائكة.

إن تنقية وتزكية القلب الذي هو مركز الروح والبدن، يمكنها أن تؤدي بلطف اللَّه وكرمه إلى نقطة تجعل من صاحب هذا القلب، وعلى الرغم من أنه بظاهره كغيره من الناس، إلا أنه بجانبه الروحي أعلى مرتبة من الملائكة أنفسهم.

ولكونه من العلامات الفارقة التي تميز بها إدريس عليه السلام، وجدنا أنّه من الضروري أن نعرج هنا على عالم القلب لنعطي بعض المعلومات حوله.

إن أهم وظيفة وأكثرها جدية يؤديها الإنسان في هذه الحياة هي أن يسعى للتحضر للحياة الباقية التي تأتي بعد الممات. وهذا الأمر يأتي أولاً عبر معرفة حقيقة القلب، والابتعاد به عن أي نوع من أنواع الخطر والسيئات وتوجيهه نحو الأخلاق الحميدة. علماً أن السعادة في هذه الحياة الدنيا والراحة النفسية والسلطنة في الحياة الآخرة هي من خلال امتلاك ذلك القلب السليم.

والقلب في اللغة هو انقلاب الشيء إلى عكسه، ويحمل أيضاً معنى الشكل واللون. ومن خلال هذه الخاصية، نجد أن القلوب هي دائماً في حالة تقلب يستمر مدى الحياة إما قلوب روحانية ملكية، أو نفسانية وشيطانية.

فالكمال والزوال عند الفرد والمجتمع هو دائماً مرتبط برقي أو تدني حالة القلب. فالقلوب المليئة بالروحانية، هي قلوب تسعى دوماً للأخلاق الحميدة والعمل الصالح. وبهذا يصبح العبد في «أحسن تقويم»، أي في أجمل مرتبة ممكنة.

أما القلوب المليئة بالنفسانية؛ فإنها قلوب تحمل في أرجائها الكفر والشرك والصفات السيئة والشهوة والوسوسة. وفي هذه الأحوال، يتحول القلب إلى عكس الغاية التي خلق من أجلها فيصدأ ويعمى. وبالتالي فإن من يمتلك قلباً كهذا هو «بل هم الضالون» أي الذين هم في مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان. ولهذا، فإن الآية الكريمة تقول:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف، ١٧٩)

والمحافظة على القلب من فساد النفس ووسوسة الشيطان ومن الدسائس لا تكون إلا عبر العبادة وذكر اللّٰه ومجالس الذكر

والأخلاق الحميدة. وفي نتيجة كل ذلك، تتجلى في هذا العبد حال التقوى ليحتل عند اللّه تعالى مرتبة رفيعة حقيقية. يقول اللّه تعالى:

﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾ (الحجرات، ١٣)

وللمحافظة على حال التقوى هذه، يجب على المرء أن يتسلح بألفة الصالحين والصادقين، ورفقتهم ومجالسهم. فأهمية الدعم الإلهي تتجلى في هذه المجالس بشكل واضح وكبير يساهم في تدعيم حالة القلوب وتغذيتها من الناحية المعنوية. فهذه المجالس هي أماكن مقدسة تشع بنور الفضائل المقتبسة من النور النبوي. بل، وبحسب ما يذكره أهل الإيمان، فإن هذه المجالس هي أول مجرى للنور والفوز الذي يتلطف به الفائز المطلق جناب الحق سبحانه وتعالى إلى قلوب عباده، وصدر رسول اللّه ﷺ الشريف. فينتقل النور هنا إلى صدور الصالحين الصادقين. ومنهم تسلسلاً إلى المقربين والمستمعين في مجالس الذكر أجمعين.

وفي يومنا الحاضر، وكما أصبح مقبولاً لدى علوم النفس الاجتماعي، فإن الإنسان هو كائن يتأثر بشكل واضح بالمجتمع ممن حوله. فيتناقل الناس الطباع والعادات. لأن التبادل المعنوي بين الأرواح هي حقيقة لا يمكن لأحد إنكارها. ويكون هذا التأثير غالباً عبر الشخصيات الحيوية الناشطة. أي أن الشخصيات التي عادة ما تكون فاعلة مؤثرة، هي تلك التي تقوم بعملية النقل الروحي لصفاتها إلى من يلتف حولها ويستمع إليها من الناس. ولهذا،

نجد أن من يلتف حول الصادقين الصالحين يصبح مثلهم صادقاً وصالحاً. ولهذا، نجد أن الآية الكريمة بدأت بذكر "أن تكون صاحب تقوى» ومن ثم «أن تكون مع الصالحين» في تسلسل مباشر. يقول اللّٰه تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة، ١١٩)

إن عدم حماية جوهر القلب وعدم المحافظة عليه هو جناية ترتكب في حق الحياة الإنسانية وخسران مؤلم لها. وستكون النار مكاناً أليماً لكل من يقدم قلبه قرباناً للرغبات الشيطانية. إن القلب في الحقيقة هو بوصلة الحق والحقيقة. ولهذا، أينما تتجه إبرة الإرادة الإنسانية، وكيفما تقوم به من أعمال، خير أو شر، تتكون نتيجة هذا العبد. يقول الحديث الشريف:

"إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ" (مسلم، البر، ٣٤)

وتقسم القلوب بحسب أعمالها إلى خمسة أقسام:

١- القلوب المقفلة والمختومة:

هذه القلوب التي لا تمتلك أي ميزة معنوية، تتجه بشكل كامل نحو الحياة الحيوانية فتتخذ من الدنيا مكاناً للأكل والاستمتاع فقط بشكل يكون هدفها واهياً وفارغ الأفق. وبالتالي تكون هذه القلوب

خالية من البصيرة والفراسة بعيدة كل البعد عن اكتشاف الأسرار الإلهية الموجودة في الكائنات والإنسان. وهذه الأبدان التي تمتلك قلوباً معاكسة تماماً للقلوب المحبة للّه وللأنبياء، هي إن صح التعبير كالقبور لا أكثر. فكما تذوب الأجساد في التراب وتزول، فإن هذه القلوب هي أيضاً ذائبة وزائلة في الظلام وفي مستنقعات الإنكار. وهذه القلوب المغروسة في الضلالة (الشذوذ) لا تكون سبباً في عاقبة وخيمة لها وحدها فحسب، وإنما لكل من يكون قريباً منها أيضاً. يقول اللّه سبحانه وتعالى في حق هؤلاء:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد، ٢٤)

إن هؤلاء هم من يعيشونَ في الحياة الدنيا مستمتعين بنعم اللّه، منكرين لخالقهم، ومخالفين لأوامره وقوانينه بشكل يجعلهم في أشد حالات سوء الأخلاق ونكران الجميل. يقول اللّه سبحانه وتعالى في حق هؤلاء في الآيات الكريمة:

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُون﴾ (البقرة، ١٨)

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ. وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (النمل، ٨٠-٨١)

ويصف اللّٰه سبحانه وتعالى هذه القلوب بالمقفلة والمختومة فيقول:

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة، ٧)

فالقلوب المقفلة والمختومة التي أتى ذكرها في هذه الآية الكريمة هي القلوب المغلقة أمام الخير والحقيقة، والأفئدة التي انقطعت علاقتها بالحياة المعنوية والانسانية. وفتح أختام وأقفال هذه القلوب لا يمكن لأحد أن يقوم به إلا اللّٰه نفسه الذي ابتَعدَتْ قلوبهم عن ذكره.

هذه الكيفية تحتوي حكمة وسراً إلهياً يجعل جميع الإنسانية في خوف وخشية ترتجف لها النفوس. وفي هذه الحياة الدنيا، لا يمكن لأي أحد منا أن يعلم هذه القلوب المقفلة المختومة المغلقة أبوابها عن الهداية، فعلمها هو للّه وحده فقط. ذلك أن اللّٰه يرزق الهداية لمن يشاء من عباده قبل أن يحيط بهم الموت.

وعندما يتحدث القرآن الكريم عن أصحاب القلوب المختومة، فإنه لا يمكن أبداً الحديث عنها فرداً فرداً. ذلك أن العاقبة فيها مجهولة. كمثال سحرة فرعون الذين عاشوا في الضلالة وانتهت حياتهم بالهداية، وقارون وبلعم بن بَعورا اللذين عاشا حياتهما في الهداية وأغْلقا دفاترهما بالخسران والضلالة. ولهذا، لا يجب على المؤمنين عند قراءتهم هذه الآيات المماثلة، أن يخطئوا الفهم

فيهملوا الدعوة إلى دين اللَّه جَلَّ وعلا. ومن جهة أخرى، يجب على كل فرد أن يقلق من الوقوع في عاقبة مماثلة فيسعى دائماً إلى الطلب من اللَّه أن يثبت قلبه على الإيمان، وأن يسعى للصحوة دائماً في حياته. وبخاصة أن القلوب التي يتم إهمالها تبتعد عن الهداية، وتتصلب أمام ذكر اللَّه، بل وتصبح مع الزمن أشد صلابة من الحجارة نفسها. وتتحدث الآية الكريمة في وصف ذلك فتقول:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة، ٧٤)

ولهذا السبب، فإن اللَّه تعالى ينبه عباده ويدعوهم للمحافظة على قلوبهم من الإقفال والختم فيقول:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الحشر، ١٩)

٢- القلوب المريضة:

وهي القلوب التي تقع في مرتبة ما بين القلوب المختومة والقلوب السليمة. ويتحدث القرآن الكريم عن القلوب المريضة فيقول: **﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾** (البقرة، ١٠)

وهؤلاء الأشخاص الذين تتحدث الآية الكريمة عن قلوبهم المريضة، هم الذين تتحدث ألسنتهم بالإيمان، وتكون اعمالهم بناءً لسلطة نفوسهم بعيدة عن الحياة الصالحة. فالإيمان لم يجد في قلوبهم مكانه بشكل كاف. وحال أصحاب هذا النوع من القلوب هو كحالة المريض من الناس من الألم. فهم لا يجدون الراحة في حياتهم الدنيوية ولا يجدونها في عالمهم الباطني. فعدم الوضوح في عالمهم الباطني يؤثر سلباً على عالمهم الخارجي، وكذلك الأمر فإن عدم الوضوح في عالمهم الخارجي يؤثر سلباً أيضاً على عالمهم الباطني. ويتحدث اللَّه سبحانه وتعالى عن الحالة التي تقع فيها هذه القلوب فيقول:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (البقرة، ١٦)

والصفات التي تمنع القلب من إدراك آيات اللَّه هي أمراض القلب المتعددة مثل الكبر، الإعجاب، الحسد، وحب الدنيا. وهؤلاء الأشخاص، إن لم يزكوا أنفسهم عبر التربية المعنوية فإنهم لا يمكن لهم الوصول إلى الأعمال التي ترضي اللَّه تعالى وهم بالتالي بعيدون عن نيل حصة من أسرار القرآن الكريم. ولهذا يقول اللّه تعالى مهدداً بشكل واضح:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...﴾

(الأعراف، ١٤٦)

إذاً، إن القلب الذي لا يترقى بنفسه عبر تلقي التربية المعنوية، هو قلب لا يمكن له أن ينال نصيبه بشكل كاف من أسرار الإنسانية والكون والقرآن. يقول جناب الحق جَلَّ وعلا في الآية الكريمة:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج، ٤٦)

وتبين هذه الآية الكريمة أن التفكر في خلق اللّٰه سبحانه وتعالى وكائناته وحوادثه بأفئدة ناظرة معتبرة من العاقبة التي تجلت فيها قدرة الإنتقام الإلهي بالأمم السابقة، هي دروس تحيي القلوب وتشفي الأفئدة.

وكم هو جميل الأسلوب الذي يتحدث فيه نبينا الأكرم -عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم- عن أساليب المحافظة على القلوب من مختلف أنواع الأمراض فيه. يقول:

"...**أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ**" (البخاري، الإيمان، ٣٩)

ولقد تحدث العلماء عن أمراض القلوب بشكل عام تحت عنوانين رئيسيين هما الإعتقادي والأخلاقي. وبحسب ذلك، فإن الجنوح الإيماني مثل الإنكار والنفاق والشرك والجهل والشبهة هي جميعها تندرج ضمن «الأمراض العقائدية»؛ كما أن الأوصاف

الأخرى مثل حب الدنيا والحسد والكبر والرياء والبخل والخوف والتمايل نحو الذنوب واتباع الشهوة هي جميعها تندرج ضمن «الأمراض الأخلاقية».

والسبب الرئيسي في مرض القلب هو في أساسه الجهل وضعف الإعتقاد النابعين من تبعية الانسان لهوسه وهوى نفسه. أما زيادة المعصية، فهي السبب في تفاقم المرض وربما تؤدي إلى إغلاق القلب وختمه والعياذ باللّٰه. فالقلب المغلف بالأعمال والأفكار والأحاسيس المنفية، يصبح بحالة لا يمكنه من خلالها أن يرى الحقيقة، أو أن يراها ناقصة أو خاطئة إن تمكن من رؤيتها. وهذا الأمر هو ما يؤدي بهذا القلب إلى الشك في الحق والحقيقة وبالتالي إلى العمى عنها. وعندما يصاب القلب وهو موضع الإيمان بجرح كهذا، فإن الإيمان أيضاً سيصاب بضحول وضُمُور في القوة والشدة ويعجز بالتالي عن القيام بصالح الأعمال. فهذه القلوب هي إذن قلوب لا تتمكن من إظهار الاحترام والمحبة الضرورية للّه ورسوله، وهي بالتالي أيضاً لا تتمسك بالعبادة بشكل متين.

وكنتيجة؛ إن الأعمال التي تقوم بها القلوب الغافلة والمريضة، هي أعمال تفقد قيمتها عند الحق تعالى. فالقلوب ما لم تتمكن من الضياء بنور الحق فإنها ستعمى وتفقد الإحساس. وتصبح بالتالي عمياء عن ألف ألف نقش وروعة من روائع الأسرار الإلهية في الكائنات.

٣- القلوب الغافلة

من أهم الأمراض المعنوية التي تصيب القلب هي الغفلة. فالغفلة تحيط بالقلب بشكل يزحزحه عن الاتجاه المعنوي الإنساني. حيث تقول الآية الكريمة:

﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطا﴾ (الكهف، ٢٨)

وتبين آية أخرى تأثير الغفلة في ابتعاد القلب عن الذكر فتقول:

﴿اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (الأعراف، ٢٠٥)

ومع ازدياد الغفلة تزداد قساوة القلوب. فيبين اللّه تعالى الحالة المحزنة لهؤلاء فيقول: **﴿...فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾** (الزمر، ٢٢)

وتؤكد آية كريمة أخرى، أن ابتعاد الإنسان عن الذكر هو سبب سيجعله يقع في شرك الشيطان، وبالتالي فإنه سيفقد حسه الإنساني ليصبح لعبة بين يدي الشيطان. يقول اللّه تعالى:

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴾ (الأعراف، ٢٠٢)

والأعمال التي تقوم بها القلوب الغافلة هي أعمال لا تلاقي القبول عند الحق جَلَّ وعلا، وهي بالتالي أعمال ضائعة.

والقلوب التي تقع في هذا النوع من الأمراض هي قلوب بحاجة إلى العلاج بشكل مطلق، ومجبرة على الدخول في بحر العلم المعنوي. ومن الضروري جداً الإنتباه إلى بعض الأمور أثناء عملية العلاج هذه. ومن بين هذه الأمور:

أ- الطعام الحلال

إننا نتمكن من القيام بعباداتنا من خلال القوة والصلابة التي نجدها في أبداننا. ولهذا فإن الطعام الحلال يؤمن لبنيتنا الفوز والروحانية في حين أن الطعام المشبوه يعطينا القسوة. ويتحدث أحد مشايخ التصوف عن أمرين يؤثران في انكشاف الحياة القلبية فيقول:

«انتبهوا لما يدخل أفواهكم عند طعامكم، وانتبهوا لما يخرج من أفواهكم عند حديثكم، كونوا دقيقين في هذا الشأن!»

ويتحدث عبد القادر الجيلاني -قدس اللّه سره- عن أهمية اللقمة في تنقية القلب فيقول:

«أنظر بني! إن أكل الحرام يقتل القلب. هناك لقمة تضيء القلب؛ وهناك لقمة تخنقه في الظلام. كذلك الأمر هناك لقمة تشغلك بالدنيا؛ وهناك لقمة تشغلك بالعقبى. هناك لقمة تجعلك زاهداً في كلا الدارين، تتجه بقلبك في الدنيا والآخرة تجاه الخالق. والطعام الحرام يشغلك بالدنيا ويحبب إليك المعصية. الطعام

المباح يشغلك بالآخرة، ويحبب إليك الطاعات. والطعام الحلال يقرب فؤادك من المولى جَلَّ وعلا. وتأثير الطعام وكيفيته لا يتم التعرف إليها إلا عبر معرفة اللّٰه. ومعرفة اللّٰه موضعها في القلب، وليس في الكتب أو الدفاتر. فالمعرفة الإلهية هي إحسان من اللّٰه إلى القلب وليس من المخلوق. وهذا الأمر لا يتم إلا من خلال التصديق بالتوحيد الإلهي والعمل بالأحكام الإلهية.»

واثناء استخدام النعم الحلال أيضاً يجب علينا أن نستخدمها بتوازن بعيد عن الإسراف. تقول الآية الكريمة:

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا. إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ (الإسراء، ٢٦-٢٧)

وينبه الحديث الشريف بذلك بقوله:

"اِنَّ مِنَ السَّرَفِ أَنْ تَأْكُلَ كُلَّ مَا اشْتَهَيْتَ" (ابن ماجه، الأطعمة، ٥١)

أما إكرام الضيف، فهو من الأمور التي يوصى بها ولا تعتبر من الإسراف بشرط أن تكون هذه الضيافة من الحلال.

ب- قراءة القرآن الكريم بتفكر

قراءة القرآن الكريم بتفكر هي أن تفكر بأوامره ونواهيه، وأن تأخذ العبرة من القصص فيه. وبقدر ما تكون قلوبنا طاهرة نقية بقدر ما يؤثر فينا فيض القرآن الكريم. وتتحدث الآية الكريمة عن القرآن

الكريم بكونه شفاء للأمراض المعنوية التي تصيب القلب فتقول:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا﴾ (الإسراء، ٨٢)

عن أبي ذر رضي الله عنه قال:

قلت: «يا رسول اللّه، أوصني؟» قال:

"أوصيك بتقوى اللّه، فإنه رأس الأمر كله"

قلت:«يا رسول اللّه زدني؟» قال:

"عليك بتلاوة القرآن، وذكر اللّه تعالى، فإنه نور لك في الأرض وذكر لك في السماء..." (ابن حبان، الصحيح، ٢، ٧٨)

وفي حديث نبوي شريف آخر، يقول رسول اللّه صلى الله عليه وسلم:

"يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا" (أبو داود، الوتر، ٢٠)

ج- أداء العبادات بخشوع:

يتوجب على المرء تأدية عباداته في جو من الخشوع للّه عز وجل حيث يمكنه من تطهير قلبه من الأمراض. ولهذا يؤكد اللّه تعالى على رفضه للعبادة التي تتم خارج إطار الخشوع فيقول:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلوتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (الماعون، ٤-٥)

ويتحدث المفسر حمدي يازر ألمه لي لي في تفسير هذه الآية فيقول: "- إنهم الغافلون عن أهمية الصلاة الذين لا يؤدونها بجدية،

- لا يهتمون بأدائها أو عدمه،

- لا يهتمون لوقتها، فيؤخرون موعدها غير مهتمين بحلول أو مرور ساعتها،

- لا يتأثرون بترك الصلاك،

- وهم عندما يؤدون الصلاة فإنهم لا يؤدنونها خالصة للّه وإنما لأهداف دنيوية بحتة،

- وهم إن وجدوا في مجتمع من الناس صلوا وإن انفردوا بأنفسهم امتنعوا عن الصلاة. وإن صلوا فهم لا يصلون وكأنهم بين يدي اللّٰه خاشعين معظمين، بل صلوا صلاتهم مراءً" (الماللي محمد حمدي يازير، حق ديني قرآن ديلي، أستانبول، ١٩٣٥، جـ٩، ٦١٦٨)

وفي سورة المؤمنون يقول اللّه تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (المؤمنون، ١-٢)

وتتحدث آية كريمة أخرى عن كيفية الخشوع في الصلاة فتقول:

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلٰوةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ. الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة، ٤٥-٤٦)

ويعرف البعض الخشوع بأنه من أفعال القلب التي تختلط في ماهيتها مشاعر الخوف والقلق. أما البعض الآخر فيعرفه بأنه الابتعاد عن الحركات الغير ضرورية وأداء العبادة في جو من السكينة والسكون. وفي الحقيقة، إن الخشوع أصله في القلب وظاهره في البدن، فَهِي خليط يجمع بين الأمرين. فطرفه القلبي هو رؤية الضعف الذاتي أمام عظمة وجلالة رب العالمين، وإعطاء القلب إحساساً من الإحترام والتعظيم في جو كبير من الأدب يخفض فيه الإنسان رأسه ونفسه أمام الحق سبحانه. وجانبه الخارجي هو ظهور هذا الشعور القلبي على أعضاء الجسد فتسكن أدباً مع اللّٰه كأن تنظر العين إلى موضع السجدة في الصلاة لا إلى ما هو حولها.

وعند التدقيق في الآية الكريمة نجد أن اللّٰه تعالى استخدم قوله "إليه راجعون» وقوله «ملاقوا ربهم» عند التحدث عن شروط الخشوع في الصلاة وكلاهما من الحالات الروحية التي يجب على الإنسان الإحساس بها لتحقق هذا الخشوع. أي أن الصلاة يجب عليها أن تؤدى قلباً وقالباً. وهذا النوع من الصلاة هو النوع الذي يمكن الإنسان من النجاة من الفحشاء والمنكر.

سئل بهاء الدين النقشبند -قدس اللّٰه سره-:

كيف يخشع العبد في الصلاة؟ فأجاب: «يمكنه ذلك عبر أربعة أمور: -اللقمة الحلال - الإبتعاد عن الغفلات أثناء الوضوء - أن يعرف المرء نفسه أنه في الحضرة الإلهية عند ابتدائه التكبيرة الأولى- أن لا ينسى جناب الحق تعالى أبداً وهو خارج الصلاة»

علماً أن الآية الكريمة تقول:

﴿اَلَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلوتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (المعارج، ٢٣)

ولكي يتمكن الإنسان من الخشوع في عباداته وأن يشعر خارج عبادته وكأنه قائم في صلاته في روحه المعنوية وحالته الروحية، فإن عليه أن يتمتع بقلب صاح يصاحبه قول وعمل بعيد بشكل كبير عن اللغو والفضول. تقول الآية الكريمة:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون، ٣)

وباقي العبادات هي أيضاً كذلك. وفي هذا المعنى يقول جناب الحق تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾
(المؤمنون، ٦٠)

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة، ١٠٤)

وفي هذه الأية، يعلمنا اللّه تعالى أن الصدقة أي الإنفاق هي في أدائها كالصلاة تماماً بشكل يتوجب علينا القيام بها بكل خشوع بعيداً عن الرياء. وهذه الدقة تحدث عنها الحديث النبوي الشريف حين قال عليه الصلاة والسلام:

"..حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ.." (البخاري، الأذان، ٣٦)

د- الإستمرار في ذكر اللّٰه

تكررت كلمة «الذكر» في القرآن الكريم في حوالي ٢٥٠ موضعاً مختلفاً. والذكر هو تذكر العبد لربه بكثرة وأن لا ينساه. ولهذا يأمرنا اللّٰه تعالى عبر الآيات الكريمة بأن نذكره في الصباح وفي المساء، وقوفاً وقعوداً ومضطجعين، أي بشكل مستمر نذكره فيها ذكراً كثيراً. وفي بعض هذه الآيات الكريمة يقول اللّه تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً. وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الأحزاب، ٤١-٤٢)

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ (آل عمران، ١٩١)

أما رسول اللّٰه ﷺ يبشر، ال **"رَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ"** أنه سيظله عرش الرحمن يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله.[1]

وللذكر أهمية كبرى في تنقية القلب والرقي به من الناحية المعنوية. وسيعلم المؤمنون أهمية الذكر بشكل أكبر يوم القيامة. وبخاصة أن رسول اللّٰه ﷺ أخبر عن أهل الجنة فقال:

"لَيْسَ يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَّا عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ لَمْ يَذْكُرُوا اللّٰهَ فِيهَا" (الهيثمي، جـ١٠، ٧٣-٧٤)

١ أنظر: البخاري، الأذان، ٣٦ ؛ مسلم، الزكاة ٩١

هـ- إحياء الليل:

إن الليل هو لباس النعمة والراحة الذي فصل بحسب خطوط الحياة واستمراريتها. وهي غطاء رائع لكل من أراد أن يستتر مادياً أو معنوياً. وهذا الوصف ذكره تعالى في سورة النبأ فقال:

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ (النبأ، ١٠)

بالفعل، إن الليل هو لباس صحي واجتماعي وأخلاقي وجسدي. فلا يمكن للإنسان أن يضع عنه أثقال النهار المادية والمعنوية أو أن يعود إلى ذاته ونفسه إلا من خلال سكون الليل وهدوئه. لأن النهار هو بعيد عن تقديم ما يقدمه الليل من راحة صحية وروحية. ومن لا يدرك نعمة الليل لا يمكنه أبداً أن يستفيد من خير النهار. فاستخدام الليل بالأمور الفارغة واستثماره بها ليس إلا تضييعاً لسلامة الصباح وحقيقته.

ولا يوجد وقت أكبر فضلاً من سكون الليل لأهل القلوب. ولهذا يجب الإستفادة من بركة وفيض الليل بقيام جزء منه -وقت محدد-. وفي هذا الخصوص يقول اللّٰه تعالى:

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة، ١٦-١٧)

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ (الإنسان، ٢٦)

وللتمكن من رؤية مشاهد الليل الإلهي والمعنوي فإن مما لا بد منه هو استخدام هذا الليل لأهداف محددة واضحة.

﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾
(الذاريات، ١٧–١٨)

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ (الإسراء، ٧٩)

وفي هذه الآية الكريمة أصبحت صلاة التهجد فرضاً على رسولنا ﷺ وسنة لنا على أنّنا أُمّته من بعده. ويمتدح اللّه سبحانه وتعالى من يؤدي هذه السنة بقوله:

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ (الفرقان، ٦٤)

وفي آية كريمة أخرى يقول سبحانه وتعالى:

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ (الشعراء، ٢١٨–٢١٩)

وفي تفسير هذه الآية الكريمة يقول القاضي البيضاوي:

(بعد أن فرضت الصلوات الخمس على الأمة وأصبحت صلاة الليل هي من السنن المتبعة، وكما روي أنه عليه السلام لما نسخ قيام فرض الليل طاف عليه السلام تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعاتهم، فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع بها من دندنتهم بذكر الله وتلاوة القرآن) (أنوار التنزيل، جـ٤، ١١١)

و- مصاحبة الصالحين والصادقين

محافظة على القلب، وتأميناً لسلامته وانكشافه، يجب مصاحبة الصادقين والصالحين. فالقلب يتأثر معنوياً بمن هم حوله من الناس وبهذا الشكل تبدأ عملية نقل الشخصية. فمن هم أقوياء من الناحية الروحانية يؤثرون على الضعفاء روحانياً ويصبحون مصدر إلهام لهم. أي أن الشفقة والرحمة والاحساس المرهف والمزايا التي يتمتع بها الصادقون والصالحون تنتقل إلى من هم حولهم. وما يجعل الصحابة الكرام على ما كانوا عليه من الفضيلة في أعلى درجة بين أفراد الأمة هو أنهم عايشوا الرسول ﷺ وتأثروا بصحبته وحديثه، ونالوا من فيضه نصيبهم. يقول اللّٰه تعالى في الآية الكريمة:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ (التوبة، ١١٩)

ويخبر رسول اللّٰه ﷺ عن أهمية مصاحبة الصادقين فيقول:

"**مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**" (البخاري، البيوع، ٣٨)

كما يخبرنا رسول اللّٰه ﷺ أيضاً عن أهمية مرافقة الصالحين في الممات كما هي في الحياة فيقول:

"**ادفنوا موتاكم وسط قوم صالحين...**" (الديلمي، المسند، جـ١، ١٠٢)

ومن يكن مع الصالحين فإنه سيصلح حاله مع الزمن كل بحسب قابليته. ومن يكن مع الفاسقين فإنه سيفسق. لذلك، إن القلب هو تحت تأثير دائم لكل إقليم معنوي يتواجد فيه سلبياً كان أم إيجابياً. فالقلب ليس كسائر الأعضاء التي تمتلك إرادة خاصة بها، بل هو عضو لا إرادة له محكوم بالتبعية للتأثيرات التي تأتيه ويتلقنها من محيطه عبر المسار الذي يكون عليه.

ولهذا، فإن لقمان عندما أراد أن يتقدم بالنصح لابنه، عرج على الحس القلبي مؤكداً على ضرورة التواجد مع العلماء الصالحين.

قال رسول اللّه ﷺ:

"إِنَّ لُقْمَانَ قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، عَلَيْكَ بِمُجَالَسَةِ الْعُلَمَاءِ، وَاسْمَعْ كَلَامَ الْحُكَمَاءِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْقَلْبَ الْمَيِّتَ بِنُورِ الْحِكْمَةِ كَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ بِوَابِلِ الْمَطَرِ" (الهيثمي، ١، ١٢٥)

وكانت نساء الصحابة تنبه أولادها عند تأخرهم في رؤية رسول اللّه ﷺ وتقاعسهم في هذا الخصوص وبقاؤهم فترة طويلة دون اللقاء به. ولهذا نجد أن والدة حذيفة رضي الله عنه تؤنب ولدها عندما تأخر لبضعة أيام عن لقاء النبي ﷺ ولم يتواجد في صحبته.

عن حذيفة رضي الله عنه قال: سَأَلَتْنِي أُمِّي مَتَى عَهْدُكَ تَعْنِي بِالنَّبِيِّ ﷺ فَقُلْتُ مَا لِي بِهِ عَهْدٌ مُنْذُ كَذَا وَكَذَا، فَنَالَتْ مِنِّي، فَقُلْتُ لَهَا: دَعِينِي آتِي النَّبِيَّ ﷺ فَأُصَلِّيَ مَعَهُ الْمَغْرِبَ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِي وَلَكِ،

فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَصَلَّيْتُ مَعَهُ الْمَغْرِبَ فَصَلَّى حَتَّى صَلَّى العِشَاءَ، ثُمَّ انْفَتَلَ فَتَبِعْتُهُ، فَسَمِعَ صَوْتِي، فَقَالَ: **"مَنْ هَذَا، حُذَيْفَةُ؟"** قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: **"مَا حَاجَتُكَ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ وَلأُمِّكَ؟"** (الترمذي، المناقب، ٣٠، ٣٧٨١؛ أحمد، ٥، ٣٩١-٣٩٢)

٤- القلوب الذاكرة

في هذه المرتبة، يكون القلب مضيئاً بالذكر، وتتحكم الروحانية بالنفس، ويتحد جوهر الإيمان بجوهر القلب، ويتم الوصول إلى درجة الإطمِئنان الإيماني. ويصف اللَّه تعالى الذكر بأنه أكبر العبادات ويأمر المؤمنين بالإستمرار بالذكر في القرآن فيقول ﷻ:

﴿...وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ...﴾ (العنكبوت، ٤٥)

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ (المزمل، ٨)

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة، ١٥٢)

ويمتدح اللَّه تعالى عباده الذين وصلوا إلى حقيقة الذكر فيرونه أشد لذة من مختلف لذائذ الدنيا الفانية، ويخبر بأنهم لا يخدعون بزينة الحياة الدنيا وقلوبهم مطمئنة بالذكر، فيقول اللّه ﷻ:

﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ...﴾ (النور، ٣٧)

﴿...أَلاَ بِذِكْرِ اللَّه تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد، ٢٨)

كما يمتدح اللَّه تعالى المحافظين على الذكر من الرجال والنساء كل على حدة في الآية الكريمة فيقول:

﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾ (الأحزاب، ٣٥)

والمواظبة على ذكر اللَّه ﷻ تؤمن نمو بذور الحب في القلب، وتبعده عن العلاقات الفانية مالئة قلبه بحب اللَّه.

يقول رسول اللَّه ﷺ: **"علامة حبِّ اللَّه ﷻ حُبُّ ذِكْرِه"** (السيوطي، الجامع الصغير، جـ٢، ٥٢)

من هذا المنطلق، فإن البعيدين عن ذكر اللَّه هم مشمولون بالتهديد الإلهي لبعدهم عن حب اللَّه.[١]

وتتحدث الآية الكريمة عن خطر الإبتعاد عن الذكر فتقول:

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ. حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ (الزخرف، ٣٦-٣٨)

لهذا السبب، يجب على الإنسان أن يستعين دوماً بذكر اللَّه وأن يعمل لكي يكون صاحب أخلاق حميدة حفاظاً على نفسه من وساوس الشيطان التي ستوقعه في خنادق الضلالة وتبعده عن طريق

١ أنظر: سورة الزمر، آية ٢٢

الاستقامة. ولا يمتلك الانسان أخلاقه الحميدة والخصال الحسنة إلا عبر مخافة اللّٰه، ومحبته وذكره دائماً ذكراً كثيراً.

ويمتدح علي رضي الله عنه مجالس الذكر ويحث عليها فيقول:

"ما الذي يمكنه أن يكون أكثر فضلاً من المجالس التي تجتمع لذكر اللّٰه وتذكر نعمه؟ لقد كان رسول اللّٰه ﷺ يجمع الصحابة حلقات حلقات وكانوا يذكرون اللّٰه"

وكما يؤثر الذكر على المعنى (الأمور المعنوية)، فإنه يؤثر أيضاً على المادة. وفي تأكيد على هذا المعنى تقول الآية الكريمة:

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأنعام، ١١٨)

وللذكر أنواع متعددة. كما أنه لا يوجد تحديد لكيفية الذكر بأسلوب كذا أو كذلك. ولكل ذكر نوع من أنواع التجلي. ويأتي نوع الذكر الذي يناجى فيه باسم اللّٰه الأعظم بأعلى مرتبة من مراتب الذكر لما لديه من نتيجة متميزة رفيعة، وهو ما يعتبر عند العامة الاسم الأكثر استخداماً من أسماء اللّٰه بلفظ "اللّٰه". فهذا الاسم وكأنه يجمع في طياته مختلف معاني الأسماء الأخرى. ولهذا يشعر المرء عند التلفظ به بإحساس خاص مستثنى بكيفيته. فعلى سبيل المثال، عندما تقتطع الحرف الأول من لفظة اللّٰه "أ" (ألف) فإنها تصبح "للّٰه". وإذا ما اقتطعنا الحرف الثاني وهو "ل"(لام) فتصبح عندها "له". وعند اقتطاعنا الحرف الثالث وهو "ل" (لام) أيضاً

فإننا نحصل على "ه" (هو). وهي جميعها من الألفاظ التي تشير إلى الذات الإلهية للّه تعالى.

ويخبر أحد الأحاديث النبوية الشريفة أن استمرار الوجود بحد ذاته هو أمر قائم على استمرارية ذكر اللَّه تعالى. يقول رسول اللَّه ﷺ:

"لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض اللَّه اللَّه" (مسلم، الإيمان، ٢٣٤)

ولفظ الجلالة هو من أكثر أنواع الذكر التي يهتم بها أهل الذكر والمخلصين. وما دام هناك من العباد من يواظب على الذكر فإن الساعة لن تقوم. وبقدر ما لهؤلاء العباد من صفات متميزة في العبادة، فإن اللَّه ﷻ يحفظ الحياة الدنيا بهم. فهم أينما وجدوا في أي قرية أو مكان فإن اللَّه تعالى يحفظ بهم ذلك المكان.

وذكر كلمة التوحيد «لا إله إلا اللَّه» هي أيضاً من الأذكار التي تتالت الأحاديث الشريفة التي تحث عليها. ومن هذه الأحاديث ما ذكره رسول اللَّه ﷺ بقوله:

"**جددوا إيمانكم**" قيل: يا رسول اللَّه وكيف نجدد إيماننا، قال: "**أكثروا من ذكر لا إله إلا اللَّه**" (الحاكم، المستدرك، ٤، ٢٨٥/ ٧٦٥٧)

كما قال سليمان عليه السلام وهو الذي أعطي التحكم بسائر العالم:

«إن سلطنتي زائلة. أما السلطنة التي سيأتي بها ذكر التوحيد فهي أبدية...»، كما أن لذكر كلمة التوحيد بشكل جماعي في مجالس الذكر مكانة خاصة جداً. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

"إِنَّ لِلَّهِ مَلاَئِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ،

فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ " قَالَ: «فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا" (البخاري، الدعوات، ٦٦)

عَنِ الْأَغَرِّ أَبِي مُسْلِمٍ، أَنَّهُ قَالَ: أَشْهَدُ عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ" (مسلم، الذكر، ٩٣)

ففي الحديث الشريف الذي ذكره الصحابي الجليل شداد بن أوس رضي الله عنه يقول: كنا عند النبي ﷺ فقال: **"هل فيكم غريب؟"** يعني أهل الكتاب (اليهود والنصارى) قلنا: لا يا رسول اللَّه، فأمر بغلق الباب وقال: **"ارفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا اللَّه"**

ويكمل شداد بن أوس وصفه لهذا المجلس من الذكر فيقول: فرفعنا أيدينا ساعة ثم وضع ﷺ يده ثم قال:

"الحمد اللَّه اللَّهم إنك بعثتني بهذه الكلمة وأمرتني بها ووعدتني عليها الجنة وإنك لا تخلف الميعاد ثم قال: أبشروا فإن اللَّه قد غفر لكم" (أحمد بن حنبل، المسند، ٤، ١٢٤)

وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام:

"إِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةٌ عَلَى اللَّهِ كَرِيمَةٌ، لَهَا عِنْدَ اللَّهِ مَكَانٌ، وَهِيَ كَلِمَةٌ مَنْ قَالَهَا صَادِقًا أَدْخَلَهُ اللَّهُ بِهَا الْجَنَّةَ، وَمَنْ قَالَهَا كَاذِبًا حَقَنَتْ دَمَهُ وَأَحْرَزَتْ مَالَهُ، وَلَقِيَ اللَّهَ غَدًا فَحَاسَبَهُ" (الهيثمي، ١، ٢٦)

وفي حديث آخر يؤكد رسول اللّٰه ﷺ على ضرورة أن يكون الإنسان دائماً في حالة ذكر ومراقبة للشعور فيقول ﷺ:

"لا تكثروا الكلام بغير ذكر اللّٰه فإن كثرة الكلام بغير ذكر اللّٰه قسوة للقلب وإن أبعد الناس من اللّٰه القلب القاسي" (الترمذي، الزهد، ٦٢)

وذكر كلمة التوحيد مهم جداً ساعة الموت. **"مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ"** (أبو داود، الجنائز، ١٥-١٦/٣١١٦)

ولقد كان رسول اللّٰه ﷺ وفي سياق التعليم القلبي، يعلم أصحابه الكرام أنواع الذكر كل بحسب مقدرته.

عَنْ أُمِّ هَانِئٍ قَالَتْ: أَتَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ فَإِنِّي قَدْ كَبِرْتُ وَضَعُفْتُ وَبَدُنْتُ، فَقَالَ:

"كَبِّرِي اللَّهَ مِائَةَ مَرَّةٍ، وَاحْمَدِي اللَّهَ مِائَةَ مَرَّةٍ، وَسَبِّحِي اللَّهَ مِائَةَ مَرَّةٍ خَيْرٌ مِنْ مِائَةِ فَرَسٍ مُلْجَمٍ مُسْرَجٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَخَيْرٌ مِنْ مِائَةِ بَدَنَةٍ، وَخَيْرٌ مِنْ مِائَةِ رَقَبَةٍ" (ابن ماجه، الأدب،٥٦؛ أحمد بن حنبل، المسند،٤، ٣٤٤)

وكخلاصة، إن ذكر اللّٰه هو وسيلة الخروج من الظلام الداكن عبر التواصل مع اللّٰه جَلَّ وعلا من خلال محبة اللّٰه وإنارة الأفئدة بذكره. فبقدر ما نذكر اللّٰه تعالى في حياتنا الدنيا هذه بقدر ما سننال الرفعة عند اللّٰه في الحياة الآخرة. ولهذا فإن من واجبنا دائماً الإشارة إلى أهمية الذكر والتسبيح في ديننا. لأن من بركة الذكر أن يتحقق مفعوله في القلب، ولهذا فقد اهتم أولياء اللّٰه ﷻ بدستور **"اعتبر أن**

كل من تراه هو الخضر". لأن الأفئدة الممتلئة بالذكر، كل منها هو نافذة مفتوحة مع الحق سبحانه وتعالى بأنواع مختلفة من التجلي. وبالنتيجة، فإن الطرق المؤدية إلى اللَّه هي بأعداد أنفاس المخلوقات.

٥- القلوب الحية (القلب السليم):

وهذه القلوب هي قلوب الأنبياء وأولياء اللَّه. وتتجلى في هذه القلوب جزء من صفات اللَّه جَلَّ وعلا. فمن امتلك قلباً سليماً فهو ذلك الذي أكرمه اللَّه تعالى بالكمال المستخلص من الأخلاق المستمدة من القرآن الكريم ورسول اللَّه ﷺ.

يقوم نجم الدين كبري، الذي هو من الأولياء الأكثر شهرة في العصر الهجري الثامن، بزيارة جنازة لأحد الصالحين برفقة جمع من طلابه. وأثناء تلقين الميت كما هو المعتاد يبتسم الشيخ نجم الدين كبرى. ويتعجب طلابه لتبسم شيخهم في موقف كهذا الموقف فيسألونه عن حكمته في ذلك. ولكن فضيلة الشيخ يرفض بدايةً الإفصاح عن السبب. ولكنه وأمام إصرار طلبته يقول: «التلقين عادة ما يقوم به الحي للميت. أما ما حصل الآن فهو أن الملقن هو رجل بقلب غافل، ومن دخل إلى القبر هو صاحب قلب ينبض بالحياة. فلهذا تعجبت من رجل بقلب غافل يلقن من قلبه نابض بالحياة»

إن القلوب التي هي في حالة ذكر للّه تعالى، هي قلوب تدخل في حمايته وحفظه. ولذلك، فإن القلب يبدأ حينها باتخاذ طريقه نحو عالم الأسرار الإلهية. فتظهر لهذا القلب أسرار العالم الإلهي

وحقيقة الأشياء وأسرار الكائنات والإنسان. ويصبح العبد ظاهراً بتجلي القلب السليم. يقول اللّٰه تعالى: ﴿**وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ**﴾ (سبأ، ٣٧)

وفي آية جليلة أخرى يقول تعالى: ﴿**يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ. إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ (الشعراء، ٨٨-٨٩)

إذن، إن التقرب من اللّٰه ﷻ لا بد له من قلب طاهر وصل إلى مرتبة السلامة. وهذه الحقيقة هي مهمة في مختلف العبادات. ولهذا فإن الآية الكريمة تتحدث عن عبادة التقرب للّٰه بالقربان في عيد الأضحى فتقول:﴿**لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ...**﴾ (الحج، ٣٧)

إن الخزائن الألهية وأسرارها قد قدمت إلى الإنسان. وتجلت إرادة اللّٰه جَلَّ وعلا عندما أراد أن يعرّف الإنسان بقدسية ماهيته. ولهذا فإن الإنسان عندما يعقل ويدرك شرفه وصفاته وكرمه فإنه يصبح بذلك إنساناً بالمعنى الحقيقي للكلمة. والموت على الإيمان، والوصول إلى طريق الصفاء والنشوة الإلهية، لا بد لها وأن تمر عبر قلب سليم حي يعمر بالإحسان ويعيش به.

أسأل اللّٰه تعالى أن يذيقنا قبل الموت قلباً كهذا القلب الذي يمكننا من مقابلة وجهه الكريم به! آمين...!


حضرة نوح
عليه السلام

الذي تطهرت الدنيا من الكفر بطوفانه

حضرة سيدنا نوح

عليه السلام

إنَّ نوحاً عليه السلام هو نبيُّ اللَّه عز وجل الذي يحتل مكاناً واسعاً له في القرآن الكريم وأحاديث رسول اللَّه ﷺ الشريفة. وهو من الأنبياء أولي العزم.[١] وذكر اسمه في القرآن لأسباب متعددة في ٤٣ موضعاً مختلفاً. وتحمل السورة ٧١ ذات الآيات ٢٨ اسمه. ويعتبر "الأب الثاني" للبشرية بسبب الطوفان الشهير.

بعد أن رفع إدريس عليه السلام إلى السماء ابتعد الناس من جديد عن الحقيقة وبدؤا بعبادة الوثنية والأصنام. ولهذا أرسل اللَّه نبيه نوحاً عليه السلام إلى قومه.

واسمه الأصلي هو "يشكر"، وقيل بأنه "ساكن" أو "عبد الغفار". ولقبه "نجي اللَّه" أي الذي أنقذه اللَّه و"شيخ الأنبياء" أي الأطول عمراً بينهم.

١ الأنبياء أولو العزم: هم الأنبياء ذو الدرجات العُلى وهم: سيدنا محمد ﷺ وإبراهيم وموسى وعيسى وآدم ونوح عليهم السلام.

بعد أن رفع إدريس عليه السلام إلى السماء ابتدأ أتباعه ود وسواع ويعوق ونسر بإحياء الدين والدعوة إليه واحتلوا موقعاً علياً لهم بين الناس. وبعد وفاتهم، قام الناس بوسوسة من الشيطان بصناعة هياكل تجسمهم تكريماً لهم. ومع الزمن تحول الناس إلى عبادة هذه الإصنام. وبدؤا يعتقدون بأن لهذه الهياكل قدرة إلهية.

عن ابن عباس رضي الله عنه يقول:

«صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع. أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم **عبدت**» (البخاري، التفسير، ٧١/ ١)

ويذكر أنه كان في منطقة الكوفة قوم لا يعبدون الأصنام فيها تابعوا إيمانهم بالتوحيد الإلهي بعيداً عن الوثنية. وكان نوح عليه السلام من أبناء هذا القوم.

وكان نوح عليه السلام في بعض الأحيان يعمل راعياً وفي أحيان أخرى يهتم بالتجارة. وكان على رأس قومه رجل ظالم من نسل قابيل يُدعى درمسيل. وكان لكل قبيلة منهم صنم مختلف. ولكل

صنم خادمه الخاص. وكان نوح عليه السلام يجد ذلك الأمر مضحكاً. وكانت عبودية الأصنام وسوء الأخلاق قد وصلت إلى حدها الأقصى في تلك الفترة.

خصائص قوم نوح عليه السلام:

١- كانوا من عبدة الأصنام

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه الخاصية فيهم فقال:

﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ (نوح، ٢٣)

إن الأصنام وعبدتها كانوا على مدى التاريخ الإنساني مصدراً للإبتعاد عن طريق الحق ودافعاً إلى الشذوذ. فكانت الهياكل التي تصنع بداية بهدف الإحترام والذكرى، تتحول مع الزمن لتصبح أصناماً تعبد.

إن عقيدة «أنتروبومورفيست» هي إعطاء الإله الذي يؤمن به الإنسان ويعبده أشكالاً مادية مختلفة وتصاوير مادية. وهذه العقيدة تؤدي إلى تأليه هذه الأشكال التمثيلية وعبادتها في النهاية. أما بالنسبة للديانات التوحيدية فإنها تتفق جميعاً على عبادة اللّه الواحد «المتعال»، أي الذي هو أعلى وأسمى من مختلف التصورات

والعوالم. وهذا الإيمان يبتعد بالإنسان من ذهنية المادة ويوجهه إلى المعاني المجردة. فيعمل على فهم الحقيقة المعنوية متخطياً النظرة المادية البحتة. ولكن الذهنية البشرية، عوضاً عن الوصول إلى هذه المرتبة، تهرب إلى السهل فتعمد إلى تجسيم الإله وتشبيهه، أي أنها تقع في خطأ تصور اللّٰه ضمن الأبعاد الدنيوية الخاصة به. وهو ما أدى دائماً إلى النزوح بالبشرية نحو الوثنية وعبادة الأصنام.

ولهذا عمد الدين الإسلامي بشكل رائع على تنقية هذا الميل الإنساني بأن حرم تصوير اللّٰه تعالى وتشبيهه بأي نوع من الأنواع أو الأشكال. ولهذا ومنعاً للإنسان من الوقوع في ضلالة الإتجاه إلى تعبد المجرد المشخص، حرم الإسلام الأصنام والرسوم. علماً أن للرسوم والهياكل ضرراً آخر وهو تحديد قدرة التخيل وبالتالي إعاقة الإنسان عن إدراك واستيعاب المعاني التصورية العليا.

ولما كان رسول اللّٰه ﷺ يعتقد بأن الإكثار من زيارة القبور تُؤدي بالإنسان إلى الوثنية، قام بداية بمنع هذه الزيارات. ولكن، وبعد أن تعمقت فكرة التوحيد في النفوس، سمح ﵇ بذلك بقوله:

"نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا..." (مسلم، الجنائز، ١٠٦)

وقال عليه الصلاة والسلام:

"قَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ، فَقَدْ أُذِنَ لِمُحَمَّدٍ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّهِ، فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ" (الترمذي، الجنائز، ٦٠، ١٠٥٤)

إذن، إن زيارة القبور قد أوصى بها تذكيراً بالموت، وهدية من الأحياء إلى الموتى، أي لقراءة القرآن لهم والدعاء لهم، وتفكراً بالآخرة.

أما الأدعية والطلبات التي يتقدم بها الناس في حضرة قبور الأولياء والصالحين فإنها ولو كانت بشفاعتهم ومحبتهم إلا أنها يجب أن تطلب مباشرة من اللَّه تعالى. لأن طلبها من العبد يؤدي إلى الشرك. وهو ما حصل بالفعل لقوم نوح عليه السلام.

إن اللَّه جل جلاله لا يشبه أياً كان من المخلوقات، أي أنه بعيد في وصفه عن أي بعد أو شكل أو أي تصور من التصورات أو التوقعات البشرية.

يقول الشيخ الجليل الشبلي:

«عندما تحصرون أفكاركم وتعتقدون بأنكم قد توصلتم إلى تصور معين للذات الإلهية، إذا بهذه التصورات تعود إليكم. ذلك لأنها أفكار ابتدعتموها (أحدثتموها) وهي بالتالي مثلكم مخلوقة (مصنوعة)...»

فكان وكأن الشيخ الشبلي الجليل يريدنا في كلامه هذا أن نفرق بين القديم والمحدث، وأن الطريق الأمثل لمعرفة اللَّه عز وجل هي من خلال ما وصف لنا بها نفسه وبين لنا من خصائص، وأن لا طريق آخر لذلك. وبالتالي فإن ترك الإنسان للوحي المنزل ومحاولته تشخيص صورة اللَّه في نفسه، سيجره إلى نتائج سفلية محزنة.

ويعبر علماؤنا الأفاضل عن فكرة أن اللَّه تعالى هو فوق إدراك البشر وأبعد كثيراً عن التصورات بكلمات موجزة مختصرة فقالوا:

كُلُّ مَا خَطَرَ بِبَالِكَ وَاللَّهُ وَرَاءَ ذٰلِكَ

العقل محدث (أي مخلوق). ولهذا فإن من غير الممكن أبداً إدراك الحق سبحانه وتعالى عبر هذا المخلوق المحدث. ولكن نبي اللَّه موسى عليه السلام عندما كلمه اللَّه سبحانه وتعالى شعر بمتعة كبيرة من ذلك. فدفعته متعته هذه وجاذبيتها إلى طلب ما هو أبعد من ذلك فأراد رؤية الحق جَلَّ وعلا وألح عليه في ذلك. وقد روى القرآن الكريم تفاصيل هذا الأمر بقوله سبحانه و تعالى:

﴿...قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي...﴾ (الأعراف، ١٤٣)

إن رؤية اللَّه تعالى لن تكون إلا من نصيب أهل الجنة كل بحسب درجته ورفعته فيها.

٢- لقد كان قوم نوح ظالمين وطاغين إلى أبعد الحدود.
وتتحدث الآية القرآنية الكريمة عن طغيانهم وظلمهم فتقول:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ (النجم، ٥٢)

٣- كانوا فاسقين.

يقول اللَّه تعالى: **﴿... إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾** (الذاريات، ٤٦)

٤- كانوا مرتكبين للسيئات.

حيث تصف الآية الكريمة حالتهم هذه فتقول:

﴿...**إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ**...﴾ (الأنبياء، ٧٧)

٥- كانوا بدون وجدان.

حيث تصف الآية الكريمة قوم نوح الذين حرموا من أحاسيس الشفقة والرحمة فتقول:

﴿...**إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ**﴾ (الأعراف، ٦٤)

٦- كانوا عنيدين جداً.

فقد كان قوم نوح أناس تعودوا على الكفر والمحرمات، واعتمدوا على العناد في الدنيا كمبدأ لهم في الحياة. وهم قوم سيستمرون في عنادهم هذا في الآخرة أيضاً، فينكرون بجهلهم أن نبياً من اللّه قد أرسل إليهم.

يقول رسول اللّه ﷺ: "**يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى، هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ لاَ مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ، فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ، فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ" (الوَسَطُ العَدْلُ)**

ويكمل أبو سعيد الخدري روايته بهذه الإضافة فيقول:

وذلك قول اللّه تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾ (البقرة، ١٤٣) (البخاري، التفسير، ٢/ ١٣؛ الأنبياء، ٣)

وهكذا فإننا نرى من خلال هذه الآية الكريمة أنها تؤكد بشكل واضح أن محمداً ﷺ وأمته سيشهدون لباقي الأنبياء وأممهم.

نعم، لقد أرسل اللّه تعالى نوح عليه السلام بالفعل إلى هذا القوم الذين ضلوا عن الحقيقة. تقول الآية الكريمة:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (نوح، ١)

سنوات التبليغ الطويلة:

جاء جبريل عليه السلام إلى نوح عليه السلام وهو في الخمسين من عمره وأعلمه بنبوته وقال له: «اذهب إلى درمسيل وقومه! وبَلِّغْهم عقيدةَ التوحيدِ!»

وأعطى نوح عليه السلام عهده **(الميثاق)** بتبليغ عقيدة التوحيد حتى آخر يوم من حياته. يقول اللّه عز وجل:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (الأحزاب، ٧)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَن لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (هود، ٢٥ -٢٦)

في بداية الأمر، عمد نوح عليه السلام إلى القيام بوظيفته بشكل سري ومن ثم انتقل بدعوته إلى العلانية. وعلى الرغم من أنه كان في شبابه محبوباً من الجميع، إلا أن هذا الأمر تغير عندما ابتدأ بالتبليغ. ولم يتبعه من قومه إلا قليل.

ويصل إلى درمسيل ملك القوم أخبار نشاطات الدعوة التي يقوم بها نوح عليه السلام فيقول لمن حوله: "-ومن هو هذا؟" فيجيبون:

"على الرغم من أنه من قومنا إلا أنه لا يمتثل بأفعالنا... اسمه نوح بن لامك. وكان عاقلاً في البداية. ولكنه فقد عقله. وهو يقول بأنه نبي!" وعندما قالوا: "وهو يعارض عبادة الأصنام!" دعَا درمسيل نوحاً عليه السلام إليه وقال له مؤنباً: "يا حسرة عليك! أأنت تنكر آلهتنا؟"

كما كان الناس يسخرون من نوح عليه السلام لكون أتباعه جميعهم من الفقراء. فيقول الكافرون لنوح عليه السلام:

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ (الشعراء، ١١١)

هذه الأمة الجاهلة والظالمة، كانت تحتقر الفقراء والغرباء تكبراً. ولكن نوحاً ﷺ، وكما كان يدافع عن دعوته، كان يدافع أيضاً عن أتباع هذه الدعوة. فأجاب على اتهامات المنكرين بقوله:

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء، ١١٤)

﴿...إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ. وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (هود، ٢٩–٣٠)

وبعد وفاة درمسيل ينتقل الحكم من بعده إلى ولده نفلين. وكان هذا الأخير أشد ظلماً من أبيه. واستمر نوح ﷺ بدعوته في زمن نفلين أيضاً.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ: إِنَّ قَوْمَ نُوحٍ كَانُوا يَبْطِشُونَ بِهِ فَيَخْنُقُونَهُ حَتَّى يُغْشَى عَلَيْهِ، فَإِذَا أَفَاقَ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ! حَتَّى إِذَا تَمَادَوْا فِي مَعْصِيَتِهِمْ وَعَظُمَتْ مِنْهُمُ الْخَطِيئَةُ، وَتَطَاوَلَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ الشَّأْنُ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْبَلَاءُ، وَانْتَظَرَ النَّجْلَ بَعْدَ النَّجْلِ فَلَا يَأْتِي قَرْنٌ إِلَّا كَانَ أَخْبَثَ مِنَ الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ حَتَّى إِنْ كَانَ الْآخَرُ لَيَقُولَ: قَدْ كَانَ هَذَا مَعَ آبَائِنَا، وَأَجْدَادِنَا مَجْنُونًا لَا يَقْبَلُونَ مِنْهُ شَيْئًا، وَكَانَ يُضْرَبُ وَيُلَفُّ، وَيُلْقَى فِي بَيْتِهِ، يَرَوْنَ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ، فَإِذَا أَفَاقَ اغْتَسَلَ وَخَرَجَ إِلَيْهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ. (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١، ٦٣)

على الرغم من كل هذه الأذية كان نوح عليه السلام يصبر صبراً كبيراً. ولهذا، ومن لطف اللَّه عليه، كان جبريل عليه السلام يداوي جراحه بين الفينة والأخرى. ويقول المشركون له:

"عار عليك يا نوح! ألا ترجع حتى الآن عن دعوتك بعد كل ضربنا وسبابنا؟!" فيجيبهم نوح عليه السلام ناصحاً لهم:

"أنا لست بمجنون. أجدادكم الآن يتعذبون! ألا تعقلون!"

ويكمل نوح عليه السلام بقوله:

"إذا أعرضتم عن دعوتي، فلن تضروني بشيء!"

ذلك أن الإنسان يخاف من شيئين اثنين:

١. أذية الآخرين له

٢. أن تنقطع مصالحه

ولكن نوح عليه السلام يجيب على النوع الأول من الخوف بقوله لهم:

«أنا لا أخاف من أذاكم ! فأنا متوكل على ربي»

ويجيب على النوع الثاني من الخوف فيقول:

«أنا لا أريد منكم أجراً»

وهذا ما تتحدث عنه الآية القرآنية الكريمة حيث تقول:

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (الشعراء، ١٠٩-١١٠)

ولكن أحداً منهم لم يستمع إلى دعوته هذه. وما آمن معه إلا قليل من قومه. ومن أولاده آمن سام وحام ويافث. أما ابنه كنعان فلم يؤمن. وأهانه قومه وعذبوه طيلة فترة نبوته. فتحمل نوح عليه السلام أفعال قومه ٩٥٠ سنة كاملة. وبعد كل هذه السنين أخبر نوح ربه بعجزه وأن صبره على الأذى لن يأتي معهم بنتيجة.

على مدى التاريخ، كانت أهم الأسباب التي منعت الأمم من القبول برسالة التوحيد التي بشرهم بها أنبياؤُهم وبالتالي حرمانهم من الهداية هي بشكل رئيسي الأمور التالية:

١. في مختلف الديانات السماوية هناك إيمان "بالآخرة" التي ستكون مكاناً للمكافأة أو العقاب على الأعمال التي ترتكب في الدنيا. وهذا الأمر يمنع الأفراد من التحرك كما يشاؤون. فهم مجبرون على التحرك ضمن الأطر التي تنظمها نصوص هذا الدين.

ولهذا، كان الخبر الأول الذي أقلق عبدة الأصنام عند ظهور الإسلام هو خبر "الآخرة". وقالوا عنه "الخبر الكبير". وانزعجوا بشدة منه.

ولهذا تحدث القرآن الكريم عن هذا الانزعاج والضيق فقال:

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ. عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ. الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ (النبأ، ١-٣)

إن المجتمعات الوثنية تقوم على مبدأ أن يتحكم القوي بالضعيف وأن يستعبده وفقاً لرغباته النفسانية. فلا تجد قوانين تدافع عن حقوق الضعيف. وتتركز مصالح المجتمع جميعها في يد

الأقوياء. وهم يؤمنون بأنهم لن يحاسبوا في الآخرة على ما يرتكبون من أمور وأفعال. ولهذا فإن فكرة الإيمان بالآخرة في الأديان السماوية هي سبب كبير في انزعاجهم.

٢. تتميز الديانات السماوية بأسلوب عبادة منظم ومنضبط. وهذا الأمر غير موجود لدى الوثنيين. فالوثنيون يستخدمون الأصنام كمساعدين لهم بحسب مصالحهم. ويعتقدون بأنها ستؤمن لهم الحماية. ولهذا فهم لا يريدون أن تخر رقابهم فيتنازلوا عن رغباتهم النفسية أمام العبادات المنضبطة في الديانات السماوية.

٣. إن الأنبياء في الأديان السماوية يشكلون شخصيات نموذجية (أسوة حسنة) في مجتمعاتهم. أما في الوثنية، فلا وجود لمثال أو أسوة هكذا. فهم يتحركون وفقاً لرغباتهم النفسية. والنساء متعددات الأزواج هن أحد هذه الأمثلة في المجتمعات الجاهلية.

إن الإيمان لدى الإنسان فطرة. فإذا لم يصل الإنسان إلى الحق تعالى أو وجد أن الحق صعب مناله، اتجه إلى الباطل. فإذا بقي الإيمان في الشعور الباطني ولم يصل إلى مصدره الحقيقي، غلبه الكفر. أما إن تمكن الإيمان من الرقي إلى طريق الوحي الإلهي فإنه يتحول إلى الكمال، وبالتالي يصبح الإيمان حقيقة حاصلة.

٤. إن الوثنيين من الأقوياء والأغنياء ورجالات المجتمع الراقي عندهم، ينظرون إلى الأنبياء وأصحابهم الذين يعيشون في المجتمع حياة بسيطة أو عادية باستصغار بسبب ما يشعرون به

من كبر في نفوسهم. لأنهم يعتقدون أنهم إن أخذوا لهم صفاً مع الضعفاء فإن قيمتهم في المجتمع ستضعف ويفقدونها.

٥. ومن الأسباب التي تمنع هداية الوثنيين أيضاً الرغبات الدنيوية كالمال والملك والأولاد. وهو ما يجعلهم يقعون في الغفلة في خداع مؤلم للنفس يغلق قلوبهم عن الحق ويغلفها.

تقول الآية الكريمة:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران، ١٤)

ويسرد نوح عليه السلام النوايا السيئة لقومه عبدة الأوثان ويقول لهم متحدياً: **﴿... يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾** (يونس، ٧١)

من المؤكد أن كلمات نوح عليه السلام هذه إن هي إلا دليل على توكله العميق على ربه.

طلب القوم السيئي الطالع للعذاب:

لم يؤمن لنوح عليه السلام إلا من آمن معه في السنوات الأولى من دعوته فقط. إضافة لهذا، كانت الأذية والإهانات التي يتوجه بها

قومه إليه وإلى أصحابه قد وصلت إلى حدها الأكبر. بل لقد وصل بهم الحال إلى التجرء على طلب العذاب الإلهي:

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (هود، ٣٢)

وأمام هذا التحدي الذي ظهر من قومه بقولهم: "هيا أبعث علينا العذاب!" واستصغارهم للدعوة باعتبارها مجرد كذبة، عاد نوح ليبين لهم إرادة وقدرة اللّٰه تعالى فقال:

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ. وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (هود، ٣٣-٣٤)

ويخبر اللّٰه تعالى نوحاً بأنه لن يؤمن من قومه أحد ويخبره مواسياً: **﴿...لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾** (هود، ٣٦)

وأخيراً، وكنذير لبداية العقاب الإلهي عليهم، عاقب اللّٰه هذا القوم الذي لم يروض بأي شكل من الأشكال بأن منع عنهم المطر أربعين سنة كاملة. فتلفت حيواناتهم. ولم يولد لهم أطفال. فتوجهوا بعجز إلى نوح عليه السلام يسألونه. فقال لهم:

"عودوا عن شرككم؛ وسأدعو لكم!"

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾ (نوح، ١٠-١٢)

يقول مقاتل بن سليمان رحمة اللَّه عليه: "بعد نزول هذه الآيات، تصبح قراءة الإستغفار في أدعية الاستسقاء مشهورة"

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

"مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ، جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ" (أبو داود، الوتر، ٢٦، رقم: ١٥١٨)

ويكمل نوح عليه السلام نصيحته لقومه وتحذيره فيقول:

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا. أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا. وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا. ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا. وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا. لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ (نوح، ١٣-٢٠)

ولكن هذه الأمة الوثنية الحمقاء، لم تكن لتستمع إلى هذه النصائح الممتلئة بالحكمة. وهكذا:

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ

خَساراً. وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً. وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آَلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً. وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً﴾ (نوح، ٢١-٢٤)

ويشير أب إلى نوح عليه السلام ويقول لولده: " -أنظر، لا تؤمن لهذا!" فما كان من الولد إلا أن أخذ العصا من يد أبيه. وضرب نوحاً على رأسه فسال من رأسه الدم. فقال نوح حينها: "يا رب إن كنت تريد خيراً، فارزقهم الهداية! وإلا فالهمني الصبر إلى أن تحكم عليهم! لأنك أنت خير الحاكمين!" ولكن أذية القوم زادت كثيراً. ولم يبق ما يمكن فعله. وهكذا ما كان من نوح عليه السلام إلا أن دعا ربَّه:

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ (القمر، ١٠)

على الرغم من دعوة نوح سنوات طويلة إلا أنه لم يؤمن معه إلا القليل من قومه. وكان كل نسل يوصي أبناءه قبل موته بأن لا يؤمنوا لنوح وأن يتحالفوا ضده ويحاربوه. فكان الآباء يقولون لمن يبلغ من أبنائهم: "لا تؤمن بنوح ما دام على قيد الحياة" وفسدت فطرتهم بشكل كامل. والتفوا على الإيمان والحق يرفضونه. ولهذا السبب، قال نوح عليه السلام يشكو إلى ربه:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً.رَبِّ اغْفِرْ لِي

وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً﴾ (نوح، ٢٦-٢٨)

بعد هذا اللجوء، يأمر اللّه ﷻ نوحاً عليه السلام بصناعة سفينة:

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (هود، ٣٧)

وكانت هذه السفينة أيضاً سبباً جديداً لسخرية قوم نوح عليه السلام مما يفعل ويقول. تقول الآية الكريمة:

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ. فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (هود، ٣٨-٣٩)

وكان الناس الذين عميت قلوبهم عن الحق والحقيقة يأتون في الليل يريدون أن يحرقوا السفينة، وعندما لا يفلحون في ذلك يقولون: "هذا من سحرك!". فيعمدون حينها إلى تلويث السفينة. وبعد مدة من الزمن أصابهم مرض الجرب.

واضطروا إلى مسح أبدانهم بقذارتهم ليتمكنوا من الشفاء. وعلى الرغم من أن اللّه ﷻ قد حذرهم بهذه الأمور وأنواع العقاب، إلا أنهم لم يتنبهوا.

العذاب القادم: الطوفان:

لقد كانت السفينة التي أنشأءها نوح عليه السلام مع أصحابه ممن آمن له من قومه سفينة قوية من الأشخاب الصلبة التي تتحمل الشروط الصعبة. وتتحدث بعض الروايات على أنها كانت مؤلفة من طوابق ثلاثة تم إنشاؤها في فترة استغرقت من سنتين إلى أربع سنوات، وكانت تعمل على البخار الناتج من إشعال النار بداخلها.

وبحسب رواية ابن عباس رضي الله عنه فإن سفينة نوح ركب فيها من البشر ٨٠ شخصاً. ووضع التابوت الذي سلم من جبريل عليه السلام إلى نوح في هذه السفينة أيضاً، فكان متوسطاً في موقعه في السفينة بين النساء والرجال فيها.

تقول الآية الكريمة:

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (هود، ٤٠)

وكلمة "التنور" التي وردت في الآية الكريمة تعني في اللغة الفرن. ويمكن أن تحمل معاني أخرى أيضاً. ومن هذا المعنى انطلق بعض العلماء للقول بأن سفينة نوح عليه السلام كانت تعمل بالبخار الناتج من إشعال النار في موقد داخل هذه السفينة.

وتتحدث آية قرآنية كريمة أخرى في وصف من رَكِب في السفينة فتقول:

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (المؤمنون، ٢٧)

وركب الحيوانات في السفينة أيضاً. وبحسب إحدى الروايات فإن نوحاً عليه السلام لم يكن يريد أن يضع العقرب والحية مع الراكبين في السفينة. ولكنهما أعطياه عهدا فقالاً: "إنا لن نؤذي أحداً يذكر اسمك!". ولهذا ينصح البعض لمن يتعرض لخطر العقرب أو الحية أن يقرأ قوله تعالى: ﴿سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (الصافات، ٧٩)

بنية صافية سليمة، وأن اللّه تعالى سينقذه عند ذلك من خطرهما. وبعد أن ملأ نوح عليه السلام السفينة على النحو الذي أمره به ربه سبحانه وتعالى، بدأت إمارات الطوفان بالظهور الواحدة تلو الأخرى. ويتحدث القرآن الكريم مصوراً هذا الأمر بقوله تعالى:

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ (القمر، ١١-١٢)

وكان كنعان، وهو من أبناء نوح، من الذين رفضوا ركوب السفينة. وعلى الرغم من أن نوحاً عليه السلام حاول للمرة الأخيرة أن يقدم

له النصح إلا أنه لم يفلح في ذلك. وينقل القرآن الكريم تفاصيل الحديث الذي دار بين نوح وابنه فيقول جلَّ وعلا:

﴿... وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ. قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ...﴾ (هود، ٤٢-٤٣)

ولما لم يوفق نوح بنتيجة مع ابنه بعد هذه الكلمات، توجه إلى ربه مناجياً وراجياً يقول:

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (هود، ٤٥)

وكان دعاء نوح لابنه بعد أن دعا على قومه الزلة التي قام بها نوح في حياته. ذلك أن اللّه تعالى نهاه عن الدعاء للظالمين. ولهذا، وبعد هذه الزلة التي قام بها نوح عليه السلام، ناداه ربه يحذره أن يكون من الجاهلين فقال له تعالى منبهاً واعظاً:

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (هود، ٤٦-٤٧)

وتقول إحدى الروايات أن نوحاً عليه السلام بكى بكاءً شديداً من هذه الزلة التي قام بها، وهو الأمر الذي كان سبباً في تسميته بهذا الاسم: نوح. واستغفر نوح ربه أمام ما قام به من زلة. ولكن ابنه لم يعد عن الكفر. وأخيراً:

﴿...وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (هود، ٤٣)

أما نوح عليه السلام ومن آمن معه وكل من ركب في السفينة من المخلوقات كانوا جميعاً في الحفظ الآلهي. فكانت السفينة تجري بهم كالجبال بين الأمواج. يقول اللّه تعالى:

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ...﴾ (هود، ٤٢)

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِر. وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ (القمر، ١٤-١٦)

انحسار الماء:

كان نوح عليه السلام في سلامة وأمن من خلال الدعاء الذي كان قد تعلمه قبل الركوب في السفينة الذي يخبر اللّه عز وجل عنه بقوله:

﴿....فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ (المؤمنون، ٢٨-٢٩)

وتقول الرواية بأن الطوفان بدأ في شهر رجب في اليوم الأول وأن السفينة بقيت ستة أشهر تبحر فوق الماء. ومن ثم أمر اللّٰه تعالى الأرض والسماء فقال:

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي...﴾ (هود، ٤٤)

وأمام هذا الأمر الإلهي، سحب الماء ورست السفينة في العاشر من شهر محرم على جبل الجودي. وينادي اللّٰه سبحانه وتعالى نوحاً عليه السلام فيقول:

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (هود، ٤٨)

وهكذا، نجا نوح عليه السلام ومن آمن معه. تقول الآية الكريمة:

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (الشعراء، ١١٩)

﴿...وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (يونس، ٧٣)

كوارث في الدنيا، وعذاب أليم في الآخرة...

ويتحدث اللّٰه عز وجل عن عاقبة الظالمين في الآية الكريمة فيقول:

﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ (نوح، ٢٥)

عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

"أَمَانٌ لِأُمَّتِي مِنَ الْغَرَقِ إِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ﴿وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الزمر، ٦٧) " بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ". (القرطبي، جـ٩، ٣٧)

وكان رسول اللَّه ﷺ إذا ركب على حيوانه بغرض الترحال أو السفر يكبر اللَّه تعالى ثلاثاً ويقول:

﴿... سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ. وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ (الزخرف، ١٣-١٤) ومن ثم يدعوا الدعاء التالي:

"اَللّٰهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى. اَللّٰهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هذَا وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ. اَللّٰهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ. اَللّٰهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالأَهْلِ"

وعند عودته من السفر كان رسول اللَّه ﷺ يردد نفس الدعاء مضيفاً إليه قوله: **"آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ"** (مسلم، الحج، ٤٢٥؛ أبو داود، الجهاد، ٧٢)

وبحسب العلماء فإن الطوفان كان شاملاً. أي أن مختلف أنحاء الأرض قد غمرت بالماء. وفي كتابه مرآت الكائنات يقول النيشانجي زاده محيي الدين محمد:

"عندما رست السفينة قام ثمانون إنساناً ببناء "مدينة الثمانين" ويقال لهذه المدينة أيضاً "سوق الثمانين".

وبدأ تكاثر البشر مرة أخرى من خلال هؤلاء الناس الثمانين. وكان ابن نوح الأكبر سام رجلاً ذكياً عاقلاً وصالحاً. ولهذا تسلم زمام الأمر بعد وفاة أبيه. ونال دعاء ورضى نوح. وأكثر الصالحين من الناس هم من نسله. كما أن العرب والفرس هم أيضاً من سلالته.

ويعتقد أيضاً بأن الأفارقة والحبش والهنود هم من نسل ابنه الآخر حام. أما الأتراك والروس والسلاف فهم من نسل يافث. ومن سلالته أيضاً الآسيويون والهنود الحمر الذين يعتقد بأنهم عبروا بحر بيرينغ إلى القارة الأميركية ليكونوا كما قيل عنهم سكانها الأصليين.

ولكن، ومع مرور الزمن ضاعت الحقيقة مرة أخرى. وعاد الناس إلى عبادة النجوم والشمس والأصنام.

وبحسب رواية المفسر فخر الدين الرازي، فإن ما كان في القرآن الكريم من سرد لقصة نوح عليه السلام هو لمواساة النبي محمد ﷺ وإعطائه أجمل مثال للصبر والعزيمة التي استمر بها نوح عليه السلام أكثر من ٩٥٠ عاماً متتالية متحملاً وصابراً على أذى قومه.

يوم عاشوراء:

بعد أن رست السفينة على جبل الجودي في اليوم العاشر من شهر محرم في اليوم الذي يعرف باسم يوم عاشوراء، صام نوح عليه السلام ومن آمن معه من المؤمنين هذا اليوم شكراً لله تعالى. وصنعوا مما بقي من المؤنة ما يعرف بطعام عاشوراء. ولهذا، فإن من السنة في يوم عاشوراء أن يصوم الناس ويتقربوا لله بالصدقات.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم:

"**أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر اللَّه المحرم**" (مسلم، الصيام، ٢٠٢)

ويروي علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

يأتي رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله: يا رسول اللَّه، أي شهر تأمرني أن أصوم بعد شهر رمضان ؟

فيجيبه عليه الصلاة والسلام بقوله:

"**إِنْ كُنْتَ صَائِمًا بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ فَصُمُ الْمُحَرَّمَ، فَإِنَّهُ شَهْرُ اللَّهِ، فِيهِ يَوْمٌ تَابَ فِيهِ عَلَى قَوْمٍ، وَيَتُوبُ فِيهِ عَلَى قَوْمٍ آخَرِينَ**" (الترمذي، الصوم، ٤٠/ ٧٤١)

وذلك اليوم هو يوم عاشوراء، وأولئك القوم هم قوم موسى عليه السلام من بني إسرائيل.

ومن هذا المبدأ نرى أن اليهود أيضاً يحتفلون بيوم عاشوراء ويجعلونه عيداً لهم. وتعودوا أن يتزينوا رجالاً ونساءً في هذا اليوم.

ومع ما فيه، وبناءً على صيام موسى عليه السلام شكراً لله في ذلك اليوم أيضاً، فإننا نجد أن بعض اليهود يصومون يوم عاشوراء تماشياً بما قام به نبيهم موسى عليه السلام.

ويروى عن **فضائل هذا اليوم** أن اللَّه تعالى:

-تاب على آدم عليه السلام في هذا اليوم وأعلنه «صفي اللَّه»،

-رفع إدريس عليه السلام إليه في هذا اليوم،

-أخرج نوح عليه السلام وقومه من السفينة في هذا اليوم،

-أنقذ إبراهيم عليه السلام من النار في هذا اليوم،

-أنزل التوراة على موسى عليه السلام في هذا اليوم،

-خلص يوسف عليه السلام من السجن في هذا اليوم،

-أعاد إلى يعقوب عليه السلام بصره في هذا اليوم،

-شفى أيوب عليه السلام من مرضه في هذا اليوم،

-أنقذ يونس عليه السلام من بطن الحوت في هذا اليوم،

-فلق البحر الأحمر لبني إسرائيل في هذا اليوم وأوصلهم إلى بر السلامة فيه،

-غفر لداوود عليه السلام في هذا اليوم،

-أعطى الملك والسلطنة لسليمان عليه السلام في هذا اليوم،

-غفر لنبينا محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم ما تقدم من ذنبه وما تأخر في هذا اليوم.

عَن ابْنِ عَبَّاس رضي الله عنهما، قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ فَرَأَى اليَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ:

"مَا هَذَا؟"،

قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ هَذَا يَوْمٌ نَجَّى اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَصَامَهُ مُوسَى، قَالَ:

"**فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ**" ، فَصَامَهُ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ (البخاري، الصوم، ٦٩)

وفي حديث آخر، وحرصاً من رسول اللَّه ﷺ على عدم التشبه باليهود، أمر رسول اللَّه ﷺ بصيام التاسع والعاشر أو العاشر والحادي عشر من محرم في يومين على الأقل. وهذا الحديث إن دل على شيء فإنه يدل على ضرورة مخالفة غير المسلمين حتى في العبادة.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت:

«كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان رسول اللَّه ﷺ يصومه» (البخاري، الصوم، ٦٩، مناقب الأنصار، ٢٦، تفسير ٢/ ٢٤)

وبعد انتقاله إلى المدينة استمر رسول اللَّه ﷺ ومن شاء بصيام يوم عاشوراء. ولكن، وبعد أن فرض اللَّه تعالى صيام شهر رمضان المبارك، أصبح صوم يوم عاشوراء من النوافل من شاء صامه ومن شاء أفطره. ويمكن من خلال الأحاديث التي يرويها البخاري ومسلم التبين أن صيام يوم عاشوراء قبل أن يفرض صيام شهر رمضان كان صوماً واجباً.

وتكمل عائشة رضي الله عنها حديثها فتقول:

"فلما قدم المدينة صامه، وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان ترك يوم عاشوراء، فمن شاء صامه، ومن شاء تركه" (البخاري، الصوم، ٦٩؛ مسلم، الصيام، ١١٥)

وحول عاشوراء وفضل الصيام فيه أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنْ أَسْلَمَ:

"أَنْ أَذِّنْ فِي النَّاسِ: أَنَّ مَنْ كَانَ أَكَلَ فَلْيَصُمْ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ أَكَلَ فَلْيَصُمْ، فَإِنَّ الْيَوْمَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ" (البخاري، الصوم، ٦٩)

الأسباب الرئيسية لهلاك قوم نوح:

١. كفرهم. وإنكارهم لأنبيائهم والحشر والنشر.

٢. عبادتهم للأصنام ودعوتهم إلى الشرك.

٣. استصغارهم لنوح عليه السلام، ومعصيتهم وأذيتهم له.

٤. تكبرهم؛ ويظهر ذلك عبر مخاطبتهم للفقراء بكلمة «أراذلنا». واستصغارهم لأهل الحكمة. وبالفعل، يأتي استكبار الأقوام على فقرائهم ورفضهم الجلوس معهم في نفس الخانة على رأس الأسباب التي أدت إلى هلاكهم.

٥. لم يكن لدى نسائهم الأدب والحياء والعفة.

٦. إدمانهم على ملذات الدنيا.

٧. عدم شكرهم. علماً أن اللَّه تعالى أمر عباده بالشكر على نعمه وتركهم للجحود. ويصنف سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أهل الشكر والصبر قائلاً:

"خصلتان من كانتا فيه كتبه اللَّه شاكرا صابرا ومن لم تكونا فيه لم يكتبه اللَّه شاكرا ولا صابرا من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به ونظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد اللَّه على ما فضله به عليه كتبه اللَّه شاكرا صابرا ومن نظر في دينه إلى من هو دونه ونظر في دنياه إلى من هو فوقه فأسف على ما فاته منه لم يكتبه اللَّه شاكرا ولا صابراً" (الترمذي، القيامة، ٥٨)

لقد كان نوح عليه السلام عبداً كثير الشكر. ولهذا تحدث اللَّه عن صفته هذه لتكون مثالاً لكل البشرية أمام النعم الإلهية فقال اللّه تعالى: ﴿...**إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا**﴾ (الإسراء، ٣)

لقد كان نوح عليه السلام في حالة شكر دائم لله عز وجل

مُحَمَّدَ بْنَ كَعْبٍ الْقُرَظِيَّ يَقُولُ:

«إِنَّ نُوحًا عليه السلام كَانَ إِذَا أَكَلَ قَالَ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَإِذَا شَرِبَ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَإِذَا لَبِسَ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَإِذَا رَكِبَ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ فَسَمَّاهُ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا» (ابن حنبل، الزهد، ص ٥٠)

إن الشكر هو العبادة الخالصة من العبد لربه يؤديها بمختلف تصرفاته وأقواله على ما أنعم اللَّه به عليه من خيرات ونعم. أي أن الشكر هو أن تعرف صاحب النعمة الحقيقي.

يقول السرّي السّقطي -قدس اللّه سره-:

«إذا اكتسب أحدهم نعمة ولم يُوفِ شكرها حرم من هذه النعمة!»

وتصديقاً لهذا القول يؤكد اللّه تعالى على هذا المعنى بقوله:

﴿...لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم، ٧)

من أوصاف نوح عليه السلام:

١. كان من أهل الخدمة.

٢. ركوبه البحر واستفادته من البحر.

٣. كان عبداً شاكراً وصابراً.

٤. كان كثير الاستغفار.

لقد استمرت نبوة نوح عليه السلام تسعمائةٍ وخمسين سنةً ومن ثم وكغيره من البشر، سلم هذا النبي العظيم روحه لربه.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ:

"إِنَّ نَبِيَّ اللهِ نُوحًا عليه السلام لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِابْنِهِ: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ: آمُرُكَ بِاثْنَتَيْنِ، وَأَنْهَاكَ عَنِ اثْنَتَيْنِ، آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ، لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ، رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ، كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً، قَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فَإِنَّهَا صَلَاةُ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ

الْخَلْقُ، وَأَنْهَاكَ عَنِ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ" (أحمد، ٢، ٠٧١) فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَلْقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَلَيْسَ فِي قَلْبِكَ شَيْءٌ مِنْ شِرْكٍ، وَلَا كِبْرٍ فَافْعَلْ"

(أحمد، الزهد، ص. ٥٤)

حَدَّثَنَا مُوسَى يَعْنِي ابْنَ عَلِيٍّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: بَلَغَنِي أَنَّ نُوحًا عليه السلام قَالَ لِابْنِهِ سَام:

«يَا بُنَيَّ، لَا تَدْخُلَنَّ الْقَبْرَ وَفِي قَلْبِكَ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الشِّرْكِ بِاللَّهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَأْتِ اللَّهَ مُشْرِكًا فَلَا حُجَّةَ لَهُ، وَيَا بُنَيَّ، لَا تَدْخُلَنَّ الْقَبْرَ وَفِي قَلْبِكَ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الْكِبْرِ؛ فَإِنَّ الْكِبْرِيَاءَ رِدَاءُ اللَّهِ عز وجل، فَمَنْ يُنَازِعِ اللَّهَ رِدَاءَهُ يَغْضَبْ عَلَيْهِ، وَيَا بُنَيَّ، لَا تَدْخُلَنَّ الْقَبْرَ وَفِي قَلْبِكَ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الْقَنَطِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِلَّا ضَالٌّ» (أحمد، الزهد، ص. ٦٤)

وَلَمَّا حَضَرَتْ نُوحًا الْوَفَاةُ قِيلَ لَهُ: كَيْفَ رَأَيْتَ الدُّنْيَا؟ قَالَ: كَبَيْتٍ لَهُ بَابَانِ دَخَلْتُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَخَرَجْتُ مِنَ الْآخَرِ. وَأَوْصَى إِلَى ابْنِهِ سَام، وَكَانَ أَكْبَرَ وَلَدِهِ. (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١، ٦٧)

بَنَى نُوحٌ عليه السلام بَيْتًا مِنْ قَصَبٍ فَقِيلَ لَهُ: لَوْ بَنَيْتُ غَيْرَ هَذَا فَقَالَ: «هَذَا لِمَنْ يَمُوتُ كَثِيرٌ» (أبو نعيم، الحلية، جـ٨، ١٤٥)

ومع نوح الذي تحمل عذاب قومه وكفرهم وشركهم وظلمهم تسعمائةٍ وخمسين سنةً كاملة، فإنه أصبح خير مثال لمن أتى بعده من الأنبياء والأمم بما أظهره من مشهد رائع في التحمل. وهكذا، فإن أجمل ميراث تركه نبي اللَّه نوح عليه والسلام هو «الصبر». عليه السلام...



الخزر
شمال
شرق
غرب
جنوب
أرزوروم
أرمينيا
ديار بكر
دجلة
حلب
اللاذقية
الموصل
نينوى
نهر الخابور
البحر الأبيض
فرات
العراق
همدان
نهواد
دمشق
ديار فارس
بغداد
بابل
أور
إيلات
الجزيرة العربية
البحرين

الصبر:

الصبر هو المحافظة على الإعتدال، والقدرة على التحمل، ومقاومة الألم، وسعة الصدر، ومقاومة الأزمات والمشقات بهدوء ورويَّةٍ، والثبات في طريق العقل والدين. وموقع الصبر مهم جداً في ديننا لأنه يجمع في طياته كافة الأخلاق الحميدة. فالصبر هو الوصف الأخلاقي الذي يؤمن المرضاة الإلهية.

وبحسب الدين والأخلاق، فإن الصبر هو التسليم للخالق والهدوء أمام الحوادث والمشقات وكل ما لا يعجب المرء، دون الخروج عن الموازنة المطلوبة.

ويتحدث الإمام النووي بهذا الشأن فيقول:

"الصبر هو إجبار النفس على فعل ما أمرت به. وهو ما يتحقّق بتحمل مشقة العبادة، والبلاء وكل ما عدا المعصية"

ولكي نصبر أمام الحوادث المختلفة، يجب علينا أن نستخدم الصفات الروحانية من المزايا الأخلاقية كالعفو والحلم والتواضع والعفة والقناعة والرحمة والشفقة والإحترام والمسامحة.

والصبر هو نواة الأخلاق الحميدة. وهو نصف الإيمان ومفتاح الرفاهية والسعادة. وهو فضيلة كبرى توصل إلى نعم الجنة. ولهذا فإننا نجد أن الرسل جميعهم ومعهم الأنبياء والأولياء والعلماء

اتخذوا الصبر وظيفة لهم لما فيه في كافة أنواع الخير والربح العظيم.

ويتحدث القرآن الكريم عن الصبر في أكثر من سبعين موقعاً مختلفاً. وتوصي مختلف هذه الآيات الكريمة نبينا ورسولنا ﷺ وأمته كافة بالصبر. ومن هذه الآيات قوله ﷻ:

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (النحل، ١٢٧)

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (الطور، ٤٨)

﴿...وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ...﴾ (يونس، ١٠٩)

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾ (الكهف، ٢٨)

وحياة الرسل والأنبياء مليئة بنماذج الصبر الرائعة أمام ما تعرضوا إليه من أزمات خلال دعوتهم إلى التوحيد. لقد صبر نوح عليه السلام تسعمائةٍ وخمسين عاماً أمام مختلف أنواع الضرب والإستهزاء. كما أوصى موسى قومه من بني إسرائيل بالصبر فقال:

﴿...اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا...﴾ (الأعراف، ١٢٨)

وصبر أيوب عليه السلام أيضاً أمام كل ما تعرض له من ابتلاءات ومصائب بشكل جعل اللّه تعالى يصف صبره في القرآن الكريم فيقول: ﴿...إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص، ٤٤)

وتتحدث الآية الكريمة عن وصية لقمان عليه السلام لولده فيقول الحق عز وجل:

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان، ١٧)

كما صبر سيدنا محمد ﷺ كثيراً أمام الظلم والإهانة وبخاصة تلك التي كانت من أهل مكة والطائف إلى أن شرف اللَّه هؤلاء الناس بالإيمان.

ومن خلال الصبر نال الأنبياء والأولياء العون من اللَّه. ولهذا يجب عليهم أن يكونوا شخصيات نموذجية نتخذ منهم أمثلة في حياتنا. وطرف الصبر في الدنيا مؤلم وطرفه في الآخرة جميل جداً. ومن يعش آلام الصبر في الدنيا يَنَلْ رضى اللّه وجنته في الدولة الأبدية.

ونحن، يجب علينا أن نمنع النفس عما تطلبه وتشتهيه من المحرمات. بل، ومهما كان ذلك صعباً وثقيلاً، نحن مكلفون بالصبر والتحمل. ونحن مجبرون على الصبر والوفاء بأوامر اللَّه تعالى مهما تغيرت صعوبة هذه الأوامر.

يخبر رسول اللَّه ﷺ عن أنواع الصبر وفضائله فيقول:

"الصبر ثلاثة: فصبر على المعصية وَصَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ وَصَبْرٌ عَنِ المَعْصِيَةِ فَمَنْ صَبَرَ عَلَى المُصِيبَةِ حَتَّى يَرُدَّهَا بِحُسْنِ عَزَائِهَا كتب

الله له ثلاثمائة درجة مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ وَمَنْ صَبَرَ عَلَى الطَّاعَةِ كَتَبَ الله لَهُ ستمائة درجة ما بين الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ تُخُومِ الأَرْضِ إِلَى مُنْتَهَى الأَرَضِينَ السَّبْعِ وَمَنْ صَبَرَ عَنِ المَعْصِيَةِ كَتَبَ الله له تسعمائة درجة ما بين الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ تُخُومِ الأَرْضِ إِلَى مُنْتَهَى الْعَرْشِ مَرَّتَيْنِ" (السيوطي، الجامع الصغير، ٢، ٤٢؛ الديلمي، ٢، ٤١٦)

ومما لا شك فيه أن الإعتقاد بأن أوامر اللّٰه ﷻ ونواهيه هي مصدر للنعمة والحكمة والمكافأة الإلهية هو أمر يهون علينا الصبر. في كثير من الأحيان لا يكون في وسعنا إلا تحمل الكوارث الطبيعية وحملها فوق ظهورنا. واللّٰه تعالى هو علاج كل عجز. والشكوى والعويل والتذمر ليست إلا من الخسران فقط. ولهذا، فإن من التعقل أن نعتقد بوجوب الصبر أمام كل ما نتعرض له من حوادث فنلجأ إلى اللّٰه ونصبر، وأن نؤمن بأن كل شيء هو من عنده، وأن ندرك بأنه امتحان منه، وننتظر مكافأته.

ولا يمكن للإنسان في دنيا الإمتحان هذه أن يحصل على كل ما يريد. وأن نقول أمام ما لا تصل إليه "لعل فيه خيراً» أو «عدم حصوله خير لنا» هو أجمل ما يليق بالعبادة وأفضل حال يؤمن لنا الدرجات المعنوية.

والصبر ليس بالإكراه، بل هو تسليم العبد لقضاء ربه بكل رضى نفس. والصبر عند القوة عن الأخذ بالثأر هو من أجمل الفضائل.

وشرط الصبر الأساسي هو أن يكون عند حدوث المصيبة. أما الصبر الذي تأخر عن موعده فلا مكافأة كبيرة له.

ومن هذا المنطلق، فإن أهم لحظات للصبر لمن فقد ولده أو أحد أقاربه هي صبره وتسليمه من اللحظة الأولى!.

عن أنس –رضي الله عنه– قال: مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر فقال:

"اتقي اللَّه واصبري"

فقالت: «إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي»

ولم تعرفه (أي أن المرأة لشدة ما أصابها من ألم وصدمة لم تتعرف على رسول اللَّه ﷺ)، فقيل لها: إنه النبي ﷺ فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: "لم أعرفك" (معتذرة)

فقال ﷺ:

"إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى" (البخاري، الجنائز، ٣٢)

من أسماء اللَّه تعالى أيضاً "الصبور". أي أن اللَّه تعالى يمهل عباده ويصبر عليهم فيمدهم حتى الجاحدين منهم بالرزق. فلو أن اللَّه تعالى انتقم من المجرمين في الدنيا مباشرة كيف كان حال الدنيا؟.. يجب التفكر في ذلك!..

تقول الآية الكريمة:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى...﴾ (فاطر، ٤٥)

وأجمل تجلٍّ واضح لاسم الجلالة "**الصبور**" هو انعكاس هذه الصفة الإلهية متجلية في الأنبياء والصالحين. ولهذا كان الصبر الذي هو أهم ما نحتاجه في أوقات الوفرة والضيق هو أجمل نماذج الأخلاق الثنية التي تنتقل إلينا منهم.

الصبر في الرخاء الوفرة؛ هو عدم الانجرار إلى الكبر والغرور، وعدم الأخذ بالثأر، وأن لا تغلب الشهوات، وهو الابتعاد عن البخل والإسراف، وعدم احتقار الفقراء، وعدم التبجح عند المعروف. لأن النفس أمارة بالسوء. ولهذا يجب الصبر عليها وعدم الانجرار إلى العواقب المؤلمة.

وحالُ إبراهيم عليه السلام هي خير نموذج للصبر عند المقدرة. فهو لم ينجر إلى أي شيءٍ في الدنيا، بل على العكس، اعتبر أن كل شيء في الدنيا هو أمانة لله عز وجل. ولهذا، وعلى الرغم من أن اللَّه تعالى من عليه بالكثير من الإمكانات في الدنيا، إلا أنه آثر الصبر وابتعد عن هوى نفسه فنال وصف اللَّه له بـ«الخليل».

وكذلك الأمر، لم يغترَّ سليمان عليه السلام بما رزقه اللَّه تعالى في الدنيا من سلطنة، وجعلها بعيداً عن قلبه. فكَانَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عليه السلام إِذَا أَصْبَحَ تَصَفَّحَ وُجُوهَ الْأَغْنِيَاءِ وَالْأَشْرَافِ حَتَّى يَجِيءَ إِلَى الْمَسَاكِينِ فَيَقْعُدَ مَعَهُمْ وَيَقُولَ: يَا رَبِّ مِسْكِينٌ مَعَ مَسَاكِينَ" (ابن أبي الدنيا، التواضع، رقم: ١٠٣) وكان بذلك يعيش أجمل حال من أحوال التواضع.

الصبر عند الضيق؛ وهو حماية النفس عن الصفات الدميمة كالشكوى والحسد وإفشاء السر، والغضب والعصبية والتنازع مع الأهل والأقارب. إذ يجب في هذه الحالات المماثلة أن يصبر المرء ويبتعد عن الأفعال السيئة وأفكارها. ولهذا، يجب الاستفادة وأخذ العبرة من أحوال الأنبياء والصالحين في حالات الوفرة والضيق والعمل على تقليدهم. ويوصي فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام المؤمنين بالتوكل والتضرع لله تعالى عند حالة الضيق والمصيبة وعدم الوقوع في اليأس والعصيان فيقول ﷺ:

"مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ:

{إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة: ١٥٦]، **اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا "** (مسلم، الجنائز، ٣)

إننا مجبرون ومحكومون بالصبر بهدف الحصول على الرضى الإلهي وبهدف التخلص من الآفات القلبية في الوفرة والضيق. وكم هو جميل مثال أيوب عليه السلام للصبر في ساعة الضيق:

فَلَمَّا ابْتَلَاهُ اللَّهُ وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْبَلَاءُ قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ:

إِنَّكَ رَجُلٌ مُجَابُ الدَّعْوَةِ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَشْفِيَكَ. فَقَالَ:

كُنَّا فِي النَّعْمَاءِ سَبْعِينَ سَنَةً فَلْنَصْبِرْ فِي الْبَلَاءِ سَبْعِينَ سَنَةً، وَاللَّهِ لَئِنْ شَفَانِي اللَّهُ لَأَجْلِدَنَّكِ مِائَةَ جَلْدَةٍ. (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١، ١١٧)

وفي النتيجة، لقد نال أيوب ﵇، هذا النبي المتميز الخلق، نتيجة صبره الذي اشتهر على كل لسان وأعاده اللَّه إلى صحته وشبابه وملكه. ولمن يصبر برغم كل ما يمتلكه من إمكانات ووفرة يقال "الأغنياء الشاكرين». ولمن يتعلق قلبه باللَّه فيشكر اللَّه ولا يشتكي أبداً برغم قلة حاله وضعفه يقال «**الفقراء الصابرين**». وتوجد الكثير من أخبار المكافآت التي لا تُعدُّ ولا تُحصَى لكل من الأغنياء الشاكرين والفقراء الصابرين.

❁

فأَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ ﵁، أُتِيَ بِطَعَامٍ وَكَانَ صَائِمًا وقال:

"قُتِلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي، كُفِّنَ فِي بُرْدَةٍ، إِنْ غُطِّيَ رَأْسُهُ، بَدَتْ رِجْلاَهُ، وَإِنْ غُطِّيَ رِجْلاَهُ بَدَا رَأْسُهُ- وَأُرَاهُ قَالَ: وَقُتِلَ حَمْزَةُ وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي- ثُمَّ بُسِطَ لَنَا مِنَ الدُّنْيَا مَا بُسِطَ- أَوْ قَالَ: أُعْطِينَا مِنَ الدُّنْيَا مَا أُعْطِينَا - وَقَدْ خَشِينَا أَنْ تَكُونَ حَسَنَاتُنَا عُجِّلَتْ لَنَا، ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي حَتَّى تَرَكَ الطَّعَامَ"

(البخاري، الجنائز، ٢٧)

ومن الصحابة المتميزين أيضاً كان أبو ذر الأنصاري ﵁ شديد الفقر. ولكنه كان لا يتأخر عن الإنفاق، وكانت حياته مليئة بالشكر. وقد كان الرسول ﷺ يقول له:

"**يا أبا ذر إن طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك**" (مسلم، البر، ١٤٢)

ها هما نموذجان لحالة القلب ممن اغترف من صحبة رسول اللَّه ﷺ، أحدهما غني والآخر فقير وكلاهما صاحب ذكرى كبيرة في الصبر. فكلاهما في نفس الحالة الروحانية، مظهرين أجمل نماذج الصبر سعياً لكسب رضى اللَّه، وللحياة الإسلامية بإيمان حقيقي، كل من موقعه الذي هو عليه من الغنى أو الفقر. ونحن أيضاً، ولكي نتمكن من التوصل إلى هذه الأحاسيس، يجب علينا أن نتمسك بالذكر ومجالس العلم بكل ما آتانا اللَّه من قوة!...

يقول الحق تعالى:

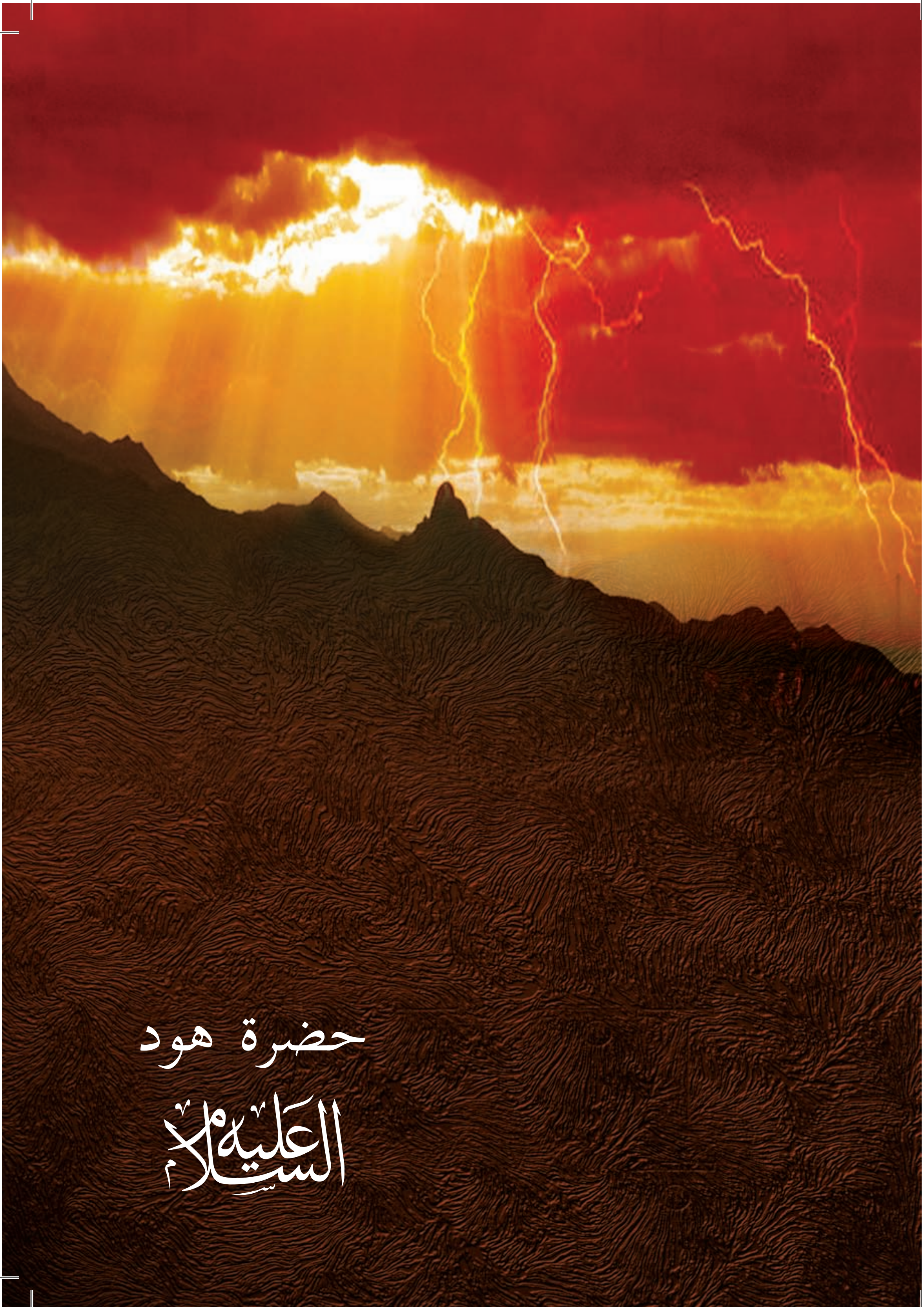
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا...﴾ (آل عمران، ٢٠٠)

ويقول الحق سبحانه وتعالى أيضاً:

﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر، ١-٣)

ولكن، قبل أن نتمكن من دعوة الناس للكلمة الحق والصبر، يجب علينا أن نطبق هذه الأمور على أنفسنا أولاً.

أسال اللَّه تعالى أن يرزقنا حلاوة الصبر! وأن يرزقنا نصيبنا من صبر الأنبياء والأولياء وسعة صدرهم، وأن يحفظنا من البلاء فلا نضعف فيه!... آمين!...



حضرة هود

عليه السلام

نبي قوم عاد الذين عاقبهم اللّه بالريح فجعل اللّه عاليها سافِلها

حضرة سيدنا هود

عليه السلام

هود عليه السلام هو من نسل سام. أرسله اللّه تعالى إلى قوم عاد.

وهود؛ هي من كلمة «هوادة» أي النعومة، والهدوء والصلح والسكينة. ومن أسماء هود عليه السلام أيضاً: العابر، ولقبه نبي اللّه.

ولقد ولد هود عليه السلام في ديار الأحقاف وترعرع فيها. وكان نسبه شريفاً في قوم عاد. وكان قبل النبوة يعمل في التجارة. متوسط الطول، أسمر البشرة، كثيف الشعر، وجميل الوجه. وكان يشبه آدم عليه السلام.[1] وكان مدمناً على العبادة تقياً وزاهداً. كريماً ورحيماً. وكان كريماً في عطائه للمحتاجين.

قوم عاد

ذكر القرآن الكريم قوم عاد في كل من سورة الأعراف، هود، المؤمنون، الشعراء، فصلت، الأحقاف، الذاريات، القمر، الحاقة والفجر.

١ أنظر: الحاكم، المستدرك، ٢، ٦١٤-٦١٦

وقوم عاد هم مجموعة من ثلاثة وعشرين قبيلة من العرب. وعاد الذي سمي هذا القوم على اسمه هو من أحفاد نوح عليه السلام. ويعتقد بأن حياتهم كانت بعد نوح عليه السلام بحوالي ثمانمائة سنة تقريباً.

ويقال بأن ديار الأحقاف التي رأى فيها قوم عاد مصرعهم وهلاكهم التي أصبحت عبرة للبشرية كافة، هي في المنطقة الواقعة بين اليمن وعدن وعمان. وكان قوم عاد هم أول الذين سكنوا شبه الجزيرة العربية التي كانت تسمى بعرب العاربة. وكان هذا القوم يمتلكون أراض غنية بالعشب والماء ومختلف أنواع النعم والكروم والحدائق. ينابيع متدفقة على وجه الأرض، وكروم وحدائق وماشية مختلفة الأنواع، ومن تحت الأرض أيضاً خزائن المياه المختلفة والقصور. بل إن منطقة الأحقاف كانت تعرف باسم «إرم». والتسمية المشهورة «حدائق إرم» تأتي من هذا الاسم. وكان الناس في هذا القوم أقوياء أشداء، ضخام في الجسم، طوال في البنيان والعمر. وكان قوم عاد ينحتون الجبال فيحفرون منها بيوتاً لهم، وينشِؤن الأبنية المبهرة المشهد. وكانت هذه البيوت تحتوي على الكروم والحدائق والخزانات الجميلة. وكان كل مكان رائع التصميم والجمال.

وكان قوم عاد هم أول قوم عادوا إلى الوثنية بعد طوفان نوح عليه السلام. وبسبب انغماس هذا القوم في نعم الدنيا مع مرور الزمن، غفلوا عن ربهم وابتعدوا عن دينهم بانتشار الفساد والفتنة. وغرقوا

في الدنيا بعيداً عن التفكير بحكمة ورعب طوفان نوح. واغتروا بوفرة نعم الدنيا. فأصابهم الكبر والتباهي. يخبرنا اللّٰه تعالى عنهم فيقول:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (فصلت، ١٥)

ولشدة ما ابتعدوا به عن الإستقامة الإلهية، بدأ قوم عاد بعبادة أصنام لهم سميت صمد وصمود وصدا وهبا. وأصبحوا ظالمين غادرين. فكانوا يسحقون الضعفاء والمساكين. وكانوا يأخذون المساكين ويصعدون بهم إلى أعالي الأبنية ويرمُونَهُم منها إلى الأسفل. ومن ثم كانوا ينظرون إلى أجسامهم المحطمة ويتمتعون بذلك. أي أن قلوبهم تحجرت إلى هذه الدرجة. وازداد الظلم بشكل لا يمكن للعقل تصوره. فكانوا يغيرون على القبائل الضعيفة ويستولون على بضائعهم. ووصلوا في ترفهم وتباهيهم إلى أبعد الحدود. فكان أول قوم هلكوا بعد طوفان نوح عليه السلام هم عاد قوم هود عليه السلام.

ولكن علاقة هود عليه السلام بهذا القوم لم تكن إلا مجرد رابطته النسبية. أما معيشته فكانت مختلفة تماماً عنهم. فلقد كان ابن عائلة عريقة وطاهرة

وأمام ضلال قوم عاد وتماديهم في المعصية وازدياد فسادهم مع مرور الزمن، أوحى اللَّه إلى هود عليه السلام يقول له:

«يا هود! لقد اخترتك من بين قومك. اذهب إليهم؛ ولا تخف منهم! وسأريهم آياتي لأجلك...»

وبعد أن جاءه الوحي، ذهب هود عليه السلام إلى مكان اجتماع قومه. وكان ملكهم هلجان يجلس على عرش من الذهب. وبدأ هود عليه السلام خطابه إليهم بصوت كث (حزين) فقال لهم:

" - يا قوم اعبدوا اللَّه وحده ولا تشركوا به! وتذكروا قوم نوح، لقد هلكوا لنفس السبب!"

وتقص علينا الآيات الكريمة دعوة هود عليه السلام بقوله تعالى:

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (هود، ٥٢)

غضب هلجان وقال:

- عار عليك يا هود! أتعتقد بأنك ستغلبنا ونحن على ما نحن عليه من القوة والجمع؟ ألا تعلم أنك فرد واحد! أم أنك لا تعلم أنه يولد لنا في اليوم الواحد ألف طفل!

وهكذا، نجد أن هلجان وقوم عاد اغتروا بالمال والولد واحتقروا أمر هود عليه السلام ولم يؤمنوا معه. وتذكر الآيات الكريمة هذه

القصة فتقول: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ. قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف، ٦٥-٦٧)

وتذكر سورة هود أحداث اعتراض قوم هود وإنكارهم لهود عليه السلام فتقول:

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (هود، ٥٣-٥٤)

ولم يكن جواب قوم عاد إلى هود عليه السلام بطريقة اعتراضهم بمختلف عن جواب بقية الأقوام إلى رسلها. بل كانت كما هو الحال من اعتراض للمنكرين في أيامنا. وكانت هذه الإعتراضات كما هو الحال دائماً هي من أشراف القوم بشكل خاص. وأهم أسباب هذه الإعتراضات هو الأسباب الدنيوية ومنافعها بالنسبة لهؤلاء الناس. ويمكن تحديد اعتراضات قوم هود عليه السلام ضمن هذه المواد والعناوين التالية:

١ . اتهامهم هود عليه السلام بالضلالة والجهل لقلة حظهم وجحودهم، حيث تتحدث الآيات الكريمة عن ذلك بقوله تعالى:

﴿...إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الأعراف، ٦٠)

﴿...إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (الأعراف، ٦٦)

٢. توجههم إليه بعصبيتهم الكبيرة التي جعلتهم بعتقدون بأن أفضل الطرق هو الدين الذي سلكه أجدادهم. وتروي الآية القرآنية هذا الأمر فتقول:

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا...﴾ (الأعراف، ٧٠)

٣. اعتقادهم بأنهم أقوياء وأشداء فلا يمكن لهود عليه السلام أن يضرهم بشيء. تقول الآية الكريمة:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً...﴾ (فصلت، ١٥)

٤. إنكارهم للآخرة وادعاؤهم بأن الحياة ليست إلا الحياة الدنيا فحسب. ويخبرنا اللّه سبحانه وتعالى عن غفلتهم وجهالتهم هذه في الآية الكريمة فيقول:

﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (المؤمنون، ٣٧)

٥. تحقيرهم لهود عليه السلام وللمؤمنين واستهزاؤهم بهم.

تقول الآية الكريمة:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ. وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾

(المؤمنون، ٣٣-٣٤)

تحذيرات إلهية مليئة بالعبر

حزن هود عليه السلام كثيراً لما وجده من تصرفات قومه. ورفع يده إلى السماء ملتجئاً إلى رب العزة والجلالة. فأصبحت نساؤهم عواقر لا تنجب الأطفال. واستمر هذا الحال عشر سنوات كاملة.

فأتوا هود عليه السلام مكرهين. ولكنهم كانوا لا يزالون على غفلتهم. وعلى الرغم مما شهدوه من معجزة إلهية واضحة إلا أنهم قالوا: «– أرنا معجزة !»

ومن ثم وبحسب ما ترويه لنا سورة الأحقاف في الآية ٢٢ منها، تمادوا في غيهم وتأنيبهم واستهزائهم فقالوا:

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الأحقاف، ٢٢)

وأمام ما كان منهم، أمر اللّٰه تعالى الينابيع فجفت، فاصفرت الحدائق والكروم. وأصبحت "كروم إرم" تلك الكروم الجميلة

وكأنها لم تكن. وأصبح الناس ضخام الجثث يبحثون عن اللقمة الواحدة.

وجمعهم هود عليه السلام مرة أخرى. وتوجه إليهم بالوعظ مرة أخرى:

"استغفروا اللَّه!» ومن ثم توجه إليهم بالتحذير الشديد لما هم عليه من إصرار على الكفر والضلال، فقال:

﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[١]﴾ (هود، ٥٤-٥٦)

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ (هود، ٥٧)

وكما تشاهدون في هذه الآيات الكريمة، توجه هود عليه السلام إلى قومه بتهديد واضح وشديد إلى المشركين من قومه، فهو يقول لهم:

«اجتمعوا جميعاً وحاولوا ما استطعتم وبكل ما أوتيتم من قوة للقضاء علي. بل ولا تنتظروا لتنفيذ ذلك أبداً أن تفتحوا عيونكم

---

١ أي إن حكم اللّه تعالى وتصرفاته هي صحيحة تماماً. فهو منزه عن الظلم و الخطأ.

وتغلقوها. تأكدوا أنني لن آبه بكم، ولن أفكر فيما يمكن أن تفعلوه بي، ولا أنظر إليكم أبداً. لأنني أتوكل على اللَّه وحده. وأستند إليه وحده. ومن يتوكل عليه لا يضره أحد قط. لن أخشى أحداً سواه. فأنا لا أتوكل ولا أعبد إلا اللَّه وحده.»

إن هذه الكلمات وحدها لهي خير دليل واضح على نبوة هود عليه السلام وعبوديته لله تعالى، وضلالة وجهل من أمامه. وأمام هذا القول، لم يتمكن أعداؤه من إلحاق الضرر به أبداً، ولم يتمكنوا من إبعاده عن دعوته. وهذا دليل آخر على صدق دعوته.

ولم تكن هذه التهديدات كافية لهداية قوم عاد. وعلى الرغم من كل ما تعرضوا له من شدة وأزمات، إلا أنهم لم يستغفروا اللَّه عز وجل، ولم يعودوا إلى اللَّه وعقيدة التوحيد. فكانوا بما رزقوا من غنى وثروة فاحشة في غفلة وضلال وشذوذ جعلهم يبتعدون عن العبادة لله. فاتباعهم للأنبياء في هذه الحالة سيكون سبباً في امتناعهم عن الكثير من المحرمات، وسيمتنعون عن التصرف بعيداً عن العدل، ولن يتمكنوا من أذية الضعيف. لأن دين التوحيد الذي هو دين الحق، هو دين يجلب معه عديداً من الموانع (الحدود). ولكن من تعود من الناس على المعيشة بناءً لهوى نفسه، فإنه لن يرغب في الدخول ضمن نطاق هذه الحدود. بل سيرغب بالاستمرار في الحياة في غفلة وضمن حدود راحة نفسه.

الريح التي قلبت عاليها سافلها

وبناءً عليه، منع اللّٰه تعالى عنهم المطر ثلاث سنوات متتالية. فأرسلوا إلى مكة هيئة طلباً للمطر. وبعد ذلك بفترة قصيرة بدأت الغيوم بالظهور. وعندما رأى قوم عاد الغيوم تغطي السماء من أولها إلى آخرها فرحوا وقالوا:

«ها قد أتى المطر!». ولكنها كانت غيوم العذاب. وخاطبهم هود للمرة الأخيرة قائلاً:

«آمنوا!» وهو يدعوهم منذراً لهم ليتجنبوا ذلك العذاب. ولكنهم وفي غفلة تامة أصروا مرة أخرى على غيهم فقالوا:

«كلا، بل هي الغيوم التي تسبق المطر!»

وهكذا، تصرفوا أمام آخر إنذار رباني بصمم وعميان. وأخيراً، أحاط الملائكة المكلفون هؤلاء القوم بهذا الوابل الكثيف من الغيوم. وبدأت العواصف تشتد مع صباح يوم الأربعاء. وكانت قوة هذه العواصف شديدة لدرجة تتمكن فيها من اقتلاع الشجر من جذورها. ومازالت هذه العواصف تشتد ويزداد صفيرها وبرودتها. يروي القرآن الكريم فيقول:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾

(فصلت، ١٦)

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ (القمر، ١٩)

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ (الذاريات، ٤١-٤٢)

وبدأ الناس مع شدة هذه العواصف بالتطاير في الهواء مثل العصافير. وحاولوا تثبيت أنفسهم عبر ربط ألبستهم ببعضها البعض، في محاولة لتشكيل حلقة من أجسادهم تقيهم التطاير من شدة الريح، ولكن ذلك لم يكن كافياً أيضاً. وعند رؤية بعضهم للإبل وضخام الناس يتطايرون في الهواء ركضوا إلى بيوتهم يتحامون فيها. ولكن نفس العاقبة كانت تلاحقهم. فكانت الريح تلتقطهم من البيوت وترمي بهم مثل القمامة إلى الخارج. ويصور القرآن الكريم هذه الحالة فيقول:

﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ (القمر، ٢٠)

ويأمر اللّه تعالى الريح بأن تلقي قمم التراب عليهم. واستمرت هذه الحال سبعة ليال وثمانية أيام. فكانت العاقبة المؤلمة نصيب هذه الأمة الجائرة. يتحدث القرآن الكريم عن هلاك قوم عاد في الآيات الكريمة فيقول:

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ (الحاقة، ٧-٨)

﴿...وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف، ٧٢)

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ (هود، ٥٩-٦٠)

ومع حلول موعد هذه العواصف، نَجّى اللّٰه سبحانه وتعالى برحمته وعنايته هوداً عليه السلام ومن كان على عقيدة الإيمان من قومه. ونزل العذاب على العاصين منهم. تقول الآية الكريمة:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (هود، ٥٨)

ويتحدث علماء التفسير عن قوله تعالى "ونجيناهم برحمة منّا" فيقولون: «لقد حفظ اللّٰه تعالى ونَجّى هوداً عليه السلام ومن تبعه من المؤمنين بمقتضى رحمته. ونفهم من هذا الأمر أن ما يمن اللّٰه به على عباده من النعم واللطف، لا يكون أبداً نتيجة ما يقومون به من أعمال، وإنما هو إحسان تسببه الرحمة الإلهية».

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا تَخَيَّلَتِ السَّمَاءُ، تَغَيَّرَ لَوْنُهُ، وَخَرَجَ وَدَخَلَ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا مَطَرَتْ، سُرِّيَ عَنْهُ، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ:

"لَعَلَّهُ، يَا عَائِشَةُ كَمَا قَالَ قَوْمُ عَادٍ: {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا} [الأحقاف، ٢٤] **"** (البخاري، التفسير، ٤٦/ ٢؛ مسلم، الإستسقاء، ١٤-١٦)

كذلك الأمر، عن أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضي الله عنها قالت:

كان رسول اللّه ﷺ إذا رأى الريح اشتدت قال:

"اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ" (مسلم، الاستسقاء، ١٥)

لقد كان رسول اللّه ﷺ على هذا الشكل من التيقظ وأراد لأمته أيضاً أن تكون على هذه الحالة الروحية.

عَن ابْنِ عَبَّاس قَالَ: لَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِوَادِي عُسْفَانَ حِينَ حَجَّ، قَالَ: **"يَا أَبَا بَكْرٍ، أَيُّ وَادٍ هَذَا؟ "**

قَالَ: وَادِي عُسْفَانَ: قَالَ رسول اللّه ﷺ:

"لَقَدْ مَرَّ بِهِ هُودٌ، وَصَالِحٌ عَلَى بَكَرَاتٍ حُمْرٍ خُطُمُهَا اللِّيفُ، أُزُرُهُمْ الْعَبَاءُ، وَأَرْدِيَتُهُمْ النِّمَارُ، يُلَبُّونَ يَحُجُّونَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ ".(أحمد، المسند، جـ١، ٢٣٢)

وبعد أن أهلك اللّه تعالى قوم عاد، انتقل هود عليه السلام ومن تبعه من المؤمنين إلى مكة، وبقي فيها إلى أن توفي هناك.

معجزات هود عليه السلام

١- كان يوجه الريح بإذن اللّه إلى الاتجاه الذي يريد.

يتوجه هود عليه السلام إلى قومه عند طلبهم للمعجزة فيسأل:

«ما هي المعجزة التي تريدون؟»

فأجابوه بأن يوجه الريح إلى الإتجاه الذي يطلبونه. فوجه هود عليه السلام الريح إلى الإتجاه الذي طلب منه.

ولكم هي من حكمة إلهية أن يعذب اللّه قوم عاد في نهاية الأمر مستخدماً الريح التي رأى هذا القوم معجزة اللّه فيها ولم يؤمنوا به. ويصف القرآن الكريم هذه الريح بقوله تعالى «ريح صرصر» (أي الإعصار الشديد المصحوب بشدة الضجيج)

٢- حول الصوف إلى حبال غليظة. وجعلها بحالة من اللمعان.

٣- أثناء المطر الشديد كان الناس لا يتمكنون من السفر. فدَعا هود عليه السلام ربه فتشكلت على الطرقات ستائر أو حواجز. فكان الناس ينتظرون في هذه الملاجئ إلى أن يهدأ المطر.

❁

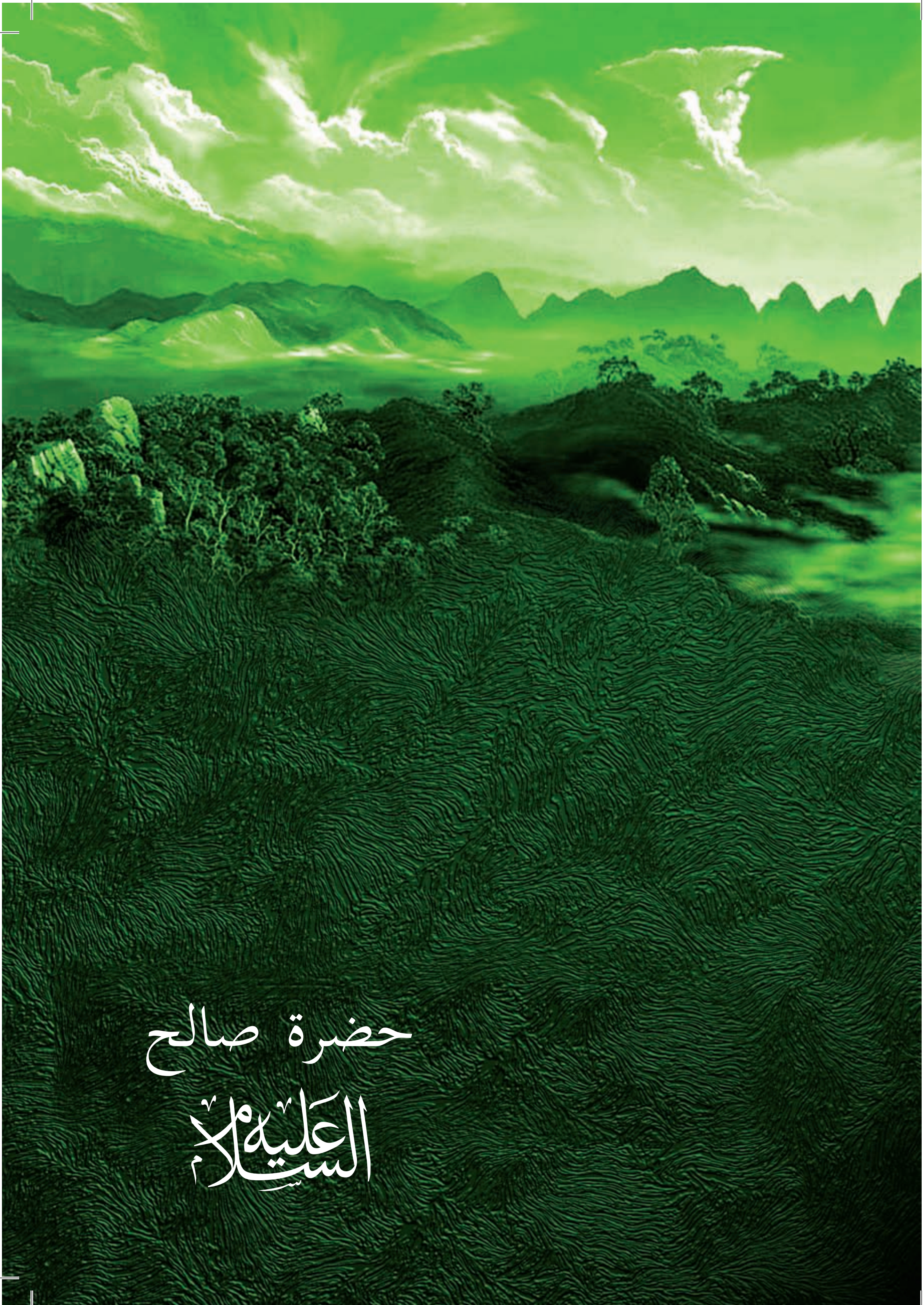
إن ذكر القرآن الكريم لقصص الأنبياء والأقوام السابقين هي لكي يتمكن المؤمنون من أخذ العبر منها. فكل موقف من مواقف الأنبياء السابقين هو طريق يجب على المؤمنين سلوكها. وعند نظرنا

إلى قصة هود عليه السلام من هذه الزاوية فإننا سنجد العديد من التصرفات النموذجية فيها:

فهود عليه السلام هو رجل وقور تمسك بكل صدق بالطريق الربانية. فكان يزن كلامه قبل أن ينطق به. فعندما كان يصفه قومه بأن لا عقل له، كان يكتفي بأن يثبت لهم أنه كامل العقل، وأنه أرسل سفيراً من اللَّه تعالى إليهم. فكان لا يرد الإساءة بمثلها، بل على العكس من ذلك كان رقيقاً معهم في التعامل. فكان يذكرهم بنعم اللَّه تعالى عليهم، وبأن من الواجب عليهم الشكر لله تعالى على كل ذلك بعبادته وإطاعة أوامره. وكان يؤكد أنه لا يبتغي من ذلك أي أجر أبداً.

عليه السلام!


البحر الأبيض
البحر الميت
فرات
سيناء
إيلات
الجزيرة العربية
الخليج العربي
مصر
مدين
نجد
المدينة المنورة
حجاز
مكة المكرمة
جدة
نهر النيل
البحر الأحمر
أحقاف
قبر هود عليه السلام
حضرموت
صنعاء
اليمن
عدن
خليج عدن
المحيط الهندي


حضرة صالح
عليه السلام

نبي قوم ثمود الذين زلزلوا من أصولهم بسبب رغباتهم وشذوذهم

حضرة سيدنا صالح عليه السلام

هو حفيد آدم عليه السلام من النسل التاسع عشر. وصالح عليه السلام هو نبي اللَّه الذي أرسل إلى قوم ثمود.

قَالَ مُقَاتِلٌ: «فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بَيْنَ زَمْزَمَ وَالرُّكْنِ قَبْرُ سَبْعِينَ نَبِيًّا، مِنْهُمْ هُودٌ، وَصَالِحٌ، وَإِسْمَاعِيلُ، وَقَبْرُ آدَمَ، وَإِبْرَاهِيمَ، وَإِسْحَاقَ، وَيَعْقُوبَ، وَيُوسُفَ، فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ» (الأزرقي، أخبار مكة، ١، ٧٣)

قوم ثمود

إن قوم ثمود هم من خلال قصة هلاكهم قوم يذكرون على كل لسان. ويتحدث القرآن الكريم عن هذا القوم بعبرة في الكثير من المواقع والآيات والسور فيخبر بأنهم أهلكوا لما كانوا عليه من تلذذ لا حدود له وبعد عن الإيمان.

وهؤلاء القوم هم قوم ثمود الذي يصل بنسبه إلى سام ولد نوح عليه السلام. بعد وفاة هود عليه السلام، توجه أحفاد ثمود إلى شمال شبه الجزيرة العربية، وتمركزوا في موقع الحجر في المنطقة ما بين الشام

والحجاز. ومن ثم انتقلوا من ذلك المكان ليسكنوا في منطقة قوم عاد. وتكاثر نسل ثمود إلى أن أصبحوا أمة قائمة بذاتها. وكان يطلق عليهم اسم «**عاد الثانية**».

وحصل قوم ثمود مع مرور الزمن على نفس النعم التي حصل عليها قوم عاد في السابق. ولكنهم كما كان الحال في قوم عاد وقعوا في الغفلة والضلالة. وعللوا هلاك قوم عاد بسبب ما أصبحوا عليه من الجحود بأنه كان لأسباب أخرى غير العقاب الإلهي فقالوا:

«لقد هلك قوم عاد لأنهم لم يبنوا لأنفسهم البيوت المتينة. وكانت بيوتهم مبنية على الرمال. أما نحن فأنشأنا بيوتنا على الصخور. ولهذا لن تضر بنا الرياح القادمة...»

وأنشـأوا لأنفسهم القصور والفلل. ونحتوا الحجارة وأعطوها أشكالاً جديدة. وزينوا قصورهم وفللهم بأشكال مختلفة. فنسوا دين التوحيد وجعلوا من أنفسهم شركاء للّه، وجعلوا مما عملت أيديهم أصناماً يعبدونها من دون اللَّه. وكان سيد القوم هو «جُنْدَعُ بْنُ عَمْرو». ولم يتعظ قوم ثمود لما أصاب قوم عاد من عاقبة، فكان منهم أنً استشاروا بعضهم البعض وطلبوا من قائدهم جُنْدَعُ بأن يجعل لهم صنماً لم يكن معبوداً من قبل أي من الأقوام السابقة. وفرح جُنْدَعُ لهذا الأمر. فصعدوا إلى صخرة كبيرة فحفروها. وجعلوا لها عينين وصدر ثور ورجل حصان وزينوها بمختلف أنواع الذهب والفضة والمجوهرات المختلفة، ومن ثم وقفوا أمامها وسجدوا لها.

ومن بعد هذا الصنم الجديد صنع قوم ثمود لأنفسهم معبداً للأصنام. وجعلوا لأنفسهم أصنام هي ود وجد وهد وشمس ومناف ومنات ولات، وبَدَؤُا بعبادة هذه الأصنام. وفي هذه الأثناء كان صالح عليه السلام في قومه. وكان يعمل في التجارة ويـأكل مما كسبت يداه. وكان صالح بالفعل إنساناً يليق به التعظيم والإحترام. وكان قومه يحبونه جداً لما يجدون فيه من الصدق والقابلية والإحسان. وكانوا ينتظرون منه في المستقبل أشياء كثيرة. بل وكانوا على نية بأن يجعلوه حاكماً عليهم. ولكن اللّٰه تعالى أعطى صالحاً عليه السلام النبوة.

بداية التبليغ

عندما بلغ صالح عليه السلام سن الأربعين، جاءه جبريل عليه السلام يبلغه النبوة. وفي بداية الأمر تردد صالح عليه السلام. فقال له جبريل عليه السلام:

«يا صالح! هيا ادع قومك إلى التوحيد!»

ومن ثم قال:«يا صالح! أنت ستشاهد أحوالاً لم تكن في زمان نوح وهود!» ومن ثم صعد إلى السماء.

وأمام هذا الموقف، ذهب صالح عليه السلام في بداية الأمر إلى سيد القوم جُنْدَعُ يدعوه إلى التوحيد. وقابل جُنْدَعُ هذه الدعوة بشكل منصف ومعقول وقال:«لأبلغن قومي بذلك». ومن ثم جمع جُنْدَعُ قومه وأبلغهم بنبوة صالح عليه السلام ودعوته للتوحيد.

فقال له قومه: « يا جُنْدَعُ، فَلْيَأْتِ هو ويخبرنا!». وبناءً عليه، أتى صالح عليه السلام قومه وأبلغهم رسالة ربه. ويقص اللَّه سبحانه وتعالى علينا إرشاد صالح لقومه فيقول:

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ (هود، ٦١)

وتروي سورة الشورى الأحداث المتعلقة بهذا الشأن فتقول في الآية الكريمة:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء، ١٤١-١٤٥)

وهكذا، وبعد أن بدأ صالح عليه السلام بدعوته في العلانية، تغير موقف قومه منه في آن واحد. وبدأ قومه يتجمعون في جبهة واحدة ضده.

وكما كانت الحال مع الأنبياء السابقين، لم يؤمن بدعوة صالح وعقيدته للتوحيد إلا قليل. أما من بقي منهم استمر بالإنكار:

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (هود، ٦٢)

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ (هود، ٦٣)

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (النمل، ٤٦)

وعلى الرغم من هذه النصائح المليئة بالحكمة والحقيقة التي قالها صالح عليه السلام، إلا أن قومه اتهموه ببهتانهم بأنه كاذب مسحور:

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (الشعراء، ١٥٣)

ثم قالوا فيما بينهم:

﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ﴾ (القمر، ٢٤)

ويكملون بقولهم:

﴿ءَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ (القمر، ٢٥)

ويرد اللَّه تعالى على هذا الإتهام المحفوف بالجهل لقوم ثمود فيقول لهم مهدداً بشكل كبير:

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ (القمر، ٢٦)

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ (المؤمنون، ٤٠)

وصبر نبيُّ اللَّهِ صالحٌ ولم يصب باليأس. وعلى الرغم من كل شيء، فإنه استمر يدعو قومه محاولاً إبعادهم عما كانوا يعبدون من

الأصنام. واستمر بنصحهم ووعظهم وتبليغهم فيقول:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ. فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ. وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ. الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (الشعراء، ١٤٦-١٥٢)

وعندما أدرك قوم ثمود أنهم لن يتمكنوا من منع صالح، اقلعوا عن التعرض له. وبَدؤُا يحاولون بإقناع من تبعه من المؤمنين. وأرادوا أن يتركوا نبي اللّه منفرداً. فكانوا يقولون لمن آمن منهم:

﴿...أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ...﴾ (الأعراف، ٧٥)

فكان من وصل إلى السعادة ممن آمن به بحق يقول:

﴿...إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف، ٧٥)

وأمام هذا التصميم الذي يخلوا من أي نوع من أنواع الشك بدون أي قيد أو شرط، تفاجأ المنكرون من قوم ثمود وقالوا بتعجب:

﴿...إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (الأعراف، ٧٦)

فكانوا بذلك مصرون على عدم الخروج من مستنقع الضلالة. فكان هؤلاء المنكرون يتهمون صالح بالسوء ويضيقون على قومه لحملهم على الإنكار.

وإضافة إلى إنكارهم للإيمان، عمد قوم ثمود إلى تبيين أسباب ذلك الرفض إلى صالح عليه السلام فقالوا:

"-أن تريد أن تستولي على أموالنا، وأن تغصبها من بين أيدينا. وأنت تطمع بأن تكون رئيساً علينا!"

ومن ثم واستنتاجاً منهم عبر منطق بدائي قالوا:

"-نحن لدينا أصنامنا. فهل نترك ما نرى ونشاهد لنعبد إلهك الذي لا نرى؟!" وأكملوا يقولون:

"-وبأي طريقة كلفك اللَّه الذي لم تراه؟!"

فإن كنت تقول الحقيقة، فافعل أمامنا ما لم يفعله قبلك أحد قط!"

﴿مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الشعراء، ١٥٤)

معجزة الناقة

حزن صالح عليه السلام حزناً شديداً أمام جهل قومه وغفلتهم. وقام لفترة من الزمن بتركهم والإبتعاد عنهم. وعندما عاد إليهم مرة أخرى، أظهر اللَّه تعالى صالحاً عليه السلام أمام قومه بهيبة النبوة. ففزع قومه من هيبته هذه.

وذهب صالح إلى سيد القوم جُنْدَعُ مرة أخرى. فقال له جُنْدَعُ:

«-سنمتحنك إن كنت صادقاً!» وكانت هناك صخرة تسمى في

ذلك الزمن «الكاتبة». وقصد جُنْدَعُ في كلامه تلك الصخرة فقال:

«- سنذهب معك إلى هناك. وليخرج لنا ربك من هذه الصخرة ناقة أنثى على وشك الولادة حمراء الوبر! وليكن لون مولودها بنفس لون أمه!»

وأكمل قومه مُسْتَهْزِئين:

«- وليكن حليبها بارداً في الصيف، ساخناً في الشتاء! وليشفى كل من شرب من هذا الحليب، وليتخلص كل فقير شرب من هذا الحليب من فقره!»

وكانت الناقة الحمراء بالنسبة لهذا القوم هي أثمن شيء عندهم. ولهذا فهم أرادوا من صالح عليه السلام أن يخرج لهم من هذه الصخرة ناقة حمراء اللون.

واجتمع جميع قوم ثمود. ووقف صالح يصلي. والتجأ إلى اللَّه تعالى. وابتدأت الصخرة بالنمو. وبدأت أصوات المخاض تتعالى. ومن ثم خرجت منها ناقة حمراء اللون وهي تقول:

«لاَ اِلهَ اِلاَّ اللَّهُ صَالِحٌ نَبِيُّ اللَّهِ»

وقبَّلَ جُنْدَعُ صالحاً عليه السلام من جبينه. وآمن مع مئة آخرين من الناس. وخاطب قومه فقال لهم:

"- يا قومي! كفى هذا العمى! إنني آمنت باللَّه الذي لا مثيل له ولا معبود غيره، وآمنت بصالح نبياً له!"

فقال رئيس معبد الأصنام:

"– ما بك تؤمن بهذه السرعة لشيء من السحر! سأريكم ما هو أكبر من ذلك!"

وهكذا، استطاع أن يغير ما في قلوب من أراد أن يؤمن من الناس –ومن بينهم شقيق جُنْدَعُ نفسه–. وأخذ التاج من رأس جُنْدَعُ ووضعه على رأس أخيه وقال: "– من الآن وصاعداً أنت رئيسنا!"

أما جُنْدَعُ، فذهب إلى بيته وحطم سائر الأصنام فيه. وأخذ ماله وقسمه بين المؤمنين ممن قبل بعقيدة التوحيد. ولبس لباساً خشناً متموجاً. وبدأ يدعو الناس إلى التوحيد. وأصبح من أكثر الناس مساندة لصالح عليه السلام.

وقال عبدة الأصنام لجُنْدَعُ:

"عار عليك! أتومن أنت أيضاً لسحر صالح!" ولكن جُنْدَعُ لم يكن يكترث لقولهم وكان لا يفارق صالحاً عليه السلام. ويقول اللّه تعالى لصالح عليه السلام:

﴿**إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ**﴾ (القمر، ٢٧)

وامتثالاً للوحي الإلهي، وضع صالح عليه السلام قانوناً يتعلق بهذه الناقة فقال:

﴿**وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ**﴾ (هود، ٦٤)

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ. وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الشعراء ١٥٥- ١٥٦)

وكانت الناقة تأكل الحشيش مع مولودها وتسبح اللّٰه تعالى. وكانت بقية الحيوانات تهرب خوفاً من هيبتها. وكانت الناقة تقول بلغة الناس: "- من كان يريد الحليب فليأت وليأخذ!".

وكان أهل ثمود يأتون ويَملؤن أكوابهم ويذهبون. وكانت الناقة تستمر بالتسبيح كلما شربت الماء. وكان يشفى كل من شرب من حليبها من المؤمنين.

الجحود

وعجز الكافرون أمام هذه المعجزة الخارقة واعتزموا لشدة قهرهم أن يقتلوها. ولكنهم كانوا يخافون أن يأتيهم العذاب الإلهي بعد هذا القتل. وعلى الرغم من هذا الخوف، كانت هناك امرأتان من قوم ثمود تحث الناس من غير المؤمنين على قتل هذه الناقة لما تسببه لهما من أضرار في قطيعهما. وكانت إحدى هذه النساء هي عنيزة بنت غانم. وكانت امرأة عجوزاً ولكن لها بنات جميلات. وكانت الأخرى هي امرأة غنية وصاحبة جمال تسمى محيى.

وكانت كلتا المرأتين تطلب من الكافرين قتل هذه الناقة. لأن لكلتا هاتين المرأتين قطيع كان لا يمكنه أن يشرب عندما تشرب ناقة صالح عليه السلام. إذ أن شرب الماء كان مناوبة بين الحيوانات، يوم للناقة ومولودها، ويوم لباقي الحيوانات.

وتنادي محيى ابن عمها مستا وتقول:

«– إن قتلت هذه الناقة أتزوجك ويصبح كل ما أملكه لك!»

وقبل مستا هذا الطلب. وكان يلزمه من يقوم بمساعدته. فوجد له عابداً للأصنام يسمى قدار. وأغراه ببنات عنيزة. وكان أن اختار هذا الأخير واحدة من بين بناتها وقبل بهذا الطلب أيضاً.

وجمع هذان الرجلان إلى جانبهم بعض المشؤمين الآخرين وأصبح عددهم تسعة. وبدأ هؤلاء التسعة يبثون ادعاءات بين الكافرين من عبدة الأصنام وأقنعوهم بقتل الناقة. يقول اللّٰه تعالى:

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾ (النمل، ٤٨)

ووقع هؤلاء التسعة في مستنقع الضلالة. فرمى مستا الناقة بسهم فجرحها. وهجم قدار ومن معه ووثبوا على الناقة. يقول تعالى:

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ...﴾ (الأعراف، ٧٧)

وأمام هذا المشهد خاف وليد الناقة وهرب إلى الجبل. وبحسب إحدى الروايات فإنهم ذبحوه أيضاً وأكلوا لحمه. وعندما سمع صالح عليه السلام بهذه الحادثة حزن حزناً شديداً. وذهب إلى جوار الناقة وبكى. وعندما بادر بالدعاء بالهداية لقومه قابله قومه بقولهم:

﴿...يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف، ٧٧)

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف، ٧٩)

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ (النمل، ٤٧)

❁

لقد أنَّب صالحٌ عليه السلام قومه حين قال: "ولكن لا تحبون الناصحين".

وها هو رسول اللَّه ﷺ أيضاً يكلم أهل قريش بعد غزوة بدر فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، تَرَكَ قَتْلَى بَدْرٍ ثَلَاثًا، ثُمَّ أَتَاهُمْ فَقَامَ عَلَيْهِمْ فَنَادَاهُمْ، فَقَالَ:

"يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا؟"

فسمع عمر رضي الله عنه قول النبي ﷺ . فقال: "يا رسول اللَّه! كيف يسمعوا وأنى يجيبوا وقد جيفوا؟" فقال له رسول اللَّه ﷺ:

"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا"

ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ فَسُحِبُوا، فَأُلْقُوا فِي قَلِيبِ(بئر) بَدْرٍ (مسلم، الجنة، ٧٧)

كذلك الأمر، عندما مر رسول اللَّه ﷺ بالحجر، قال:

"لا تسألوا الآيات وقد سألها قوم صالح. (وقد تحققت معجزتهم فأخرج اللَّه الناقة من الحجر) فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها فكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد اللَّه عزّ وجلّ من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم اللَّه عزّ وجلّ"

قيل: (أي سأله الصحابة الكرام):

"من هو يا رسول اللَّه؟" قال:

"هو أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه"

(أحمد بن حنبل، المسند، ٣، ٢٩٦؛ واقدي، المغازي، ٣، ١٠٠٧-١٠٠٨)

هلاك القوم الضالين بالصيحة المرعبة والزلزلة

لم يتمكن صالح عليه السلام مع كل ما قدمه من دعوة ونصيحة من أن يصلح قومه ويخرجهم من وضعهم المحزن الذي كانوا عليه. فاستمر العاصون من الناس بعنادهم وإنكارهم أمام نبيهم. وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الأمر أن يستحقوا العذاب الإلهي. وفي الختام، أتاهم الأمر بأن ينتظروا ثلاثة أيام سيأتيهم في نهايتها العذاب الشديد:

﴿...فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾
(هود، ٦٥)

وبحسب الرواية فإن هذه الأيام الثلاثة هي يوم الأربعاء والخميس والجمعة. في اليوم الأول ستصفر وجوههم. وفي اليوم الثاني ستحمر؛ أما اليوم الثالث فإنها ستسود؛ واليوم الرابع هو يوم الهلاك. وفي صباح تلك الليلة ظهرت علامات غريبة. إذ بدأ الدم يتدفق من الأرض التي كانت تسير عليها الناقة. واحمرت أوراق الشجر. وتحول ماء النبع إلى لون الدم الأحمر. واصفرت وجوه سيئي الطالع من الناس. وقال التسعة الذين قتلوا الناقه: "– إن صالحاً يسحرنا! فلنقتله وعائلته!" وتتحدث الآية الكريمة عن حيلتهم هذه فتقول:

﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (النمل، ٤٩)

وينبه صالح عليه السلام بحيلة هؤلاء المنكرين. فيترك صالح وعائلته ومن تبعه من المؤمنين تلك المدينة. وبهذا تتحقق حادثة الهجرة.

أما هؤلاء التسعة من عصابة الجاحدين، فيحاصرون منزل صالح عليه السلام ليلاً لتنفيذ خطتهم. وعندما لم يجدوا أحداً داخل ذلك المنزل تعجبوا. ومن ثم أمر اللّه تعالى جبريل عليه السلام فقتلهم رجماً بالحجارة. يقول تعالى:

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل، ٥٠)

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (الأعراف، ٧٨)

ولم يبق أحد من المنكرين أو الضالين إلا وقد هلك. وأصبحت المدينة مثل الخرابة في مشهدها.

ويترك صالح عليه السلام ومن تبعه من المؤمنين (يعتقد بأنهم كانوا أربعة آلاف) تلك البلدة. تقول الآية الكريمة:

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (هود، ٦٦)

﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (النمل، ٥٣)

وبعد أن ترك المؤمنون البلدة، احمرت وجوه المنكرين في اليوم الثاني. أما في اليوم الثالث فلقد أصبحت شديدة السواد. وكانوا ينظرون في شتى الاتجاهات يترقبون من أين سيأتيهم العذاب في خوف ودهشة. ويأمر اللّٰه تعالى جبريل عليه السلام بأن يقلب بيوتهم المنيعة التي اغتروا بها ووثقوا بها رأساً على عقب. فأصبحت بيوت القوم الظالمين في آن واحد متساوية مع الأرض. تقول الآية الكريمة:

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

(النمل، ٥٢)

وتأتي قوم ثمود صَيحةٌ كانت بحسب ما كتب عنها فخر الدين الرازي شديدة لدرجة أنها فجرت أجسامهم لشدتها وأهلكتهم. وتتحدث العديد من الآيات عن هذه العاقبة فتقول:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (المؤمنون، ٤١)

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (هود، ٦٧)

اعتقد قوم ثمود مغترين بثروتهم وأملاكهم ومساكنهم المتينة التي بنوها أنهم ناجون من العذاب. ولكن أياً من هذه الأمور لم ينفعهم عندما حل عليهم القهر الإلهي:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ. فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الحجر، ٨٣-٨٤)

عندما رفض قوم ثمود أخذ العبرة من الأقوام الذين هلكوا من قبلهم، أصبحوا هم أيضاً نموذجاً للعبرة لمن سيأتي من بعدهم.

﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الشعراء، ١٥٨-١٥٩)

وحسب ما تذكر كتب التفسير فإن هناك العديد من الأقوام الذين هلكوا بالصيحة وكان قوم صالح عليه السلام أي قوم ثمود منهم. فهم هلكوا بصيحة أتتهم من أسفل منهم فأصبحوا ظاهرين للقهر

الإلهي. ومن هذه الأقوام أيضاً قوم شعيب ﵇. وهؤلاء الآخرون عاقبهم اللَّه فسحقهم بصيحة أتتهم من فوقهم. ومنهم أيضاً كما هو مذكور في سورة يس أصحاب القرية الذين لم يؤمنوا بأنبيائهم.

ويخبر القرآن الكريم متحدثاً عن يوم القيامة بأنه سيبدأ بـ"صيحة واحدة". ولهذا، فإن هلاك هؤلاء الأقوام إن هو إلا مشهد من مشاهد يوم القيامة ويذكر به.

❁

ويوصي صالح ﵇ من آمن معه من الناس بعد هلاك قومه فيقول لهم:

" يا قوم! إن مما لا شك فيه أن هذا المكان هو مكان عذب اللَّه فيه شعبه. فهاجروا من هنا واذهبوا إلى حرم اللَّه وتمتعوا بالأمن"

وأمام هذا الأمر، أحرم المؤمنون الذين نجوا من عذاب اللَّه وركبوا النوق الحمراء وساروا في طريقهم. ووصلوا إلى مكة وهم مستمرون في التكبير طيلة ذلك الطريق.

وبعد مدة من الزمن، عاد المؤمنون إلى تلك المدينة التي أصبحت كالخربة. وشاهدوا بأم أعينهم نتيجة الجحود والإنكار الوخيمة. وشكروا اللَّه تعالى على ما رزقهم من الإيمان. ومن ثم عاد صالح ﵇ وقومه إلى المدينة التي هاجروا إليها. وبقوا إلى آخر حياتهم فيها.

أسباب هلاك قوم ثمود

١. أصروا على الكفر واستهزؤا بنبيهم.

٢. تكبروا واتبعوا أهواءهم بضلالة.

٣. اتخذوا آراءهم فوق آراء الدين. وبهذا لم يعيروا أسماعهم إلى دعوة أنبيائهم.

٤. لم يستمعوا إلى النصيحة.

٥. اتخذوا لهم موقعاً مع التسعة المشؤومين الذين قتلوا الناقة.

٦. رضخوا لأقوال النساء الفاسدات. واتبعوا أمر قدار بن سالف وميستا وعنيزة ومحيى. فكان اغترارهم بهاتين المرأتين الفاسدتين سبباً في ضلالهم.

٧. كانوا يتهمون أهل الخير بهتاناً. فكانوا يقولون لصالح عليه السلام: «لم تأتنا مصائب مماثلة قبل أن تأتي نبياً علينا!»

٨. اغتروا بملك الدنيا.

٩. نقضوا عهدهم. لأنهم طلبوا معجزة الناقة وعاهدوا على الإيمان.

١٠. خانوا الأمانة. لأنهم قتلوا الناقة التي هي أمانة اللّٰه المقدسة عندهم برغم ما أعطوه من عهد.

١١. أظهروا الرضى أمام ما قام به أهل المعصية. فقتل الناقة تسعة أشخاص، لكن الباقين لم يردعوهم عن ذلك ولم يزجروهم.

١٢. لم تكن الناقة ملكاً لأحد. فكانت وكأنها من الأوقاف. وكان حليبها كالسبيل. وكان صاحبها هو اللّٰه تعالى. ولكنهم بقتلهم الناقة قدموا إهانة كبيرة.

١٣. كان فساد تسعة أشخاص، قد تجاوز حدوده كثيراً. فكانوا يأخذون أملاك الآخرين عنوة، وكانوا يغتصبون حقوق العباد. وأصبحوا وكأنهم مركز الشر.


معان
إيلات
سيناء
مدين
تبوك
مصر
ديار ثمود
المدائن
البحر الأحمر

هلاك الأقوام

أمام دنيا الإمتحان هذه التي تتطلب منا أن نكون في صحوة جدية، نجد مع الأسف أن معظم الناس هم في غفلة نائمون. ولكن هذه الجهالة والضلالة والغفلة تجرهم إلى عاقبة من الحزن والهجران. وأصبحت الدنيا بالنسبة إليهم مكاناً للخيانة.

إن أسباب الإبتعاد عن الإيمان في هذه الدنيا الفانية التي تنتهي دائماً بالسّوءِ سواءً كانت إيجابية أو سلبية في القبر هي: عدم التفكر، الجهل، الغفلة، الشهوة، الغرق في نعم الدنيا، تقليد الغافلين، الذهنية المادية البحتة، قلة الأخلاق، وبالنتيجة إرضاخ القلب لمآرب النفس.

والتاريخ الإنساني يشهد على آيات العذاب الإلهي الذي لطالما أصاب كل جاحد ابتعد عن طريق الإيمان والأخلاق. إن أقوام نوح وعاد وثمود كانوا أُناساً متكبرين؛ وفرعون الذي جادل الأنبياء وادعى الألوهية وغرق في النهاية في اليم؛ ونمرود الذي غلب من قبل الذبابة؛ وقوم لوط الذين كانوا بمعيشتهم أدنى أخلاقية من الحيوان؛ وأمثالهم على مر التاريخ ممن ظلم وعصى، فإنهم جميعاً قد هجروا هذه الدنيا وتركوها.

يقول اللَّه تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرٰهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلٰـكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (التوبة، ٧٠)

إن تاريخ الظلم والعصيان والكفر والتمييز هو تاريخ مليء بأمثلة مدهشة من أنواع الإنتقام الإلهي. فكل من عصى وعارض الطريق الذي أشار إليه اللَّه ﷻ وأنبياؤُهُ لا بد وأن يلاقي عاجلاً أم آجلاً عذاب القدرة الإلهية الأليم وأن تتجلى أمامه العظمة الإلهية. فهذا هو القانون الإلهي الذي لا بد منه ولا يتغير أبداً.

واللَّه تعالى يرسل أنبياءه إكراماً للإنسانية وشفاءً لها مما يصيب المجتمع من جروح تحدثها الرغبات النفسانية. لكن من يغتر بزيف هذه الدنيا، ومن يبتعد عن النور الذي يفتحه الأنبياء، هم كل من أصبح كالدمار المرعب من سوء الطالع، ممن حول مجتمعه إلى سفينة محطمة، وهم من ناله الخسران معتقداً بالسعادة في سفالته، ومن قلد الحيوان في حياته غير مدرك لأسرار وحكم البعث، وبالتالي، هم من حق عليه الغضب الإلهي وهلك.

يقول القرآن الكريم:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (مريم، ٩٨)

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الروم، ٩)

تدعو الآية الكريمة إلى التفكر وأخذ العبر من النظر إلى آثار الأقوام السابقة مثل عاد وثمود الذين استخرجوا الماء والمعدن، وزرعوا الأرض وحرثوها، وأنشَؤا المدن وعمروها، ومن ثم تحولوا إلى منكرين لله فعاقبهم اللّٰه بغضب وسخط من عنده.

إن شعور «الجوع» عند الإنسان إنما هو شعور الجسد بحاجته للمواد الحياتية. وكذلك الأمر، إن توجه الناس إلى اللّٰه في أوقات الشدة، إنما ينبع من حالة الروح. عندما ألقى نمرودُ إبراهيمَ عليه السلام في النارِ ووجد أنها لا تحرقه قال:

«إنني لا أتنازل عن ألوهيتي، ولكني سأذبح أربعةَ آلاف ثور لربك!». وكذلك الأمر، عندما أدرك فرعون بأنه هالك في اليم قال: «آمنت بما آمنَتْ به بنو إسرائيل!».

وفي هذين المثالين نجد أن كلا القولين لا أهمية له. لأن ساعة الخطر بالنسبة للغافلين، وحلول الموت لأولئك المنكرين، وعودة الكافرين إلى عالمهم الداخلي وأنفسهم في الأوقات الموحشة

التي بقوا فيها دون حماية أو مواساة، هو أمر موجود في الفطرة الإنسانية يقتضيه واقعها. كم هو تخبط وانتهاء محزن نهاية من قضى حياته متمرغاً في الكفر والغفلة. وليس قول ملائكة الموت في تلك اللحظة: «أين كنت سابقاً؟» إلا علامات البداية لذلك الطريق الطويل من العذاب الأليم.

إن الموت هو إعلان لانتهاء كافة الملذات في الدنيا، ولكنه في الوقت نفسه انتهاء لكافة أنواع البيع والشراء الفانية.

لهذا، فإن الصالحين والعارفين يقتربون من الحقيقة عبر استنفاذ أنفاسهم في الحياة ذكراً وتسبيحاً. ويفلتون من الحياة الدنيا عبر إنارة أجسادهم بترويضها بشكل مستمر وداشم على الموت. وهم بذلك يسعون إلى أنواع مختلفة من التجلي في الوقت الذي يكون فيه الناس بين نائم أو في أماكن مختلفة أخرى.

وإن كان لا بد من الخوف أو الهرب من الموت، فإنه يجب علينا كلما اقترب الليل أن ترتجف أطرافنا جزعاً وخوفاً. علماً أن غوصنا في أسرار الليل لا يذهب ذلك الخوف. لأن ظهور الصباح ليس إلا جزء من القاعدة الكونية في النظام الإلهي. إذن، يجب علينا أيضاً أن نشاهد بشكل طبيعي ظهور صباح الحقيقة من أحضان الموت. يقول اللّٰه تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (فاطر، ٥)

وللحصول على الدنيا التي لا آخرة فيها، يجب علينا أن لا ننغمس حتى آخر رمق في حياتنا بزينة الدنيا ولذائذها الفانية. وكم هو حزين نهاية من يتعب نفسه بهذه الطريقة! أما الإسلام، فإنه يدعو الناس للنظر إلى الكون بعين الحكمة، ويطالبهم بالحياة ضمن أطر الإستقامة والإحساس. يقول اللّٰه تعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (المؤمنون، ١١٥-١١٦)

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ. أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

(العنكبوت، ٢-٤)

إن دين الإسلام ينظم حياة الإنسان منذ ولادته وصولاً إلى القبر، ويحضره لاكتشاف أسرار دنيا الآخرة والحقيقة الغيبية. وكم هو خسران أن يعيش المرء حياته في غفلة بدون غاية أو هدف دون أن يدرك الصلة بين الولادة والموت، ودون أن يستشعر الحكمة والعبرة من موقعه في هذه الحياة ووظيفته فيها والطريق التي سيسلكها وصولاً إلى القبر!. أليست هذه الحالة هي الضياع في خنادق الموت مخلفين جبالاً من الذكريات المحزنة؟...

عند نفاد القوة البشرية لدى الأنبياء تصلهم النصرة الإلهية ويتحقق عندها انتقام اللَّه القهار على الكافرين. لقد نفد صبر نوح عليه السلام بعد ٩٥٠ سنة، فكان كما تقول الآية الكريمة:

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ (القمر، ١٠)

إن أكثر ما يخاف منه في الدنيا وتعتبر من الحوادث التي تشكل تهديداً إلهياً هي كل ما يعبر عن الغضب الإلهي كالطوفانات، والعواصف، والزلازل والشح وغيوم العذاب المليئة بالبرق، واحتلال الأعداء، والأمراض السارية. إن هذه الأحداث التي تعتبر بأنها من «الكوارث الطبيعية» لا يمكن لها أن تكون عادية المسار وإنما هي مرتبطة بالعديد من الأسباب والحكم. فهذا النوع من الحوادث المؤلمة لا يأتي إلا بسبب معاصي وسيئات الناس. وهو ما يؤدي إلى دخول كوارث النظام الإلهي إلى حيز التنفيذ.

إن اللَّه تعالى –وحاشا لله أن يكون– ليس بظالم. أما هذه الكوارث، فإن هي إلا نتيجة طبيعية يستحقها الإنسان عندما يعلن عصيانه، ويتحدى بأفعاله قدرة اللَّه ونظامه الإلهي، وأسسه المقدسة. فعندها لا بد له من التعرف على ممارسات الإنتقام الإلهي المؤلمة.

إن القرآن الكريم يبين لنا أنَّه ما من ورقة شجرةٍ في هذه الدنيا تسقط على الأرض إلا بإذن اللَّه تعالى. وبعكس ذلك لكان الكون في فوضى فيزيائية. علماً أن ما من حادثة فيزيائية إلا وتضم في

أحشائها ألف نوع من الأسرار. وهذه الأسرار لا تتضح إلا للأنبياء وأهل القلوب الصافية.

ويحتوي القرآن الكريم العديد من الآيات الكريمة التي تتحدث عن هلاك الأمم الأولى وأسباب وحكمة هذا الهلاك. إن رب العالمين هو جَلَّ وعلا منزه عن الظلم، ولا يظلم عباده أبداً. إن الظلم هو صفة من صفات البشر وحدهم. يقول اللّٰه تعالى في القرآن الكريم:

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

(يونس، ٤٤)

إن اللّٰه تعالى برحمته التي لا حدود لها، وحلمه وصبره، يقبض بقوة على الناس عندما تصل مظالمهم إلى الحد الأقصى ويجعل منهم عبرة للعالمين:

﴿...إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود، ١٠٢)

بل إنه ليقبض عليهم ويهلكهم بطريقة لا يمكن فيها لمن يلقى هذا العذاب أن يصلح حاله أبداً. وتتحدث الآية القرآنية الكريمة عن هذه الحقيقة فتقول:

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء، ٩٥)

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾

(يس، ٣١)

إن القرآن الكريم عندما يتحدث عن قصص هلاك الأقوام السابقة، فهو يقف أيضاً عند ذكر أسباب ذلك، ويدعو من تبعهم إلى أخذ العبرة من هذه القصص. ويأتي في مقدمة هذه الأسباب الجحود أمام نعم اللّه تعالى، الفساد عند الحصول على النعم الوافرة عوضاً عن الشكر، والظلم وما شابهها من الخطايا. وفي هذا السياق تقول الآية الكريمة:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص، ٥٨)

﴿...وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (القصص، ٥٩)

﴿فَكَأَيِّنْ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ (الحج، ٤٥)

ويخبر اللّه تعالى أن كل المصائب التي يتعرض لها الناس دنيوية كانت أم أخروية، إن هي إلا نتيجة لما كسبت أيدي الناس أنفسهم، فيقول جَلَّ وعلا:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم، ٤١)

وكما نفهم من هذه الآية الكريمة، إن كل ما يظهر في هذه الدنيا، سواء أكان من أمور الطبيعة أو من الأمور الإجتماعية، من

فوضى وتبعثر وخراب، إن هو إلا بما كسبت أيدي الناس. فكل هذه الأمور لا تحصل إلا من خلال الفرط في الشرك، وسوء الأخلاق، والظلم، واتباع الأهواء النفسية. فيكون هذا الأمر كما لو أنه دعوة من اللّه تعالى للعودة إلى الفطرة الدينية والطريق الصحيح والثابت، وفي نفس الوقت عقاباً له في هذه الحياة الدنيا على ما يقومون به من سيئات. وإن لم يتوبوا ويعودوا إلى الصِراط المستقيم، فإن كفاية ودوام هذا العذاب سيأتيهم يوم القيامة، حيث سينالون العذاب الحقيقي الأساسي. وتبين لنا آية قرآنية أخرى هذه المعاني فتقول:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾(الشورى، ٣٠)

علماً أن اللّه تعالى يؤخر عقابه لعباده على ما يقترفونه من ذنوب في هذه الدنيا إلى الحياة الآخرة، حيث يقول اللّه ﷻ في القرآن الكريم:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ...﴾

(النحل، ٦١)

إن هذه المصائب التي تأتي نتيجة ما يقترفه العباد من سيئات، إن هي في كيفيتها إلا نوع من أنواع الإنذار الإلهي لهم.

إلا أن قانون اللّه تعالى مع المؤمنين المخلصين هو مختلف قليلاً عن هذا. لأن ما يتعرض له المؤمن من مصيبة أو أزمات، إن هو إلا إظهار لنقص في عبادتهم، أو كفارة لأخطائهم وسيئاتهم. ولهذا،

نجد رسول اللَّه ﷺ يقول:

"ما يصيب المسلم، من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حَزَن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يُشاكها، إلا كفَّر اللَّه بها من خطاياه"

(البخاري، كتاب المرضى، ١،٣؛ مسلم، البر، ٤٩)

إن ما يصيب العبد الذي يعمل ويسعى لمرضاة اللَّه تعالى من مِحَن، ليس مجرد كفارة لما ارتكبه من سيئات، بل هو أيضاً وسيلة يرفع اللَّه بها مقام هذا العبد عنده. ويخبرنا اللَّه سبحانه وتعالى عن أسباب تكراره لقصص الأقوام السابقة وهلاكم بأنه إيقاظ للناس وتحذير لهم وعبرة إلى يوم القيامة فيقول جَلَّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأحقاف، ٢٧)

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (القمر، ١٥)

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق، ٣٦-٣٧)

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج، ٤٦)

ولكون القلب هو المكان المركزي التي تلتقي فيه الصفات الأخلاقية والذهنية مع مختلف أنواع الأحاسيس، فإن الآية القرآنية الكريمة تشير إلى القلوب التي هي عادة ما يسبب عنادهم وإصرارهم على الصد عن سماع الحقيقة وابتعادهم عن التصرف بعقلانية.

إن اللَّه تعالى هو صاحب القدرة القاهرة التي حولت نار نَمْرود إلى حديقة للورد أمام إيمان إبراهيم ﵇، وهي التي قلبت سلطنة فرعون أمام عصى موسى ﵇، وهي التي حولت ضفاف الكعبة مقبرة لجيش أبرهة من الفيلة والجند عبر جيش من طير أبابيل الصغيرة، وهي التي قلبت مصير غيرهم من الأقوام الظالمة الكثيرة، وهي أيضاً تلك القدرة الإلهية التي فتحت أفق النصر لسيدنا محمد ﷺ وأيدته بجند لا تراها الناس من «ملائكة، وريح، وخوف».

وتحمل الأماكن التي جرى أمر اللَّه فيها آثار تلك الكوارث إلى يوم القيامة. أسرع رسول اللَّه ﷺ في حجة الوداع في سيره عندما مر بوادي مُحَسِّر بين منى ومزدلفة لهلاك ابرهة في هذا الوادي[1]

ولهذا، فإنه لا يجوز الوقوف في هذا المكان أثناء تأدية مناسك الحج.

كذلك الأمر، وأثناء غزوة تبوك، وعندما مر رسول اللَّه ﷺ مع صحابته الكرام من المكان الذي هلك فيه قوم ثمود، قال:

---

١ أنظر: مسلم، الحج، ١٤٧؛ النووي، شرح المسلم، ٨، ١٩٠؛ علي القاري، مرقاة المفاتيح، ٥، ١٧٧٤-١٧٧٥

"لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ" ثُمَّ تَقَنَّعَ بِرِدَائِهِ وَهُوَ عَلَى الرَّحْلِ (البخاري، الأنبياء، ١٧، ٣٣٨٠)

عَنْ نَافِعٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما، أَخْبَرَهُ أَنَّ النَّاسَ نَزَلُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْضَ ثَمُودَ، الحِجْرَ، فَاسْتَقَوْا مِنْ بِئْرِهَا، وَاعْتَجَنُوا بِهِ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «أَنْ يُهَرِيقُوا مَا اسْتَقَوْا مِنْ بِئْرِهَا، وَأَنْ يَعْلِفُوا الإِبِلَ العَجِينَ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَقُوا مِنَ البِئْرِ الَّتِي كَانَتْ تَرِدُهَا النَّاقَةُ»

(البخاري، الأنبياء، ١٧)

إن من الواجب علينا عدم التواجد في تلك الاماكن التي تجلى فيها الغضب الإلهي من الأماكن التي حملت بالعصيان والخطايا، ويستمر فيها ولو بشكل معنوي ذلك الغضب الإلهي، أو السير فيها بسرعة وذلك خوفاً من أن نتعرض لتأثير ذلك الغضب.

أما الكعبة وقبر سيدنا محمد ﷺ وقبور الأنبياء والمساجد والأماكن التي تواجد فيها الصالحون والصادقون فإنها أماكن تجلت فيها أنوار الفيض والرضى. ولهذا، فإن هذه الأماكن هي أماكن تتساقط فيها أمطار الرحمة المباركة والفوز إلى أفئدتنا وقلوبنا.

ولقد بدأ ذلك منذ عهد آدم، أرسل الأنبياء وأنزلت الكتب بين الفترة والأخرى، هداية للناس مما غرقوا فيه من ظلام الكفر وقلة الأخلاق. وهذا بحد ذاته رحمة كبيرة من اللّٰه وإكرام منه لعباده.

وختاماً أتى نبينا المصطفى سيدنا محمد ﷺ خاتم النبيين ومرشداً أبدياً للإنسانية. وعبر هذه المرحلة، سلك النورُ الذي أُنْزل إلى البادية طريقه نحو الأبدية.

❁

إن الدين الإسلامي يدعو الإنسانية إلى الجدية، ويذكر الناس بأنهم سيقفون أمام حضرة اللّٰه تعالى غداً بقدمون إليه الحساب عن حياتهم التي عاشوها. ولهذا السبب، يجب على المؤمن أن يبتعد عن الأعمال الفارغة، وعن النميمة والأسئلة الغير ضرورية وكل عمل يقلل من كرامته وشرفه الأخلاقي والديني. وأن يقف بعيداً عن الجاهلين فلا يجري نحو المغامرات التي لا داعي لها. وأن يبتعد عن التفاهة والخرافات والشهوانية والتيه. كما لا يجب عليه أن يمشي في أزقة الفلسفات المنحرفة المسدودة النهاية.

إن معيشة الحياة الدنيا التي تمضي بسرعة كما تمضي غيوم الصيف، بعيداً عن التفكر في الحياة الآخرة، هو أمر تافه كمن يعيش نهاره متناسياً حلول الليل. يقول مولانا قدسه اللّٰه سره:

«لا تنظر إلى الإفراط في تنمية الجلد! فهو في النهاية قربان سيلقى في التراب. بل أنظر إلى فؤادك تملؤه بينابيع الفوز. فهو الذي سيسمو ويشرف.

أعط جسدك القليل من الدهن والعسل. لأن من يغذي جسده كثيراً ينهزم أمام رغباته النفسية ويذهب في النهاية سيء السمعة والخاتمة.

أعط روحك غذاءً معنوياً. وقدم إليها تفكيراً ناضجاً، وفهماً رقيقاً، وغذاءً روحياً، لتذهب إلى حيث ستذهب قوية شديدة!.»

أسأل المولى لنا جميعاً، أن يحفظنا من الإنجرار نحو العواقب المحزنة، وأن يمن علينا دخول «جنات النعيم»!

آمين!...



حضرة إبراهيم

عليه السلام

من تحدى ظلم وتهديد نَمْرود،
ومن حَوَّلَ لهيب النّار إلى حدائق للورد

حضرة سيدنا إبراهيم

عليه السلام

ولد سيدنا إبراهيم عليه السلام في شرق مدينة بابل في المنطقة ما بين نهري دجلة والفرات. وبحسب إحدى الروايات فإن والده هو رجل مؤمن نقي اسمه طروح. وعندما توفي طروح تزوجت والدة إبراهيم عليه السلام بآزر شقيق طروح. وبالتالي فإن آزر الوثني الذي كان يعبد الأصنام هو والد إبراهيم بالتبني (زوج أمه). وبحسب رواية أخرى، فإن طروح هو الاسم القديم لوالد إبراهيم عليه السلام. وعندما بدأ يعبد الأصنام غير اسمه فأصبح آزر. وبحسب الإمام السيوطي رحمه اللَّه، فإنه يروي بناءً لحديث ابن عباس رضي الله عنهما يقول بأن آزر ليس والد إبراهيم عليه السلام وإنما هو عمه.

أرسل إبراهيم عليه السلام إلى قوم الكلدانيين. ويعتبر بأنه أفضل (أو خير) البشر بعد رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم. وكرمه اللَّه تعالى بأن وصفه بقوله

«خليلي» (يعني صديقي الخاص). ولهذا فإنه يعرف أيضاً باسم «خليل الرحمن»[١].

وأنزلت إلى إبراهيم عليه السلام عشر صحف. وهي بحسب ما يروي إلينا الصحابي الجليل أبو ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ، فإن هذه الصحف التي أنزلت على إبراهيم عليه السلام تحتوي على النصائح والعبر التالية:

"أيها الملك المسلَّط المُبتلَى المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكن بعثتُك لتردَّ عني دعوة المظلوم، فإني لا أردُّها وإن كانت من كافر، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبًا على عقله، أن يكون له ساعات: فساعة يُناجي فيها ربه، وساعة يُحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكَّر فيها في صُنع اللَّه عز وجل ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ لَا يَكُونَ ظَاعِنًا إِلَّا لِثَلَاثٍ: تَزَوُّدٍ لِمَعَادٍ، أَوْ مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ، أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ، وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ بَصِيرًا بِزَمَانِهِ مُقْبِلًا عَلَى شَأْنِهِ، حَافِظًا لِلِسَانِهِ، وَمَنْ حَسَبَ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ" (أبو نعيم، حلية، ١، ١٦٧؛ ابن أثير، الكامل، ١، ١٢٤)

---

١ لكون إبراهيم عليه السلام هو من كبار الأنبياء وأشهرهم، ولكونه أصبح كالملحمة على الألسن بتوكله وتسليميته، وزيادة على كل ذلك ما وصفه الله تعالى به بأنه "خليل الله: أي صديق الله" فإنه كان دائماً من الأنبياء المحبوبين بشكل خاص في مجتمعنا الإسلامي بحيث أن الكثير الكثير من الناس من يسمي ابنه "الخليل إبراهيم" تكنياً به u وإظهاراً لحبه واحترامه.

ومن صفات إبراهيم عليه السلام أيضاً أنه «أبو الأنبياء» (أي والد الأنبياء). فأولاده إسماعيل عليه السلام وإسحاق عليه السلام. وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو من نسل إسماعيل؛ ومن نسل إسحاق أتى أنبياء بني إسرائيل.

وذكر اسم إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم في خمس وعشرين سورة تسعة وستون مرة مختلفة. ويصفه القرآن الكريم في هذه المواضع المختلفة بالعديد من الأسماء والصفات. ومن صفاته هذه: **أواه** (كثير الآهات، متضرعاً)،

حليم (صاحب الحلم، حلو المزاج)،

منيب (متجهاً بقلبه إلى اللّٰه)،

حنيف (المبتعد عن الشرك والضلالة المتمسك بشدة بدين التوحيد)،

قانط (العابد لله)،

شاكر (الكثير الشكر).

وتأميناً لمعيشته، كان إبراهيم عليه السلام يتاجر بالقماش والألبسة قبل هجرته، ومن بعدها عمل في الزراعة أيضاً.

نَمْرود

لقد كان نمرود حاكم قبيلة الكلدانيين وكان في أول عهده حاكماً عادلاً ومنصفاً. وكان قومه يعبدون النجوم والأصنام. ومن ثم، توسعت سلطنة نمرود فأصابه الكبر وصنع أصناماً على شكله وخاطب قومه فقال لهم: «– أنا أيضاً إله. فاعبدوني!»

يروى أن نمرود شاهد في منامه نوراً يسطع في السماء ويخمد بنوره نور الشمس والقمر. وتذكر رواية أخرى أنه شاهد في منامه رجلاً يأتي غليه ويسقطه عن العرش فيقع على الأرض. فاستيقظ نمرود مضطرباً. فنادى المنجمين إلى قصره وقص عليهم منامه فقالوا له:

«- سيظهر دين جديد!. ومن سيأتي بهذا الدين سينسف ملكك ويسويه مع الأرض. فخذ حذرك منه!»

وبناءً عليه، وبحسب ما قام به من استشارات، أمر نمرود بقتل كل طفل يولد منعاً لحصول هذا التكهن. ولهذا قتل في تلك الفترة ما يزيد عن مئة ألف طفل حديث الولادة.

وفي تلك الفترة كانت أم إبراهيم عليه السلام حبلى به. فقالت لزوجها آزر عند اقتراب فترة وضعها:

«- إذهب إلى المعبد وادْعُ لي هناك! فإذا ولدت صبياً أتيتك به. فتذهب به بنفسك إلى نمرود. ويقوم هو بقتله. وبهذا تزداد مرتبتك وقيمتك عنده»

وبعد أن ذهب آزر إلى معبد الأصنام ولد إبراهيم عليه السلام. فقامت والدته على الفور بإخفائه في إحدى المغارات. وعندما عاد آزر إلى البيت أخبرته بأن الطفل ولد ضعيفاً جداً ومات على أثرها على الفور. وعند خروج آزر من البيت، ذهبت والدة إبراهيم عليه السلام مسرعة إليه. وكانت تفعل ذلك كلما سنحت لها الفرصة. وكانت في بعض

الأحيان تجد إبراهيم عليه السلام يمتص أصابعه. ذلك أن جبريل عليه السلام كان يضع بين أصابعه عصارة الزبد والعسل والحليب والتمر.

وقضى إبراهيم عليه السلام مرحلة الطفولة في المغارة، ويروى أنه عندما خرج منها بدأ بتبليغ رسالة التوحيد.

تقول الآية الكريمة:

﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرٰهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ...**﴾ (الأنبياء، ٥١)

إن الرُشْد هو أن يعرف المرء طريق الخير والصواب، وأن يميز بين الزيغ والصواب، وأن يصبر ويتمسك بطريق الحق، فيسير بشكل مباشر نحو الهدف الواضح المعلوم.

كان إبراهيم عليه السلام يقول: ما من إله غير اللَّه، هو ربي ورب كل شيء». وكانت والدته وأبوه يبكيان خوفاً من نمرود ويحاولون تحذير إبراهيم عليه السلام. فكان إبراهيم عليه السلام يرد على اضطرابهم فيقول:

«- لا تخافوا علي من نمرود أبداً. فاللَّه الذي حماني في طفولتي سيحميني في كبري أيضاً.» (ابن إياس، بدائع الظهور، ص٨٤)

ربي اللَّه

كان آزر ينحت الأصنام ويعتاش من بيعها. وكان بقية أبناء آزر أيضاً يمتدحون الأصنام طلباً لبيعها. أما إبراهيم عليه السلام فكان يأخذ ما يعطيه والده من الأصنام ليبيع، فيربطها بحبل من رقابها ويذهب إلى السوق فينادي مستهزئاً:

«هل منكم من أحد يشتري هذه الأصنام التي لا فائدة منها ولا ضرر؟» وكان يعود دون أن يشتري أحد منه أي صنم. واحتقاراً منه لهذه الأصنام كان يقوم بجرها على الأرض. ومن ثم كان يضع رأس الصنم في الماء ويقول:

«هيا! أنت عطشت، اشرب أنت أيضاً!»

إن إبراهيم عليه السلام، ودون أن يتلقى أي تعليم أو تربية من أحد، استطاع برشده الذي وهبه اللّٰه تعالى أن يكون دليلاً لنفسه إلى طريق التوحيد متآلفاً مع الحقائق الإلهية الكبرى. وتتحدث الآية القرآنية الكريمة عن معرفته بربه منذ سِني الشباب الأولى وخصوصية دعوته لقومه إلى هذه الحقيقة فيقول تعالى:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هـذَا رَبِّي هـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام، ٧٦-٧٩)

إن الحقيقة الواضحة التي تظهرها هذه الآيات الكريمة هي أنها تظهر للمشركين الذين يسجدون لغير اللّٰه، بأن الطريق الذي

يسلكونه ليس إلا طريقاً خاطئاً وإيماناً باطلاً. عندما يشاهد إبراهيم عليه السلام نجماً في السماء يقول: (هل هذا هو الذي سيكون ربي!) لقد بدأ موعظته مبتدأً من النجم الذي رآه أبعد ما يكون عليه الإله، فحاول أن يلفت انتباه القوم من حوله موجهاً هذا التعجب. ولكن وقبل أن يمضي كثير من الوقت اختفى هذا النجم فقال إبراهيم عليه السلام: «إني لا أحب الآفلين» مشيراً إلى أن المحبة هي الأساس الأول الذي يجب أن يكون بين العبد وربه، ومؤكداً في الوقت نفسه على أن الذهاب والغياب ليس صفة من الصفات التي تشير إلى وجود اللَّه، بل على العكس إن هي إلا دليل على مخلوقية هذا النجم وبالتالي زواله بعد حين. ولهذا، فإن الإعتقاد بألوهية كائنات أو أشياء كهذه، ليس إلا انحراف لا ينتهي إلا بالخسران، وكأنه يؤكد بقوله هذا على ضرورة أن يكون الرب هو القدرة الخلاقة المبدعة منذ بداية الكون.

كما أن هذا المثال يضع أمام كل إنسان عاقل مفكر بأن طريق التفكر هي التي يمكنها أن ترسو به إلى بَرِّ الإيمان والمعرفة الضرورية لوجود ووحدانية اللَّه الخالق. ولهذا السبب، ذهب بعض علماء أهل السنة إلى القول بأن كل إنسان على هذه الأرض مكلف حتى لو لم يصل الإسلام إليه بأن يؤمن بوجود اللَّه ووحدانيته وصولاً إلى بر الأمان، ولكنه لا يمكن أن يكون مكلفاً بتأدية أعمال العبادة المذكورة في الإسلام لعدم وصولها إليه.

دعوة التوحيد

بعد إدراكه للحقائق الإلهية، وبعد أن مَنَّ اللّه تعالى عليه بعلم عن الذات الإلهية لا تعطى لأي كان، بدأ إبراهيم ﷺ دعوته للتوحيد متوجهاً في البداية إلى أبيه آزر. فقال له بنوع من اللطف واللين:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا. يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا. يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ (مريم، ٤٢-٤٥)

فغضب آزر منه وقال:

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ (مريم، ٤٦)

لكن إبراهيم ﷺ خاطب أباه مرة أخرى بأسلوب لين ورقيق فقال يرد عليه:

﴿قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ (مريم، ٤٧)

ودَعَا ربَّه يطلب الغفران لأبيه. لكن دعاءه لم يستجب. لأن أباه كان عدواً لله. وعندما أدرك إبراهيم ﷺ هذا الأمر توقف مباشرة

عن الدعاء لأبيه. ذلك أن الدعاء للكافر لا يمكن أن يكون بالغفران، وإنما يجب أن يكون دعاء بالهداية. يبين القرآن الكريم هذا الأمر فيقول:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ. وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرٰهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرٰهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة، ١١٣-١١٤)

ويتحدث القرآن الكريم مراراً وتكراراً عن مجادلة إبراهيم عليه السلام لقومه وأبيه، وقوله لهم بخطأ طريق الشرك الذي هم فيه ذاهبون، ودعوته لهم إلى إيمان التوحيد مستخدماً أدلة العقل والمنطق. ويروي القرآن الكريم إحدى هذه المحاورات بين إبراهيم عليه السلام ومن لم يؤمن من قومه وأبيه، فيقول:

﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ. قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ. قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ. قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ. قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (الأنبياء، ٥٢-٥٦)

تحطيم إبراهيم عليه السلام للأصنام

كانت قبيلة الكلدانيين تجتمع يوماً في السنة وتحتفل فيه. فيقول آزر لإبراهيم عليه السلام:

«- تعال معنا أنت أيضاً اليوم لنحتفل بهذا العيد!».

ويتحجج إبراهيم عليه السلام في الطريق بالمرض ويعود. ومن ثم يذهب إلى معبد الأصنام. وكان فيه من الأصنام أنواع مختلفة من الفضة، والنحاس والخشب. وكان الناس يضعون أمام كل منها أنواعاً مختلفة من الطعام تبركاً بها. وكان كبير هذه الأصنام موضوعاً على عرش مصنوع من الذهب. أما ثيابه فكانت مطلية بالذهب، وعلى رأسه تاج.

حطم إبراهيم عليه السلام كل هذه الأصنام مستخدماً الفأس إلا ذلك الصنم الكبير. ومن ثم علق ذلك الفأس على رقبة ذلك الصنم الأكبر. وعندما حل المساء، عاد أهل قبيلة الكلدانيين إلى معبد الأصنام من موقع العيد، فصدموا كثيراً أمام ما رأوه من مشهد فيه. وتخميناً منهم قالوا:

«- لا يفعل هذا الأمر أحد إلا إبراهيم!». فما كان منهم إلا أن بحثوا عن إبراهيم وقالوا له:

«- أأنت من فعل هذا؟»

فأجابهم إبراهيم عليه السلام بقوله:

«-إن كبير الأصنام كان لا يريد أن يعبد أحد سواه. ولهذا غضب على الآخرين غضباً شديداً. فلعله في النهاية قرر تحطيمهم بالفأس ومن ثم علقها على رقبته. إن شئتم إسألوه هو أيضاً! وليخبركم هو بذلك الأمر!»

فأجابه القوم عبدة الأصنام:

«-إن الأصنام لا تتكلم!»

وبناءً على جوابهم هذا، قال لهم إبراهيم عليه السلام:

«-إذن، كيف لأشياء لا يمكنها أن تدافع حتى عن أنفسها أن تدافع عنكم؟ أفلا تعقلون؟»

يروي لنا القرآن الكريم تفاصيل هذه الحادثة فيقول:

﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ. مَا لَكُمْ لاَ تَنْطِقُونَ. فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ (الصافات، ٩١-٩٣)

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ. قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ. قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرٰهِيمُ. قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ. قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرٰهِيمُ. قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ. فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ. ثُمَّ

نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاَءِ يَنْطِقُونَ. قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ. أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء، ٥٨-٦٧)

ومن خلال هذه الأجوبة التي صرح بها إبراهيم ﷺ، ازداد الناس قناعة بأنه هو من حطم هذه الأصنام. وعوضاً عن العودة إلى اللَّه تعالى من خلال رؤيتهم لعجز تلك القطع من الحجارة، لم يتمكن عبدة الأصنام لسوء طالعهم من استيعاب هذا الأمر، وصبوا غضبهم على سيدنا إبراهيم ﷺ، فقالوا:

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء، ٦٨)

إلقاء إبراهيم ﷺ في النار

أخبر عبدة الأصنام نمرود بما جرى من أمر. فدعى نمرود إبراهيم ﷺ إليه. وكان كل من يأتي لحضرة نمرود يسجد في بادئ الأمر أمامه. أما إبراهيم ﷺ فإنه دخل ولم يسجد له. وعندما سأل نمرود فضولاً وغضباً عن سبب ذلك أجابه:

«-لا أسجد لأحد إلا للذي خلقني وخلقك!»

فقال نمرود:

«-من هو ربك؟» فأجابه إبراهيم:

«- إن ربي هو اللَّه الذي يحيي ويميت»

فقال نمرود:

«– أنا أيضاً أحيي وأميت.» ومن ثم أمر بإحضار اثنين من السجن. فقتل أحدهما وعَفَا عن الآخر. ثم قال:

«– أرأيت؟ أنا أيضاً أقوم بمثل هذا الأمر»

لكن نمرود بطيشه وقلة عقله لم يكن يدرك أن الإحياء هو نفخ الروح، وأن الإماتة هي سحب هذه الروح. قال له إبراهيم:

«–إن ربي يأمر الشمس فتشرق من الشرق. فإن كانت قوتك كافية فأمرها تشرق من الغرب!.»

يروي القرآن الكريم تفاصيل هذه الحادثة بقوله:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرٰهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرٰهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِـي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِـي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرٰهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة، ٢٥٨)

إن هذه الآية الكريمة تتحدث عن حجد نمرود وشهوانيته وإعلانه للحرب على اللّه جَلَّ وعلا. ويروي الإمام البيضاوي بأن نمرود كان أول أحمق على وجه الأرض يَدَّعِي الألوهية. فكان منكراً لله، وجاحداً له عوضاً عن أن يشكره على ما من عليه من مال وملك.

وهناك روايتان مختلفتان تتحدثان عن قصة لقاء إبراهيم عليه السلام بنمرود:

١ - عندما حطم إبراهيم عليه السلام الأصنام حبسوه. ومن ثم أحضروه إلى نمرود بهدف إحراقه.

٢ - أصاب الناس في إحدى السنوات قحط. فكان نمرود يوزع الطعام على شعبه. وكان يسأل كل من يأخذ من هذا الطعام:

«- من ربك؟» ولكنه عندما وصل إلى إبراهيم عليه السلام، أجابه:

«- إن ربي هو الذي يبعث فيحيي ويميت!»

ويغضب نمرود لهذا القول. ويمنع عن إبراهيم الطعام. ومن ثم يجمع أعوانه يستشيرهم في العقاب الذي يجب أن يعطيه له. ثم قرروا أن يحرقوه في النار، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ:

أَشَارَ بِتَحْرِيقِهِ رَجُلٌ مِنْ أَعْرَابِ فَارِسَ، كَانَ اسْمُهُ هِيزَنَ فَخُسِفَ بِهِ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. (ابن الأثير، الكامل، ١، ٨٩)

وقبل هذا الإقتراح. وبدأت التحضيرات إعداداً لهذه النار. فحمل الحطب إليها شهراً كاملاً. وكان الناس جهلاً وحماقة يقولون:

"- إن هذا الإنسان يخرج ويتحدى أصنامنا!" فيخرجون متطوعين لجمع الحطب. وجمع الحطب فصار كالجبل. وكان لهيب هذه النار يصل إلى السماء. ولا تستطيع حتى الطيور أن تطير من حولها لشدة حرها.

وعندما انتهت كل هذه التحضيرات، تجمع الناس حول هذه النار. وأحضر إبراهيم عليه السلام إلى هناك مربوط الأيدي ومكبل الأرجل. ولكن هذا النبي العظيم، وعلى الرغم من أنه كان في موقف شديد جداً، إلا أنه ولكونه "خليل اللّه"، كان على قدر كبير من التسليم والتوكل. ولم يأت قلبه ذرة من الخوف أو القلق.

وفي تلك الأثناء، كان نمرود وجماعته يتشاورون حول كيفية إلقائه في النار. وأخيراً، قرروا إلقاءه فيها باستخدام المنجنيق.

وكان الملائكة في الأرض والسماء في حيرة كبيرة من أمرهم، فقالوا متضرعين: "- إلهي! إن إبراهيم أكثر الناس ذكراً لك يلقى في النار! إنه نبيك الذي لم يغفل عنك آناً واحدة! أتأذن لنا أن نتقدم لمساعدته يا اللّه؟"

وعندما أذن اللّه تعالى للملائكة بالذهاب لمساعدته قدم إليه أحد الملائكة فقال له:

"- لقد أعطيت أمر الرياح. إن شئت فرقت جمع هذه النار!"

وقال له ملك آخر:

"- أعطيت أمر الماء. فإن شئت أطفأت لك هذه النار في لحظة واحدة!"

وقال ملك آخر:

"- أعطيت أمر التراب. فإن شئت ابتلعت الأرض هذه النار"

فأجابهم إبراهيم عليه السلام بقوله:

«- لا تدخلوا بين الخليل وخليله! فإني راض بما يشاؤه ربي! فإن أنقذني فمن لطفه. وإن حرقني فمن خطئي. وأنا إن شاء اللَّه من الصابرين!» (انظر، أحمد، الزهد، ص ٨٠؛ الطبري، التاريخ، ١، ص٢٤٢؛ ابن الأثير، الكامل، ١، ٨٩-٩٠)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: " كَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ: (حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ) (البخاري، التفسير، ٣/ ١٣)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، «قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ» حِينَ قَالُوا: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا، وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ} (آل عمران: ١٧٣) (البخاري، التفسير، ٣/ ١٣)

وعندما كان إبراهيم عليه السلام على وشك الإلقاء في النار، أتاه جبريل عليه السلام وقال له:

«-أَلَكَ حَاجَةٌ يَا إِبْرَاهِيمُ؟». فرد عليه إبراهيم عليه السلام وقال:

«-إِلَيْكَ فَلَا»

فسأَله جبريل عليه السلام في حيرة قائلاً:

« -لماذا لا تطلب الخلاص من اللَّه؟». فقال مجيباً:

«-هو أعلم بحالي! من الذي يأمر النار فتشتعل؟ ومن يأمرها فتحرق؟» (انظر: ابن الأثير، الكامل، ١، ٩٠)

ويرضى اللَّه سبحانه وتعالى عن استغناء إبراهيم عليه السلام حتى عن الملائكة وبجعله طلبه كاملاً من اللَّه وحده، فيقول في القرآن الكريم مثنياً عليه:

﴿وَإِبْرٰهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (النجم، ٣٧)

كما يقول اللَّه سبحانه وتعالى عنه:

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة، ١٣١)

فيخبر بذلك عن روح التسليم التي تقدم وتلطف بها.

تحول النار إلى حديقة للورد

وأمام تسليم خليل اللَّه إبراهيم عليه السلام بهذه الرفعة والتوكل على الحق سبحانه وتعالى وحده، يأمر اللَّه تعالى النار قبل أن يصل إليها، فيقول:

﴿...يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرٰهِيمَ﴾ (الأنبياء، ٦٩)

وَقِيلَ: نَادَاهَا جَبْرَائِيلُ، فَلَوْ لَمْ يَتْبَعْ بَرْدَهَا سَلاَمٌ لَمَاتَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ شِدَّةِ بَرْدِهَا، فَلَمْ يَبْقَ يَوْمَئِذٍ نَارٌ إِلَّا طُفِئَتْ ظَنَّتْ أَنَّهَا هِيَ. (ابن الأثير، الكامل، ١، ٩٠)

ومن خلال هذا الأمر، يتحول المكان الذي سقط فيه إبراهيم بلحظة إلى حديقة للورود. كما ينفجر هناك نبع للماء الحلو ويبدأ

بالتدفق. وبحسب إحدى الروايات، يتنزل عليه من الجنة قميص، ويلبسه إبراهيم عليه السلام. ومن ثم ينتقل هذا القميص منه إلى إسحق عليه السلام، ومنه إلى يعقوب عليه السلام، ومن ثم أخيراً إلى يوسف عليه السلام. وهو القميص نفسه الذي أرسل به يوسف عليه السلام إلى أبيه يعقوب عندما عميت عيناه فكان وسيلة لإعادة بصره ورؤيته مرة أخرى.

أمام هذا الأمر، تعجب نمرود وتحمس، وقال:

«- يا إبراهيم! أرى أن إلهك كبير جداً، وأن عزته وقدرته هي إلى درجة تحميك من الأذى. يا إبراهيم! ما أجمله ربك من رب! انى ذابح له أربعة آلاف بقرة!»

فيقول له إبراهيم:

«- لا قيمة لهذه القرابين ما لم تعد عن شذوذك وتؤمن بالوحدانية.»

ولكن نمرود يقول:

«-لا أستطيع فداء ملكي وسلطنتي! ولكني على الرغم من ذلك سأذبح هذه القرابين!» وذبح بالفعل أربعة آلاف ثور. وأقلع عن محاربة إبراهيم عليه السلام. لكن حبه للرئاسة (أن يكون رئيساً)، وكبره، وغروره وعناده كانت أسباباً في عدم إيمانه، فكان من الخاسرين. وأمام ما كان من معجزة إلهية علنية، آمنت مجموعة من عبدة الأصنام فكانوا بذلك من الرابحين. (انظر: الدِّيار بَكْري، تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، دار صادر-بيروت، ١، ٣٨)

ويذكر إبراهيم عليه السلام بعد أن نجا من نار نمرود بمشيئة اللَّه تعالى من بقي على كفره من الناس بالعذاب الإلهي فيقول:

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْويكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (العنكبوت، ٢٥)

هجرة إبراهيم عليه السلام

بعد حادثة الرمي في النار، يأمر اللَّه عز وجل إبراهيم ومن آمن معه من الناس بالهجرة ليتمكنوا من العبادة براحة، وحماية لهم من العذاب الإلهي الذي سيرسله اللَّه على نمرود وشعبه من الكلدانيين. ولهذا يقرر إبراهيم ومن آمن معه من الناس الإبتعاد عن قومهم والهجرة. ويروي جناب الحق عز وجل حالتهم هذه ممتدحاً فيقول:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ...﴾ (الممتحنة، ٤)

وهكذا، أخرج اللَّه خليله والمؤمنين إلى السلامة والأمان:

﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

(العنكبوت، ٢٦)

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء، ٧١)

ونبي اللّه لوط هو ابن أخ سيدنا إبراهيم عليه السلام. وبالنظر لكونه من الأنبياء، فإنه لا يمكننا أن نعتقد بأنه كان على الكفر ومن ثم آمن. ولهذا، فإن هذه الآية الكريمة التي تشير إلى إيمان لوط عليه السلام، إنما تشير إلى أن لوطاً عليه السلام هو أول من صدق برسالة إبراهيم عليه السلام.

وهاجر إبراهيم عليه السلام إلى بابل، ومن هناك أيضاً هاجر لوط عليه السلام مع سارة وجمع من المؤمنين إلى قرية في جنوب مدينة أورفه تسمى حران[1]. وكان لوط ابن أخيه، وكانت سارة ابنة عمه.

واستجابة لأمر ربه، تزوج إبراهيم عليه السلام من سارة. وكانت سيدتنا سارة امرأة صالحة ذات أخلاق حميدة. وكانت مطيعة بشكل كامل لإبراهيم عليه السلام.

كذلك الأمر، واستجابة لأمره تعالى، يهاجر إبراهيم مرة أخرى مع زوجته سارة إلى الشام، ومنها إلى مصر. ويهاجر لوط عليه السلام إلى منطقة تسمى سدوم نبياً. (سدوم، هي المكان الذي يوجد فيه بحيرة لوط. ويقال عنها "المؤتفكة» في الآية القرآنية الكريمة لأن اللّه تعالى قلبها رأساً على عقب).

وكانت مصر في تلك الفترة تحكم من قِبَل عائلة الفراعنة وكانت هذه العائلة متكبرة وظالمة. فكانوا كلما مرت امرأة جميلة

---

١ تأخذ حرّان في تركيا اسمها نسبة إلى أخ إبراهيم عليه السلام حرّان الذي كان أول من أنشأها وعاش فيها.

من حدود مصر أبلغوا فرعون عنها مباشرة. فإن كانت متزوجة يقتل زوجها، وإن كان لها أخ تطلب هذه المرأة منه.

ولهذا، عندما مر إبراهيم عليه السلام مع زوجته سارة من حدود مصر، وصل هذا الخبر أيضاً إلى القصر. وأخبر أن امرأة ذات حسن وجمال دخلت إلى مصر. وعندما سُئِل إبراهيم عليه السلام عن علاقته بسيدتنا سارة قال بأنها «أختي» بمعنى «أختي في الدين».

ولهذا، لم يقترب أحد من إبراهيم عليه السلام. وأخذوا سارة واتجهوا بها إلى القصر. وبهذا الشأن يروي لنا البخاري حديثاً عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم:

"هَاجَرَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام بِسَارَةَ، فَدَخَلَ بِهَا قَرْيَةً فِيهَا مَلِكٌ مِنَ المُلُوكِ أَوْ جَبَّارٌ مِنَ الجَبَابِرَةِ، فَقِيلَ: دَخَلَ إِبْرَاهِيمُ بِامْرَأَةٍ هِيَ مِنْ أَحْسَنِ النِّسَاءِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ: أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ مَنْ هَذِهِ الَّتِي مَعَكَ؟ قَالَ: أُخْتِي، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهَا فَقَالَ: لاَ تُكَذِّبِي حَدِيثِي، فَإِنِّي أَخْبَرْتُهُمْ أَنَّكِ أُخْتِي، وَاللَّهِ إِنْ عَلَى الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ، فَأَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ فَقَامَ إِلَيْهَا، فَقَامَتْ تَوَضَّأُ وَتُصَلِّي، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ، وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي، إِلَّا عَلَى زَوْجِي فَلاَ تُسَلِّطْ عَلَيَّ الكَافِرَ، فَغُطَّ حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ "، قَالَ الأَعْرَجُ: قَالَ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: " قَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتْ يُقَالُ هِيَ

قَتلَتْهُ، فَأُرْسِلَ ثُمَّ قَامَ إِلَيْهَا، فقَامَتْ تَوَضَّأُ تُصَلِّي، وَتَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي إِلَّا عَلَى زَوْجِي، فَلاَ تُسَلِّطْ عَلَيَّ هَذَا الكَافِرَ، فَغُطَّ حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِه"، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: "فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتْ فَيُقَالُ هِيَ قَتَلَتْهُ، فَأُرْسِلَ فِي الثَّانِيَةِ، أَوْ فِي الثَّالِثَةِ، فقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَرْسَلْتُمْ إِلَيَّ إِلَّا شَيْطَانًا، ارْجِعُوهَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، وَأَعْطُوهَا **آجَرَ**[١] فَرَجَعَتْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﵇، فَقَالَتْ: أَشَعَرْتَ أَنَّ اللَّهَ كَبَتَ الكَافِرَ وَأَخْدَمَ وَلِيدَةً"

(البخاري، البيوع، ١٠٠؛ أحمد، ٢، ٤٠٣)

وفي رواية أخرى:

"...فَلَمَّا دَخلَتْ عَلَيْهِ ذَهَبَ يَتَنَاوَلُهَا بِيَدِهِ فَأُخِذَ، فقَالَ: ادْعِي اللَّهَ لِي وَلاَ أَضُرُّكِ، فَدَعَتِ اللَّهَ فَأُطْلِقَ، ثُمَّ تَنَاوَلَهَا الثَّانِيَةَ فَأُخِذَ مِثْلَهَا أَوْ أَشَدَّ، فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ لِي وَلاَ أَضُرُّكِ، فَدَعَتْ فَأُطْلِقَ، فَدَعَا بَعْضَ حَجَبَتِهِ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ لَمْ تَأْتُونِي بِإِنْسَانٍ، إِنَّمَا أَتَيْتُمُونِي بِشَيْطَانٍ، فَأَخْدَمَهَا هَاجَرَ، فَأَتَتْهُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ: مَهْيَا، قَالَتْ: رَدَّ اللَّهُ كَيْدَ الكَافِرِ، أَوِ الفَاجِرِ، فِي نَحْرِهِ، وَأَخْدَمَ هَاجَرَ" (البخاري، الأنبياء، ٩؛ مسلم، الفضائل، ١٥٤)

---

١ **آجر**: هي هاجر أم إسماعيل ﵇.

يأمرنا اللّٰه سبحانه وتعالى عباده بطلب العون منه صابرين ومتوسلين إليه بأعمالنا الصالحة فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلوةِ...﴾ (البقرة، ١٥٣)

ولهذا، فإن سيدتنا سارة تمكنت من النجاة نتيجة لجوئها لله تعالى وذلك من خلال صلاتها وصبرها.

وأحبت ابنة فرعون حورية سيدتنا سارة جداً فأهدتها بعضاً من مجوهراتها. وعندما رأى إبراهيم عليه السلام هذه المجوهرات قال لها:

«-خذي هذه وأعيديها، فهي لا تلزمنا». فأخذتها سارة وأعادتها. وعندما أخبرت حورية والدها بذلك، تعجَّبَ فرعون وقال:

«- لا بد أنهم قوم شرفاء ومتميزون. ويأتون من نسل نقي وأصيل».

ومن مصر يعود إبراهيم عليه السلام وزوجته سارة وهاجر إلى فلسطين. وسكنوا في مكان هاديء وساكن يسمى السَّبْعَ . وحفر فيه إبراهيم بئراً. فخرج منه ماء براق عذب وشفاف. وبعد مدة، لم يبق لديهم من الطعام شيء. فأخذ إبراهيم عليه السلام طريقه إلى المدينة. وبينما هو في الطريق فكر. وعاد لأنه لم يكن يمتلك المال. ولكي لا تقلق سارة وهاجر فجأة، أخذ كيسه وملأه بالتراب والحجارة.وترك الكيس ونام مباشرة.

فقالت سارة لهاجر: «-إفتحي الكيس!»

لقد تحول ما فيه إلى قمح. فطحنتاه وصنعتا منه طحيناً وخبزتا الخبز. وعندما استفاق إبراهيم تعجب لذلك جداً وشكر ربه.

ومع مرور الزمن، حلت البركة على بلدة السَّبْعَ ، وكثرت نعم اللَّه فيها. وأتى إليها الذاهب والقادم وسكن فيها واكتظ أهلها. ولكنهم في النهاية جحدوا وأنكروا إبراهيم عليه السلام وأرادوا منعه من الماء الذي حفر بئره بنفسه. فغضب خليل اللَّه غضباً شديداً. وأمام غضب نبي اللَّه بهذا الشكل جفَّ الماء. وبدأ عهد من قلة الماء.

وعندما رأى الغافلون هذا الأمر ندموا كثيراً. واعتذروا لإبراهيم عليه السلام على ما كان منهم من غفلة. وطلبوا منه الدعاء ليغفر لهم. وقبل منهم إبراهيم عليه السلام لما لديه من حلم كثير، والتجأ إلى الحق سبحانه وتعالى فعادت المياه وافرة كما كانت عليه. (انظر: ابن الأثير، الكامل، ١، ٢٩)

هلاك نمرود وقبيلة الكلدانيين

بعد هجرة إبراهيم عليه السلام إلى بابل، سلط اللَّه سبحانه وتعالى على من لم يؤمن من قوم الكلدانيين تكبراً وغروراً، قُطْعاناً من الذباب بكثرة كحبات الرمل. فشربت دماء عبدة الأصنام. فهلك الناس الخاسرون بعد أن نشفت أجسادهم. ودخلت ذبابة من أنف نمرود وصولاً إلى دماغه. فظل نمرود المغرور يطرق رأسه

بالمطرقة لشدة ألمه. وأخيراً، وبضربة أتت بسرعة تحطم رأسه.

تتحدث الآية في القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (الأنبياء، ٧٠)[١]

وبالتالي، وفي عبرة للإنسانية جمعاء، تحول نمرود ومن معه من القوم الخاسرين بسبب ما تبعوه من كبر وغرور بسلطنة الدنيا، إلى «إنسان جاف» بسبب امتصاص الذباب الكثيف الذي امتص دماءهم.

إحياء الطير

قال إبراهيم عليه السلام:

«يا ربِّ، أريد أن أرى بعين الدنيا تجلي قدرتك في إحياء الموتى!»

ويروي القرآن الكريم هذه الحادثة بقوله:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة، ٢٦٠)

لقد أراد إبراهيم عليه السلام أن يشاهد كيف يمكن إحياء الميت مرة

١ أنظر: الصافات، الآية ٩٨

أخرى، فطلب من ربه أن يريه ذلك. فأجابه اللَّه تعالى، كما هو مذكور في الآية الكريمة، بمثال مادي دون أن يوضح له ماهية هذا البعث. لأن قدرة العلم الإنساني ليست كافية لاستيعاب حقيقة البعث من جديد بشكل كاف ولائق. ولهذا نجد في ما سبق هذه الآيات، أن هذه الأمور التي أعطيت للأنبياء لم تكن إلا معجزات لهم. وما يهم في هذا الأمر هو الإيمان تأكيداً بأن اللَّه تعالى سيبعث كل الخلق من جديد فيحاسب كل إنسان على أعماله.

ومما لا شك فيه أيضاً، أن اللَّه الذي هو قادر على كل شيء، وكما هو قادر على البعث والإحياء بنفسه بالطريقة التي يشاؤها، هو قادر أيضاً على فعل ذلك من خلال أيدي عباده. والحادثة التي نروي عن سيدنا إبراهيم عليه السلام هي مثال على تحقق قدرة اللَّه هذه من خلاله عليه السلام. ومن المؤكد أيضاً أن إبراهيم عليه السلام الذي يقول:

﴿...رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ...﴾ (البقرة، ٢٥٨)

والذي قال بعدها لربه "يا ربي" "يا من بيده قدرة الإحياء والموت!"، هو عندما يخاطب ربه بقوله: "أرني كيف تحيي الموتى» هو وكأنما يقول له سبحانه جَلَّ وعلا: «أعلم أنك تحيي الموتى، ولكن لأني لا أعلم كيف تقوم بذلك، فهل تمن علي برؤية هذه الحقيقة وهذا الإحياء أمامي؟ أرجو أن تريني ذلك».

وأمام هذا الطلب الذي تقدم به إبراهيم عليه السلام لربه، يخاطبه ربه

محذراً: «أولم تؤمن لي؟»، فيرد عليه إبراهيم عليه السلام بقوله: «كلا يا ربي! بل آمنت بك، ولكن، وكما مننت علي بالحياة بمشيئتك، فأنت قادر أيضاً على أن تريني كيف تبعث الموتى، وما أريد ذلك إلا اطمئناناً لقلبي، ولكي أريح قلبي المتعطش بشوق الإيمان وحرارة الأمل، فأنتقل به من درجة الإيمان اليقيني (القاطع)، إلى درجة المشاهدة والرؤية». مؤكداً على أن ما يبتغيه من هذه الرؤيا هو تنقية قلبه من أي نوع من أنواع الشوائب أو النقص، لكي يتمكن عبر ذلك من الوصول إلى «مقام حلي» (مقام المحبة من عمق الفؤاد) ولكي يتمكن أن يكون بحق «خليل اللّٰه».

إن وظيفة العقل الأولى هي الإيمان باللّٰه. لكن العقل يبحث في كل أمر عن مصدر وعن نقطة انطلاق وعن دليل. يجب على المرء التسليم بعزة اللّٰه تعالى، والإلتصاق به بقبضة متينة، والإمتثال لحكمته تعالى.

وهناك روايات متعددة حول طلب إبراهيم عليه السلام من اللّٰه عز وجل أن يريه كيف يحيي الموتى. فبحسب الرواية التي جاء بها سعيد بن جبير أن اللّٰه تعالى عندما جعل من إبراهيم عليه السلام «خليلاً» له، جاءه جبريل عليه السلام يزف إليه هذه البشرى، فسأله إبراهيم عليه السلام:

«وما هي علامة ذلك؟» فقال له جبريل عليه السلام:

«- إن اللّٰه تعالى يقبل دعاءك. ويمكنك من خلال دعائك أن

تحيي الموتى». فكان من إبراهيم عليه أن سأل ربه قائلاً مناجياً:

«- يا ربي، أرني كيف تحيي الموتى!».

وفي تفسير حزين يوجد هذا الإيضاح:

يجد إبراهيم عليه السلام على ضفة النهر حيواناً ميتاً. فكانت الأسماك تأكل منه وهو في الماء، وعندما تأتي موجة تقذف به إلى ناحية اليابسة تأكله حيوانات البر. وأمام هذا الوضع الغريب، يجلس خليل اللَّه يفكر في كيفية جمع اللَّه تعالى لكل هذه الأشلاء التي تبعثرت في الماء وأجواف الحيوانات. وأثناء ذلك، يجري بينه وبين اللَّه تعالى ما كان من قصة.

أما أبو السعود أفندي، فيروي تلك القصة في تفسيره فيقول:

يقول نمرود لإبراهيم عليه السلام:

«-هل رأيت بأم عينك إعادة البعث من خلال إعادة الروح، وأخذ الروح بقبضها؟»

فيسكت إبراهيم عليه السلام، وتتحقق بعد ذلك مباشرة ما كان من قصة معبرة. يأخذ إبراهيم عليه السلام دجاجة، وحمامة وديكاً وغراباً بناءً لما أمره اللَّه جل جلاله به. ويقطع هذه الطيور الأربعة إلى أجزاء متعددة. ويخلطها جميعها ببعضها البعض. ويقسمها إلى أربع أجزاء يضع كل جزء منها على تلة من التلال. ثم ينادي عليها. فتطير جميعها قادمة إليه.

نَزَلَتْ فِي أُبَيِّ بْن خَلَف الْجُمَحِيِّ خَاصَمَ النَّبِيَّ ﷺ فِي إِنْكَار الْبَعْثِ، وَأَتَاهُ بعَظْم قَدْ بَلِيَ فَفَتَّتَهُ بِيَدِهِ، وَقَالَ: أَتُرَى يُحْيِي الله هذا بعد ما رَمَّ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

"نَعَمْ وَيَبْعَثُكَ وَيُدْخِلُكَ النَّارَ" فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ (تفسير البغوي، ٧، ٨٢؛ الواحدي، أسباب النزول، ص ٩٧٣)

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس، ٧٧-٧٩)

ويبين المفسر البيضاوي حكمة اختيار هذه الطيور الأربعة فيقول: «كان اختيار الدجاجة في إشارة إلى ضرورة كسر شوكة النفس وإضعاف حديثها عن اللذة وزينة الحياة الدنيا. واختيار الديك لما هو معروف عنه من صفة الغضب لديه إشارة إلى ضرورة كبح الغضب الذي هو عادة السبب الرئيسي في الثورة والهجوم بشدة والعدوانية. واختيار الغراب الذي هو مضرب المثل في الصفات الذميمة كالحسد وغياب الكرامة في إشارة إلى ضرورة الإبتعاد عن مثل هذه الصفات الذميمة. واختيار الحمام في إشارة لضرورة إزالة هوى النفس وهوسها. وبالتالي، فإن هذه القصة تؤكد لكل من أراد أن يبعث في الحياة الأبدية أن عليه أن يعمل على تربية رغبات نفسه وأن يوجهها نحو الخير مستخدماً طريق إرضاء الحق جَلَّ وعَلا».

زواج إبراهيم عليه السلام بأمِنا هاجر

لم يرزق إبراهيم عليه السلام أولاداً من سيدتنا سارة. وكانوا يتقدمون بالسن شيئاً فشيئاً. فقامت سيدتنا سارة بتحرير جاريتها هاجر وزوجتها لإبراهيم عليه السلام. وبنتيجة هذا الزواج ولد إسماعيل عليه السلام. وانتقل النور المحمدي إلى إسماعيل عليه السلام.

وكانت سيدتنا سارة تعتقد بأن هذا النور سينتقل إلى ولد من صلبها. فحزنت لذلك كثيراً. وطلبت من إبراهيم عليه السلام أن ينتقل بسيدتنا هاجر إلى بلدة أخرى. فقام سيدنا إبراهيم عليه السلام بناءً لأمر ربه تعالى بالانتقال بسيدتنا هاجر وولدها سيدنا إسماعيل عليه السلام إلى مكة التي كانت بلدة في الصحراء خاوية.

وكان جبريل عليه السلام دليله في هذه الرحلة. حَتَّى أَتَى مَكَّةَ فَقَالَ جِبْرِيلُ: انْزِلْ يَا إِبْرَاهِيمُ

قَالَ: حَيْثُ لَا ضَرْعَ وَلَا زَرْعَ؟

قَالَ: نَعَمْ، هَاهُنَا يَخْرُجُ النَّبِيُّ الَّذِي مِنْ ذُرِّيَّةِ ابْنِكَ الَّذِي تَتِمُّ بِهِ الْكَلِمَةُ الْعُلْيَا (ابن سعد، ١، ١٦٤)

ويروي ابن عباس رضي الله عنه هذه القصة كما وردت في صحيح البخاري فيقول:

«أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ المِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ البَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ، فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى المَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الوَادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلاَ شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لاَ يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لاَ يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ البَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاَءِ الكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلوٰةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم، ٣٧) (البخاري، الأنبياء، ٩)»

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هـٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة، ١٢٦)

إن اللّه تعالى يرزق أيضاً الكافرين في هذه الدنيا، ويمكنهم من الإستفادة من نعم الدنيا كيفما شاءوا. ولهذا، فإن الحصول على نعم الدنيا، ليس مرتبطاً بالتدين. فالنعمة تعطى لكلا المؤمن والكافر. ونِعَمُ الدنيا هي نوع من أنواع الإمتحان. ولا يعرف خيرها أو شرها إلا عند نتيجتها. فإن كانت الثروة والملك هي وسيلة للعبادة، فإنها تكون إذاً سعادة في الدنيا والآخرة. وإن كانت سبباً في الضلال والشقاء، فإنها تكون حينها سبباً في خراب الحياة الآخرة، وبالتالي تكون كارثة لا سعادة.

قَبِل اللّه ﷻ دعاء إبراهيم عليه السلام الذي دعاه به. وبخير هذا الدعاء، أصبحت هذه البلدة تمتليء بمحبة أفئدة المؤمنين الذين يحجون إليها ويعتمرون، وتمتليء فيها أرواحهم بالراحة والسكينة. كما تمتليء هذه البلدة الطيبة بالتمر ومختلف أنواع الفاكهة الأخرى بركة فيها ورحمة.

كما أن دعاء إبراهيم عليه السلام هذا، كان وسيلة بخروج ماء «زمزم» من هناك:

نفذت سقاء الماء التي أحضرها إبراهيم عليه السلام. فركضت سيدتنا هاجر بين الصفا والمروة سبع مرات متتالية. والمسافة بين هذين الجبلين تقدر بأربعمة متر. فكانت سيدتنا هاجر تركض من ناحية، وتنظر إلى إسماعيل عليه السلام من ناحية أخرى. ولكنها لم تجد هناك إنساً

ولا طيراً حتى. فلم يكن هناك أي نوع من أنواع الحياة. وبينما كانت سيدتنا هاجر على جبل المروة سمعت صوتاً يقول لها:

«- صه، واسمعي جيداً!». وكان هذا صوت جبريل عليه السلام الذي أكمل بقوله:

«- لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت اللَّه، يبني هذا الغلام وأبوه، وإن اللّه لا يضيع أهله».

وأمام هذا الخطاب، عادت سيدتنا هاجر إلى جانب ولدها إسماعيل. ووجدت أن الماء يخرج من موضع قدم إسماعيل عليه السلام. فشكرت ربها بفرحة كبيرة. وجعلت تحفر في التراب مكونة بركة من الماء خوفاً من أن ينفذ. وهي تقول للماء «زم، زم!» أي «قف، قف!».

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ - أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ -، لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا" (البخاري، الأنبياء، ٩)

إن الماء الذي كان ثمرة التوكل والتسليم، سيستمر في تدفقه إلى يوم القيامة يمد الأمة بالشفاء.

وهكذا، تمكن إبراهيم عليه السلام وسيدتنا هاجر من الحصول على بركة كبيرة نتيجة ما كان منهما من تسليم للّه عز وجل. ومن هذه البركة أيضاً، أن يستمر المؤمنون إلى يوم القيامة يرددون ما قامت به سيدتنا

هاجر من السعي بين الصفا والمروة ركناً من أركان الحج والعمرة.

وكانت الأم وولدها يتابعان حياتهما في هذه البلدة الهادئة المقفرة. وتمر قبيلة الجرهم على مقربة من ذلك المكان فيشاهدون طيراً يحلق فوق مكان محدد يطير وينزل إليه باستمرار.

فاستيقنوا بوجود ما يدل على الحياة في هذا الموقع فأرسلوا باثنين من رجالهم يستطلعون الخبر. وعندما رأوا ما كان من ماء زمزم قالوا لسيدتنا هاجر يستأذنونها: «أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟»

فقالت لهم: «نعم، ولكن لا حق لكم في الماء». وهكذا، أصبحت قبيلة الجرهم هي أول قبيلة سكنت في مكة.

إمتحان الذبح

بينما كان إبراهيم عليه السلام في طريقه من بابل إلى الشام قال:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ. رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الصافات، ٩٩-١٠٠)

إن في هذه الآية إشارة إلى اتصال قلبي مباشر، أي في العالم الداخلي بين اللّه وخليله. وتتحدث الآيات الكريمة التي تلت هذه الآية فتبشر إبراهيم عليه السلام بولده إسماعيل عليه السلام، ومن ثم تسرد لنا قصة ذبحه وفدائه. يقول تعالى:

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ. فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا

تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرٰهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ. وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إِبْرٰهِيمَ. كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الصافات، ١٠١-١١١)

بعد أن ترك إبراهيم ﵇ سيدتنا هاجر وإسماعيل ﵇ في مكة، عاد إلى جوار سيدتنا سارة. وكان يذهب إليهم بين الحين والآخر ليطمئن عليهم. وفي إحدى المرات التي كان فيها بمكة شاهد رؤيا في منامه. وكانت الرؤيا كما تتحدث الآية الكريمة بأنه كان يذبح ابنه إسماعيل تقرباً لله. وتردد إبراهيم ﵇ بين أن تكون هذه الرؤيا هي من عند الشيطان أو أنها ربانية من عند اللَّه. ولكن نفس الرؤيا تكررت له ثلاث ليال متتالية. وهذه الأيام الثلاثة هي يوم التورية ويوم عرفة ويوم العيد الأول في موسم الحج.

وتقول إحدى الروايات أن إبراهيم ﵇ كان يقول:

«- إن رزقني اللَّه بولد فإني سأذبحه تقرباً لله تعالى!» فكانت هذه الرؤيا امتحاناً له على هذا العهد.

وأمام ما كان من أمر إلهي شهده في الرؤيا، أمر إبراهيم ﵇ سيدتنا هاجر بأن تغسل ولده إسماعيل ﵇ وأن تطيبه بعطر حسن لأنه يريد أن يصطحبه إلى أحد أصدقائه. ونبه إسماعيل ﵇ لأن

يأخذ معه حبلاً وسكيناً وقال له:

«- بني، سأذبح قرباناً لله إرضاءً له!»

وساروا معاً إلى المكان الذي يقف فيه حجاج بيت اللَّه في عرفات. وفي هذه الأثناء، تمثل الشيطان لسيدتنا هاجر على شكل إنسان وقال لها:

«- أتعلمين إلى أين يأخذ إبراهيم ولدك؟»

فقالت له:

«- إلى صديق له»

فقال الشيطان:

«- كلا، بل ليذبحه»

فتجيبه سيدتنا هاجر:

«- إنه يحب ولده كثيراً»

فيتابع الشيطان وسوسته بقوله:

«- سيذبحه امتثالاً لأمر اللَّه!». فتجيبه سيدتنا هاجر عندها:

«- إن كان اللَّه - جل جلاله - قد أمر بذلك فهو شيء جميل. نتوكل عليه».

وعندما رأى الشيطان أنه لن يتمكن من خداع سيدتنا هاجر تركها وذهب إلى جوار سيدنا إسماعيل عليه السلام. وسأله هو الآخر:

«– أتعلم إلى أين يأخذك والدك؟»

فيجيبه إسماعيل ﷺ: «– إلى صديقه»

فيقول الشيطان:

«– كلا، بل إنه آخذك ليذبحك. فهو يعتقد بأن اللّٰه أمره بذبحك!»

فيجيبه إسماعيل ﷺ بقوله:

«– إن كان اللّٰه هو من أمر بذلك، فإننا سنستجيب له بكل حب وإقدام»

وهكذا، لم يتمكن الشيطان من خداع إسماعيل ﷺ أيضاً. فتوجه هذه المرة إلى إبراهيم ﷺ وقال له:

«– أيها العجوز! إلى أين تأخذ طفلك؟ لقد خدعك الشيطان بالرؤيا! إنها رؤى شيطانية».

فيقول له إبراهيم ﷺ:

«– أنت شيطان! إبتعد من أمامنا!».وأخذ سبع حجارة بيده ورجم الشيطان فيها في ثلاثة مواقع مختلفة. وهكذا ابتدأت بهذا الشكل منذ ذلك اليوم إلى يوم القيامة ركن رجم الشيطان في الحج. فكان حالهم ذلك مثالاً إلى الأمة على التوكل والتسليم.

وبينما كان إبراهيم ﷺ يسير مع ابنه من جبل منى إلى جبل عرفات، كانت الملائكة في السماء متحمسة جداً. وكانوا يقولون

بحيرة لبعضهم البعض:

«سبحان اللَّه! نبي يأخذ نبياً ليضحي به!».

ويروي إبراهيم عليه السلام حقيقة هذه الرحلة لابنه سيدنا إسماعيل فيقول:

«- يا بني! إني رأيت في المنام أني أذبحك»

فأجابه إسماعيل عليه السلام سائلاً:

«- يا أبت، آلله أمرك بهذا؟»

فيقول إبراهيم عليه السلام:

«- نعم!». عندها يتوجه إسماعيل إلى والده ويقول له:

«- يا أبت افعل ما تؤمر! ستجدني إن شاء اللَّه من الصابرين!». فأخبره بأنه على أكمل الإستعداد ليفدي نفسه. وبعد أن قال لوالده هذه العبارة التي أثلجت صدر أبيه قال:

«- يا أبت! صبرتَ عندما رماك نمرود في النار. ورضي اللَّه عنك. وأنا أرضى بأن أذبح قرباناً لله. وإن شاء اللَّه ستجدني إن شاء اللَّه صابراً. عندما أفترق عنك إلى ربي؛ وعندما أبتعد عن نعم الدنيا سأصل إلى الجنة. إن كل حزني هو أن تعيش حياتك في لوعة الولد الذي ستقدمه قرباناً بيدك. يا أبت! ليتك أخبرتني قبل ذلك فأتمكن وأمي من الوداع!».

فيقول إبراهيم عليه السلام:

«- يا بني، إني خفت أن تعترض أمك!».

ويروى أن إسماعيل عليه السلام كان في تلك الفترة في السابعة أو الثالثة عشر من عمره[1].

عن سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ، قَالَ: لَمَّا أُرِيَ إبراهيم ملكوت السماوات وَالْأَرْضِ، رَأَى رَجُلًا عَلَى فَاحِشَةٍ فَدَعَا عَلَيْهِ فَهَلَكَ، ثُمَّ رَأَى آخَرَ عَلَى فَاحِشَةٍ فَدَعَا عَلَيْهِ فَهَلَكَ، ثُمَّ رَأَى آخَرَ عَلَى فَاحِشَةٍ فَدَعَا عَلَيْهِ فَهَلَكَ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَهْلًا! فَإِنَّكَ رَجُلٌ مُسْتَجَابٌ لَكَ، وَإِنِّي مِنْ عَبْدِي عَلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: إِمَّا أَنْ يَتُوبَ قَبْلَ الْمَوْتِ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ، وَإِمَّا أَنْ أُخْرِجَ مِنْ صُلْبِهِ ذُرِّيَّةً يَذْكُرُونِي، وَإِمَّا أَنْ يَتَوَلَّى فَجَهَنَّمُ مِنْ وَرَائِهِ. (التفسير من سنن سعيد بن منصور، دار الصميعي للنشر والتوزيع، ١٤١٧، ٥، ٢٩)

ويروى أن السبب الآخر في امتحان اللّٰه تعالى لإبراهيم عليه السلام بذبح ولده قرباناً هو لما ذكر في الحادثة أعلاه من شدة أظهرها إبراهيم عليه السلام لمن يعصي اللّٰه من الناس، فكان قليل الرحمة بهم.

وتتحدث رواية أخرى فتقول:

﴿وَكَذٰلِكَ نُرِي إِبْرٰهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام، ٧٥)

---

١ أنظر: الحاكم، المستدرك، ٢، ٦٠٥-٦٠٦؛ الطبري، التاريخ، ١، ٢٦٣-٢٧٨

يفسر الراوي هذه الآية بأن إبراهيم عليه السلام كان يصعد في كل ليلة إلى السماء. وفي إحدى الليالي التي صعد فيها إلى السماء، وجد من الناس من يعصي اللّٰه فقال:

«- يا إلهي! إن هذا الرجل يأكل من رزقك، ويمشي بمشيئتك، وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يأتمر بأمرك. فأهلكه!».

فيهلك اللّٰه تعالى ذلك الإنسان. وعندما يرى إبراهيم عليه السلام عبداً عاصياً آخر، فإنه يدعو عليه بالهلاك أيضاً فينادى بقوله:

«- يا إبراهيم! أقلع عن الدعاء بهلاك عبادي! وتعامل معهم رويداً رويداً لتمهلهم! لأنني أرى عصيانهم كل يوم ولكني برغم ذلك لا أهلكهم!»

وعندما يعود إبراهيم عليه السلام إلى الأرض يشاهد تلك الرؤيا التي ذكرت في القرآن الكريم. وبعد أن قال له إبنه بكل تسليم: «يا أبت افعل ما تؤمر» تحضر خليل اللّٰه لذبح ابنه وأخذ السكين في يده وناجى ربه فقال:

«- يا إلهي! إن هذا ابني. وهو فاكهة قلبي وأحب الناس إلي.»

فيسمع نداء اللّٰه تعالى يقول له:

«- أتذكر ليلة دعوتني أن أهلك عبدي؟ أتعلم أني رحمن ورحيم بعبادي كما أنت رحيم بولدك؟ أنت دعوتني لأهلك عبدي. والآن أطلب منك أن تذبح ولدك!» (محمود سامي رمضان أوغلو، إبراهيم عليه السلام، ص. ٤٤ - ٤٦)

ويكلم إسماعيل عليه السلام والده إبراهيم عليه السلام وهو يعلم أنه سيكون قرباناً لله طاعة لأمره فيقول له:

«- يا أبت! إن لي بضعة مطالب:

١- إربط يدي ورجلي بشكل محكم فلا أتخبط من الألم فأقصر في حق ربي.

٢- أمسِك لباسك فلا يصلن دمي إليها.

٣- فلتكن سكينك حادة ليكون تقديم الروح سهلاً! ويسهل عليك أيضاً ما تقوم به.

٤- عندما تسحب سكينك فلا تنظر إلى وجهي! فيصيبك من رحمة الأب فتؤخر أمر اللّٰه بما يحل بك من رحمة.

٥- خذ قميصي إلى أمي! علها تجد فيه عوضاً! وقل لها: «لقد ذهب ابنك شفيعاً إلى اللّٰه».

وبينما كان إبراهيم عليه السلام يستمع إلى هذه الكلمات امتلأت عيناه بالدموع. وبكى بشدة وقال:

«- لكم تساعدني يا بني بشكل رائع لأتمكن من تنفيذ أمر ربي». ومن ثم رفع يديه إلى السماء وقال:

« يا ربي، ألهمني الصبر على ما أنا عليه الآن من حال! وارحمني بكبر سني!».

وقال إسماعيل عليه السلام:

«- يا ربي، ألهمني الصبر والتحمل في هذا الأمر!».

«يا أبتي، فتحت أبواب السماء. والملائكة في حيرة من أمرهم يسجدون لله يقولون: «يا ربي، إن نبياً هو على وشك أن يذبح نبياً إرضاءً لك... فارحمهم»

ومن ثم قال مثبتاً أباه على الطاعة:

«- يا أبت، إن شرط المحبة أن لا تؤخر الأمر! هيا افعل ما تؤمر!»

ويمدد إبراهيم عليه السلام، إسماعيل عليه السلام ويقول:

«- يا بني! وداعاً إلى يوم القيامة! أراك مرة أخرى في يوم القيامة!». وأخذ سكينه بشدة إلى رقبة إسماعيل عليه السلام. وفي تلك اللحظة يأمر اللَّه تعالى جبريل فيقول:

«- إلحق واقلب السكين». فيتجه جبريل في آن من السدرة إلى السكين فيقلبه. فيشد إبراهيم عليه السلام السكين مرة أخرى بشدة أيضاً ولكنها لا تتمكن من القطع مرة أخرى.

ويقول اللَّه عز وجل:

«لقد صدق إبراهيم الرؤيا. وأظهر إخلاصه».

ومن ثم وامتثالاً منه لأمر اللَّه تعالى، يأخذ جبريل عليه السلام خروفاً من الجنة ويكبر بقوله:

اَللهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ

وعندما سمع إبراهيم عليه السلام هذا التكبير قابله بقوله:

لاَ اِلٰهَ اِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ

وأكمل إسماعيل عليه السلام بقوله:

اَللهُ أَكْبَرُ وَلِلهِ الْحَمْدُ

وبهذا الشكل، اكتملت أجزاء «تكبيرات التشريق» التي تبدأ في يوم عرفة من صلاة الصبح انتهاءً بصلاة العصر من اليوم الرابع من عيد الأضحى المبارك.

وعاد الأب والإبن إلى منزلهم شاكرين حامدين. وضمت سيدتنا هاجر إسماعيل عليه السلام إلى صدرها. وعاد إبراهيم عليه السلام مرة أخرى إلى جوار سيدتنا سارة.

اُمْتُحِن إبراهيم عليه السلام يوم ألقي في النار في نفسه، وامتُحِنَ بأمر الذبح بولده، ولكنه كسب في كلا الإمتحانين بتسليمه وتوكله على اللَّه. ثم جاء دوره ليمتحن في ماله. حيث تقول إحدى الروايات أن إبراهيم عليه السلام كان يمتلك من الماشية ١٢,٠٠٠ رأساً. وكان لديه كلاب كثيرة تحمي هذا القطيع. وكان يضع على أعناق هذه الكلاب قلادات من الذهب تحقيراً لمن يتمسك بهذه الدنيا. وبحسب هذه الرواية، يأتي جبريل عليه السلام إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام على شكل رجل ويقول له سائلاً: «- لمن هذه الماشية؟»

فيجيبه إبراهيم عليه السلام بقوله:

«- هي لله ربي. وأنا مستودع عليها!».

فيقول جبريل عليه السلام: «- هلا تبيعها لي؟»

فيقول إبراهيم عليه السلام:

«-أُذكر اللَّه مرة أعطيك ثلثها، واذكره ثلاثاً أعطيك جميعها!»

فيقول جبريل عليه السلام: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّنَا وَرَبُّ الْمَلئِكَةِ وَالرُّوحِ

فيقول إبراهيم عليه السلام:«- خذها، وقُدْها، هي جميعها لك!»

فيقول جبريل عليه السلام:

«- إني ملك، لا أستطيع أخذها!».

فيقول له إبراهيم عليه السلام إجابة على قوله:

«- إن كنت ملكاً فأنا خليل اللَّه. ولا أرد ما أعطيت!».

وفي نهاية الأمر باع إبراهيم عليه السلام هذا القطيع واشترى به أرضاً كبيرة. وجعل منها وقفاً يستفيد منه المسلمون. وهكذا كان إبراهيم عليه السلام أول من ابتدأ عملية الوقف[1] في سبيل اللَّه.

وبهذا الإمتحان الذي تخلى فيه إبراهيم عليه السلام عن كل ثروته في سبيل اللَّه في آن واحد، أثبت مرة أخرى أنه بحق "القريب المحب لله" (خليل اللَّه). ويعرج اللَّه جل جلاله على ذكر هذه الحادثة المتميزة لإبراهيم عليه السلام هذه فيقول:

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ...﴾ (البقرة، ١٢٤)

١ الوقف: هو الشكل المؤسسي للمحبة والرحمة والمساعدة من الخالق إلى مخلوقه. أي بكلمة أخرى، هو الملك الذي يتقرب به العبد إلى ربه فيجعله موقوفاً له لا يمكن بيعه أو شراؤه.

ولادة إسحاق عليه السلام

أمام ما تقدم به إبراهيم عليه السلام من وفاء لربه تعالى مقدماً ابنه قرباناً لله تعالى وطلباً لرضاه، جاءت مكافأة اللَّه تعالى إليه بأن أحسن إليه ورزقه، على الرغم من كونه شيخاً كبيراً، ابناً آخر. وتتحدث الآيات الكريمة عن هذا الإحسان الإلهي فتقول:

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ. وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ (الصافات، ١١٢-١١٣)

وكان إبراهيم عليه السلام في تلك الفترة قد ناهز ١٢٠ عاماً، وكانت سيدتنا سارة تبلغ ٩٠ أو ٩٩ عاماً.

يروي ابن عباس رضي الله عنه بأن جبريل عليه السلام أتى إبراهيم عليه السلام مع وفد من الملائكة يبشره ويفرحه بإسحاق عليه السلام. ومن ثم يتوجه مع هذا الجمع من الملائكة ليهلك قوم لوط.

ولقد أتى الملائكة لِزيارة إبراهيم عليه السلام على هيئة البشر من الضيوف. ولهذا، لم يعرفهم إبراهيم في باديء الأمر فقام لما هو عليه من إكرام الضيف بإعداد لحم البقر لهم ووضعه أمامهم ليأكلوا. لكنهم، ولكونهم من الملائكة، لم يأكلوا منه شيئاً. ففهم إبراهيم عليه السلام أنهم من الملائكة. ولكنه خاف في باديء الأمر من مجيئهم على هذا الشكل لكونه لم يكن على علم بما أتوا به من

البشارة بولادة إسحاق عليه السلام. فقال لهم:

«- هل حدث شيء أغضب اللَّه؟ أو أنكم أتيتم لتهلكوا قومي؟» معبراً عن قلقه وخوفه. وللتأكد من كونهم ملائكة قال لهم: «ألا تأكلون؟» فقالوا:

«- نحن لا نأكل بلا أجر!».

فقال إبراهيم عليه السلام في البداية «بسم اللَّه» وفي النهاية «الحمد للّه». فقال الملائكة:

«- نعم الخليل، ونعم المحب الصادق!».

ومن ثم قالوا له عليه السلام:

«- لا تخف يا إبراهيم، إنا ذاهبون من هنا إلى قوم لوط لنهلكهم!».

ففهم بهذا القول بشكل واضح سبب تركهم للطعام وقدومهم إليه بهذا الشكل.

وعندما تبدد عنه الخوف، بشر الملائكة إبراهيم عليه السلام بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب.

وكانت سيدتنا سارة تستمع إلى هذا الحديث من وراء ستار، فغطت وجهها بكِلْتا يديها لما كانت عليه من شدة الحياء والخجل. وتعجبت من هذه البشرى لكونها وسيدها قد أصبحا كباراً في السن من العجائز. فقال لها الملائكة:

«- أتعجبين من أمر اللَّه وتقديره؟»

ولكن إبراهيم عليه السلام، ومع فرحته بما جاءه من البشرى، حزن كثيراً لما سمعه من إهلاك لقوم لوط لأنه لم يكن يعلم أن المؤمنين من قومه سيكونون مستثنين من هذا العذاب. وأراد أن يلتجيء إلى اللَّه طلباً برفع هذا العذاب. فأخبره الملائكة أن لا فائدة بعد الآن من طلب الدعاء، وأكدوا له بأن هذا العذاب لن يصيب من كان منهم من المؤمنين. فاستبشر إبراهيم عليه السلام.

يتحدث القرآن الكريم عن هذه الحقيقة بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرٰهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ (هود، ٦٩)

(بحسب رواية ابن عباس، كان الرسل هم جبريل عليه السلام ومعه اثنانِ من الملائكة. وهم بحسب ما يرويه ميكائيل وإسرافيل)

﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ. وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحٰقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحٰقَ يَعْقُوبَ. قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ. قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرٰهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ (هود، ٧٠-٧٤)

ذلك أن إبراهيم عليه السلام كان خائفاً لما كان يظنه من أن غضب اللَّه تعالى وعذابه الذي سيصيب الكافرين من قوم لوط سيصيب لوطاً عليه السلام ومن آمن معه من الناس، فكان شديد الإصرار على ربه طلباً لرفع هذا العذاب. يقول تعالى:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ (هود، ٧٥)

وتتحدث هذه الآية عن أوصاف ثلاثة مهمة لإبراهيم عليه السلام:

الحلم: الصبر الشديد والصبر على عدم أخذ الثأر والإنتقام المباشر ممَّن يرتكب الخطأ والجريمة وتحمّلهم.

أواه: التأسف الشديد على الأحوال السيئة والعاقبة المحزنة والمؤلمة للناس بكثرة الآهات.

منيب: المتجه بقلبه إلى اللَّه، والراجع إليه. كان إبراهيم عليه السلام يرجع إلى اللَّه تعالى في كل أموره ويثق بحكمه ويعتمد عليه.

بعد أن توجه إبراهيم عليه السلام إلى السماء سابقاً فدعا ربه بإهلاك من رآه من العاصين، وما كان من التحذير الإلهي إليه عن الإبتعاد عن ذلك، أصبح قلب إبراهيم عليه السلام مليئاً بالرحمة تجاه غيره من العباد. ولهذا، كان يلتجيء إلى اللَّه تعالى راجياً وطالباً رفع العذاب عن قوم لوط.

لكن قوم لوط كانوا قد ابتعدوا كل البعد عن الرحمة الإلهية، وكانوا أكثر ما يكون عليه أحد من الإثارة والرذيلة، ولهذا، لم يكن

هناك من ملجأ آخر يصيبهم غير ذلك العذاب. لأنهم أصروا على طلب العذاب، واستمروا على ما أتوا عليه من ملعنة وأفعال شنيعةٍ. بل وصلوا إلى درجة لا يتحملون فيها وجود الطاهرين بينهم؛ فكانوا يقولون: «أَخرجوهم من قريتكم، إنهم أناسٌ يتطهرون!». ولهذا، يقول رب العزة والجلال:

﴿يَا إِبْرٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ (هود، ٧٦)

ويكرر اللّٰه تعالى هذه الحقيقة في سورة الذاريات في الآيات ٢٤ إلى ٣٠ ليؤكد على أهمية هذه الحقيقة بأسلوب مختلف آخر.

ومن أوصاف إبراهيم عليه السلام الفارقة أيضاً هي إكرامه للضيف. فكان يُطْعم ويَسقي كل من يمر عليه. عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: كَانَ إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ عليه السلام يُكَنَّى أَبَا الْأَضْيَافِ». (ابن سعد، الطبقات، ١، ٤٧)

كان نبياً كثير الحب لضيوفه، كثير الإكرام لهم، كريماً جداً ومشرفاً. بل كان في الأيام التي لا يأتيه ضيف فيها يبحث في الطرق عن ضيف يكرمه ويدعو كل من يعبر تلك الطرق إلى بيته ليستضيفه ويكرمه.

إن إكرام الضيف هي صفة من صفات الأنبياء. على الرغم من أن الإعتدال في الأكل والشرب هو أمر يستدعي منا الحذر والإنتباه،

إلا أن أنه لا إسراف في إكرام الضيف وما يقدم إليه من طعام يؤكل. مع التأكيد على ضرورة أن يكون هذا الإكرام والضيافة هي أمر خالص لله تعالى، بعيداً عن أفكار المنافع الدنيوية والنفسية.

زيارة إبراهيم عليه السلام لسيدنا إسماعيل

يتزوج إسماعيل عليه السلام من فتاة من قبيلة جُرْهُمْ. فقد أحبه أهل هذه القبيلة كثيراً. وتعلم منهم اللغة العربية. وتوفيت والدته سيدتنا هاجر عندما بلغت تسعة وتسعين سنة. ودفنت في موقع «الحجر» على مقربة من الكعبة.

يروي الحديث النبوي الشريف قصة زيارة إبراهيم عليه السلام لولده إسماعيل عليه السلام بقوله:

بعد أن تزوج إسماعيل عليه السلام، ذهب إبراهيم عليه السلام لرؤية ابنه. ولكنه لم يجد إسماعيل عليه السلام. فسأل امرأته عنه فقالت:

«- خرج يبتغي لنا».

ثم سألها إبراهيم عليه السلام عن معيشتهم وهيئتهم فقالت:

«- نحن بشر، نحن في ضيق وشدة» فشكت إليه!

فقال إبراهيم عليه السلام:

"- فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له لِيُغَيِّرْ عتبة بابه!"

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً (أي فهم مما شعر فيه من ريح طيبة بقدوم والده وذهابه)، فقال:

"- هل جاءكم من أحد؟" قالت:

"- نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فَسَأَلنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنا في جهد وشدة"

قال (إسماعيل عليه السلام):

"- فهل أوصاك بشيء؟"

قالت (زوجته):

"- نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك"

قال (إسماعيلُ لزوجته بعد أن فهم لطيفة أبيه):

"- ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارِقَكِ، إالحقِي بأهلك"، فطلقها، وتزوج منهم أخرى،

فَلَبِثَ عنهم إبراهيم - عليه السلام - ما شاء اللَّه، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته (الجديدة التي تزوجها إسماعيل عليه السلام) فسألها عنه، قالت: "- خرج يبتغي لنا"

قال إبراهيم عليه السلام:

"- كيف أنتم؟" وسألها عن عيشهم وهيئتهم،

قالت:

"- نحن بخير وسعة"، وأثنت على اللَّه.

فقال إبراهيم عليه السلام:

"-ما طعامكم؟" قالت: "اللحم"،

قال إبراهيم عليه السلام:

"فما شرابكم؟" قالت: "الماء".

فقال (إبراهيم عليه السلام يدعو اللّٰه لهم):

"اللّٰهم بارك في اللحم والماء!".

ثم قال لزوج إسماعيل عليه السلام:

"- فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه"،

فلما جاء إسماعيل (أحس مرة أخرى بقدوم والده من العطر الجميل الذي استشعره في البيت) قال:

"- هل أتاكم من أحد؟" قالت:

"- نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته" ثم تابعت حديثها فقالت:

"-فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير،

فقال إسماعيل عليه السلام: "- فهل أوصاك بشيء؟"،

فقالت زوجته:

"- نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك!"،

فقال إسماعيل عليه السلام:

"- ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك". (البخاري، الأنبياء، ٩)

ونستطيع أن نفهم من هذه القصة أن الشكر هو وسيلة لزيادة النعمة واستمرارها. وبأن استصغار هذه النعمة والشكوى هو نوع من أنواع الجحود. ونتيجته إذاً هي نقصان هذه النعمة والحرمان والخسارة.

بناء الكعبة

"...ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ ابراهيم عليه السلام مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الوَالِدُ بِالوَلَدِ وَالوَلَدُ بِالوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا، وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ البِنَاءُ، جَاءَ بِهَذَا الحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولاَنِ: ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ**﴾ (البقرة: ١٢٧) ، قَالَ: فَجَعَلاَ يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ البَيْتِ وَهُمَا يَقُولاَنِ: ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ**﴾ (البقرة: ١٢٧) (البخاري، الأنبياء، ٩)

"...حَتَّى ارْتَفَعَ البِنَاءُ، وَضَعُفَ الشَّيْخُ عَنْ نَقْلِ الحِجَارَةِ، فَقَامَ عَلَى حَجَرِ المَقَامِ، فَجَعَلَ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ وَيَقُولاَنِ: ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ**﴾ (البقرة: ١٢٧) (البخاري، الأنبياء، ٩)

بحسب الروايات التي تتحدث عن إنشاء الكعبة، يلتقي آدم عليه السلام وحواء في الأرض بعد إخراجهما من الجنة في أرض عرفات، ويسيران سوية باتجاه الغرب إلى أن يصلا إلى موقع الكعبة هذا. وفي هذه الأثناء يفكر آدم عليه السلام بوسيلة يشكر اللَّه تعالى فيها على التقائه بحواء. فيدعو اللَّه أن يعيد عليه عامود النور الذي كان يطوف حوله متعبداً في الجنة. فيتجلى عمود النور في تلك المنطقة ويبدأ آدم عليه السلام بالطواف من حوله متعبداً.

ولكن عمود النور هذا يغيب في زمن سيدنا شيث عليه السلام ويبقى في مكانه حجر أسود. فيقوم سيدنا شيت بإنشاء بناء مكانه يشبهه في شكله على أربع زوايا ويضع هذا الحجر الأسود في ركن من أركان هذا المبنى. وبحسب الراوي فإن ذلك هو الحجر الأسود المعروف. وبعد طوفان نوح، يبقى هذا المبنى فترة كبيرة من الزمن مغموراً بالتراب.

فيأمر اللَّه تعالى إبراهيم عليه السلام بأن يذهب إلى المكان الذي توجد فيه الكعبة، ويترك إسماعيل عليه السلام وأمه هناك. ومن ثم وبأمر من اللَّه تعالى يقوم بحفر المكان الذي توجد فيه الكعبة. فيجد

أساسات البناء الذي بناه سيدنا شيث. فيبني على هذه الأساسات الكعبة الموجودة حالياً. والعبارة الموجودة في الآية الكريمة: «وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت» تشير إلى هذا الأمر.

ويضع إبراهيم عليه السلام الحجر الأسود في إحدى أركان الكعبة في إشارة منه إلى الناس للبدء في طواف الكعبة. هذا الحجر الأسود كان عندما خرج من الجنة أبيض من الثلج ولكن ذنوب البشر كانت سبباً في اسوداده. (ابن جنبل، ١، ٣٠٧)

وكانت الحرائق التي حصلت في عصري الجاهلية والإسلام من الأمور التي كانت سبباً أكبر في اسوداده أيضاً.

وعندما انتهى بناء الكعبة، دعا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام اللّه تعالى فقالا:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ (البقرة، ١٢٨-١٢٩)

ويقول رسول اللّه صلى الله عليه وسلم في حديث يتعلق بهذا الدعاء فيقول:

"...أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى، وَرُؤْيَا أُمِّي آمِنَةَ الَّتِي رَأَتْ" (أحمد بن حنبل، ٥، ٢٦٢؛ الحاكم، المستدرك، ٢، ٤٥٣)

وبالحديث عن نسب شمس الضياء وفخر الكائنات سيدنا ونبينا ورسولنا محمد ﷺ فهو كالتالي:

١. **محمد** ﷺ
٢. **عبد اللَّه**
٣. **عبد المطلب**، (وكان يقال له شيبة الحمد)
٤. **هاشم**
٥. **عبد مناف**، (واسمه الأصلي مغيرة)
٦. **قصي**، (وكان يسمى أيضاً زيد)
٧. **حاكم**، (كلاب)
٨. **مرة**
٩. **كعب**
١٠. **لؤي**
١١. **غالب**
١٢. **فهر**، (قريش)
١٣. **مالك**
١٤. **النَّضْرِ**
١٥. **كنانة**
١٦. **حزيمة**
١٧. **مدركة**
١٨. **إلياس**
١٩. **مُضَر**
٢٠. **نزار**
٢١. **معاد**
٢٢. **عدنان**:

يصل نسب سيدنا محمد ﷺ في أجداده إلى عدنان. ويعرف بأن عدنان هو من سلالة إسماعيل عليه السلام. لكن الفترة الزمنية بينهما هي فترة غير معروفة.

وكخلاصة، إن إرسال الأنبياء من نسل إبراهيم عليه السلام، وبخاصة تشريف البشرية بفخر الكائنات ونور الوجود محمد المصطفى ﷺ، هو أمر يجعله عليه السلام ذو مكانة استثنائية وعناية خاصة في تاريخ الأنبياء. ومناسك الحج والعمرة مليئة بالأركان التي ستبقى ذكريات روحانية تستمر إلى يوم القيامة تذكرنا بإبراهيم عليه السلام. كما أن ملايين المسلمين يذكرون إبراهيم عليه السلام كل يوم في صلواتهم الخمسة حين يرددون في صلاة التحيات صلاتهم على سيدنا محمد ﷺ وعلى إبراهيم عليه السلام.

يحدثنا أبو محمد كعب بن عجرة رضي الله عنه فيقول:

إن النبي ﷺ خرج علينا فقلنا:

"- قَدْ عَلِمْنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكَ، فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ فقال: **"قولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ"**

(البخاري، الدعوات، ٣٢؛ الترمذي، الوتر، ٢٠؛ ابن ماجه، الإقامة، ٢٥)

حجة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام الأولى ودعوة الناس للحج

عندما اكتمل بناء الكعبة، أتى جبريل عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام فقال له: "طف بالبيت!". فكان إبراهيم عليه السلام وابنه يطوفان الكعبة ابتداءً من الحجر الأسود (يُسَلِّمانِ عليه) في كل شوط[1]. وصليا خلف مقام إبراهيم ركعتين. وأديا كامل أركان الحج التي كان جبريل عليه السلام يدلهم عليها الواحدة تلو الأخرى. ومن ثم أخبر جبريل عليه السلام إبراهيم عليه السلام بأن يدعو الناس للحج. وعندما سأل إبراهيم عن كيفية قيامه بذلك، قال له جبريل عليه السلام مكرراً ثلاث مرات:

"- أذِّنْ في الناس بقولك « يا أيها الناس، أجيبوا دعوة ربكم »

ثم سأل إبراهيم عليه السلام لربه تعالى فقال:

"- يا ربي، كيف يصل صوتي إلى كل البشر؟"

فيوحي اللَّه تعالى إليه بقوله:

"- عليك النداء، وعلينا البلاغ إلى كل البشر"

تعرج الآية القرآنية الكريمة على هذه الحقيقة فتقول:

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (الحج، ٢٧)

---

١ الشوط: هو الطواف لمرة واحدة حول الكعبة المشرفة ابتداءاً من الحجر الأسود وانتهاءً عنده أيضاً.

وبعد تلك الحجة الأولى، كان إبراهيم عليه السلام يعود في كل سنة إلى مكة يحج فيها. وبعد إبراهيم عليه السلام، استمر أنبياء اللّٰه ورسله ومن آمن معهم من الناس بالحج إلى مكة. وكان كل نبي أو رسول يتحقق بأمته أمر اللّٰه وغضبه، يهاجرون إلى مكة ويسكنون فيها حتى آخر يوم من حياتهم يطوفون فيها ويتعبدون ويشتغلون بالعبادة. ولهذا، يروى أن أكثر من تسعة وتسعين نبياً دفنوا بعد وفاتهم في مكان يقع بين مقام إبراهيم وماء زمزم، وأن سبعين من الأنبياء صلوا في المسجد الموجود في منى.

أدعية إبراهيم عليه السلام ومناجاته

إن من أكثر الأنبياء الذين نقلت أدعيتهم في القرآن الكريم هو نبي اللّٰه ورسوله إبراهيم عليه السلام. إذ أننا نجد أنه كان لا يترك وسيلة إلا واتخذها سبباً لمناجاة ربه من القلب. وإضافة لما ذكرناه أعلاه، فإن القرآن الكريم ينقل إلينا عنه هذه الأدعية أيضاً:

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّٰهِ مِن شَيْءٍ فَي الْأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء﴾ (إبراهيم، ٣٨)

﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمعِيلَ وَإِسْحقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء﴾ (إبراهيم، ٣٩)

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلوةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ (إبراهيم، ٤٠)

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (إبراهيم، ٤١)

كما نجد في سورة الشعراء هذا الطوفان الرائع من المناجاة التي تنبع من فؤاد إبراهيم عليه السلام، يقول تعالى:

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ. وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ. وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ. وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ. وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء، ٨٣-٨٩)

والقصد من القلب السليم هو من يصرف أمواله بفعل الخير، ويعلم أولاده الحق والحقيقة، الذي يسلم قلبه من فساد المال والأولاد، والجهل في الدين، ومن الأخلاق الذميمة ومختلف أنواع الإساءة.

وبحسب أبي القاسم الحاكم فإن للقلب السليم ثلاث علامات أساسية:

١. أن لا يضر بأحد ولا يؤذيهم.
٢. أن لا يتأذى من فعل أحد.
٣. أن لا ينتظر إحساناً من أحد على خير فعله.

علماً أن من لا يؤذي أحداً من الناس يأتي ربه تعالى يوم القيامة ورعاً تقياً، ومن لا يتأذى لفعل أحد يأتيه وفياً، ومن لا ينتظر إحساناً على خير فعله يأتيه يوم القيامة مخلصاً.

نصائح إبراهيم عليه السلام

يروى أن اللّه تعالى أوحى إلى إبراهيم عليه السلام فقال:

"من المؤكد أنك خليلي وأنا خليلك. احذر أن يشتغل قلبك بغيري عندما أكون مطلعاً؛ فأقطع عنك محبتي. لأنني أعطي محبتي إلى من أختاره بشكل لو حرقت فيه قلب عبدي فإنه لن يلتفت بقلبه إلى غيري ولن ينشغل عني بغيري. فإن كان على هذا الشكل وضعت محبتي في قلبه. وأُكْرِمُه وأَلْطُفُ بهِ. بل وأُقَرِّبُه إلي".

ويتجه إبراهيم عليه السلام لرجل طلب منه النصيحة فيقول:

" إذا اشتغل الناس بأمور الدنيا، فعليك أن تشتغل عنها بأمور الآخرة. وإن اشتغلوا بتزيين المظاهر عليك أن تشتغل بتزيين قلبك. وإذا اشتغلوا بإعمار الحدائق والكروم والقصور فاشتغل أنت بإعمار قبرك. وإذا اشتغل الناس بذم عيوب بعضهم البعض، فاشتغل أنت بعيوبك".

وكان إبراهيم عليه السلام ذا شأن كبير وفضيلة جعلت كل الأمم تعترف به ولا تنكره. فاعترف مشركوا العرب بفضله ورفعته باعترافهم بأنهم من سلالته ونسله. وإضافة للمشركين، عظم من شأنه كل من المسلمين والمسيحيين واليهود، واعترفوا جميعاً بقدره ومكانته. واعتراف أكثرية العالم بفضله ومرتبته الرفيعة، لم يكن لأحد قط كما

هو بالنسبة لإبراهيم عليه السلام. ولهذا، تحدد الآيات القرآنية صفة إبراهيم عليه السلام وتقطع كل ادعاءات غير المسلمين بحقه فيقول الله عز وجل:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران، ٦٧-٦٨)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

جاء رجل إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: "يا خير البرية" (أي يا أفضل من خلق اللَّه)

فقال رسول اللَّه ﷺ:

"ذاك إبراهيم عليه السلام" (مسلم، كتاب الفضائل، ١٥٠)

حضرة إبراهيم عليه السلام





حضرة إسماعيل

عليه السلام

من أصبح رمزاً للإخلاص والولاء والتوكل والتسليم

حضرة سيدنا إسماعيل

عليه السلام

هو من الأنبياء الذين أتى ذكرهم في القرآن الكريم. ويقال له "ذبيح اللّه" بمعنى "قربان اللّه". وكان إسماعيل عليه السلام نبياً لقبيلة جُرْهُم التي قدمت من اليمن. ويعني اسمه "المطيع لله". واسمه باللغة العبرية هو إسمويل. وحولها العرب فقالوا له إسماعيل.

نشأ إسماعيل عليه السلام مع أبناء جُرْهُم، وتعلم رمي السهام منهم. وعندما وصل إلى سن البسالة كان يرمي السهام بشكل جيد جداً ويصيب ما يرمي. بينما كان جماعة من قبيلة إسلم يتبارون على رمي السهام، اقترب منهم رسول اللّه ﷺ وقال لهم:

"ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا، وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلاَنٍ.."

(البخاري، الأنبياء، ٩)

استمر إسماعيل عليه السلام بعد وفاة والده بخدمة الكعبة والحج. فقام بصناعة غطاء للكعبة أولاً. وأعطاه اللّه النبوة، وأرسله نبياً إلى قبيلة جرهوم التي تسكن مكة وجوارها، وشعب العمالقة، وإلى قبائل اليمن، مرعب وحضرموت. ودعاهم إسماعيل عليه السلام إلى

الإسلام خمسين عاماً. فآمن بعضهم، وأصر بعضهم على الكفر. ولكن أعداد من آمن معه كانت قليلة. واستمر إسماعيل عليه السلام بتأدية واجبه بكل صبر وثبات. تقول الآية الكريمة:

﴿وَإِسْمٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنبياء، ٨٥)

وكان إسماعيل عليه السلام نبياً صادقاً لوعده، آمراً بالصلاة والزكاة، وكان مرضياً عند ربه. تتحدث آية كريمة أخرى أيضاً عن أوصافه هذه فتقول:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمٰعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا. وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلٰوةِ وَالزَّكٰوةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ (مريم، ٥٤-٥٥)

معجزاته

١. تحويله لأرض شائكة إلى الخضرة،

٢. إعطاء الأغنام العقيمة الحليب بدعائه،

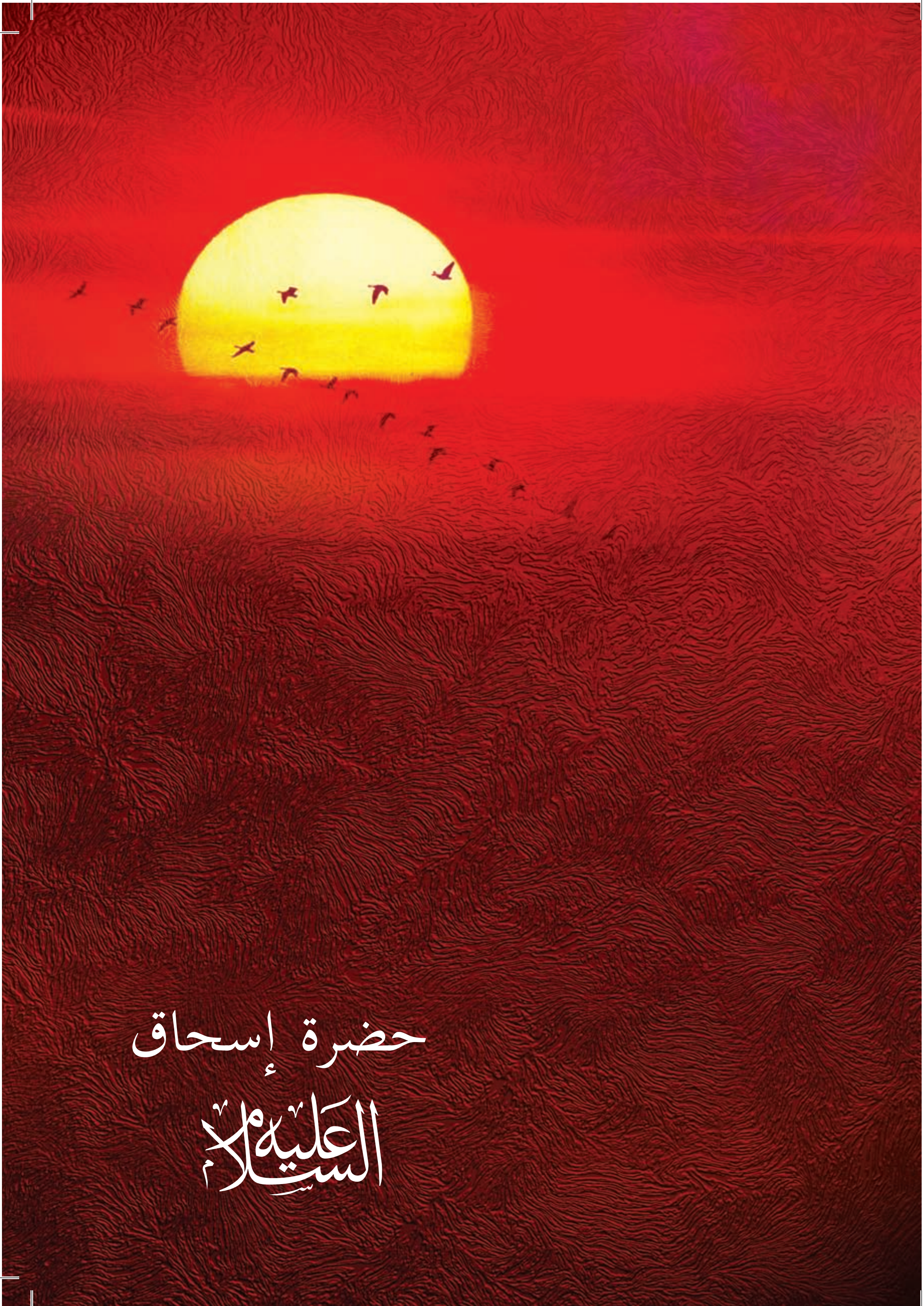
٣. أن تكون أصواف الأغنام كالحرير،

٤. تحول التراب بقربه إلى الطحين بدعائه،

.٥خروج ماء زمزم بسببه، واستمرار تدفقها إلى يوم القيامة...

أوصافه الفارقة: الصبر، الحلم والتسليم.

عليه السلام...


حضرة إسحاق
عليه السلام

مَنْ وُلِدَ مِنْ نَسْله أنبياءُ بني إسرائيل

حضرة سيدنا إسحاق

عليه السلام

هو ابن إبراهيم عليه السلام من زوجته سارة. وأوصافه التي تذكر في كتب التاريخ فَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ، قَالَ: "ثُمَّ كَانَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ نُورًا وَضِيَاءً وَقُرَّةَ عَيْنٍ لِوَالِدَيْهِ، فَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا وَأَكْثَرَهُ جَمَالًا وَأَحْسَنَهُ مَنْطِقًا، فَكَانَ أَبْيَضَ جَعْدَ الرَّأْسِ وَاللِّحْيَةِ مُشْبِهًا بِإِبْرَاهِيمَ خَلْقًا وَخُلُقًا، وَوُلِدَ لِإِسْحَاقَ يَعْقُوبُ وَعِيصُ..." (الحاكم، المستدرك، ٢، ٦٠٧)

يمتدح القرآن الكريم إسحاق عليه السلام بهذا الشكل فيقول:

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ. إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ. وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ (ص، ٤٥ - ٤٧)

بعد وفاة والده إبراهيم عليه السلام، كلف إسحاق عليه السلام نبياً من اللّه إلى شعب الشام وفلسطين. وجعل منه اللّه تعالى إنساناً متميزاً وخيراً.

تقول الآية الكريمة:

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ. وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ (الصافات، ١١٢-١١٣)

وفي نهاية حياته، ضعفت عينا إسحاق عليه السلام بسبب كبر سنه وأصيب بالعمى. ورزق بابنيه يعقوب وعِيص توأماً إلى الدنيا.

وبقي إسحاق حتى آخر يوم من حياته يدعو لولديه هذين فرداً فرداً. فكان يدعو ملتجئاً إلى جناب الحق تعالى بأن يكون نسل يعقوب من الأنبياء؛ وأن يكون عِيص كثير الأبناء، وأن يكون في نسله الملوك والسلاطين.

معجزاته بحسب الروايات المختلفة

قال له قومه:

"- إن لم تشهد الحيوانات على أنك نبي فلن نؤمن لك!"

فقال إسحاق عليه السلام للحيوانات:

"- يا أيتها الحيوانات! أخبروهم من أكون!"

فقال الثعلب: "أنت نبي اللَّه!"

وقال الغزال: "أنت ابن خليل اللَّه!"

وقال التيس: "أنت نبي اللَّه! من لا يؤمن بك يذهب إلى النار!"

وأيضاً أثناء تبليغه للدين في القدس قيل لإسحاق عليه السلام:

"- إن حركت هذا الجبل عن مكانه آمنا بك!"

فاهتز الجبل بهيبة كبيرة وآمن به شعب القدس. وبينما كان يدعو قومه للإيمان جاءه مرة أحدهم بجلود للماشية وقال له:

"-أحي هذه!"

فأخذها إسحاق ﷷ وملأ جوفها بالتراب ودعا اللَّه. فعادت جميعها إلى الحياة.

ومن معجزاته أيضاً أن يمرر يده على الخراف فتحبل.

❁

وبحسب إحدى الروايات، فإن إسحاق ﷷ مَاتَ بِالشَّامِ، وَعُمْرُهُ مِائَةٌ وَسِتُّونَ سَنَةً وَدُفِنَ عِنْدَ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ، ﷷ. (ابن الأثير، الكامل، ١، ١١٤)

ﷷ!...

حضرة إسحاق عليه السلام



التوكل، التسليم والحج

عندما تُذْكَرُ كلمة التسليم أو التوكل أو الحج، فإن أول ما يبادر إلى ذهن المرء هو إبراهيم عليه السلام وإسماعيل عليه السلام. علماً أن الحج هو العمل الصالح الذي سيتكرر إلى يوم القيامة نتيجة لإخلاصهم.

والتوكل لغة هو "الإستناد، الثقة، أخذ الوكيل، والثقة بالوكيل". وفي علم التصوف هو القلب الممتليء بحب اللّٰه الذي لا يلتجيء ولا يثق بأحد سواه.

يسأل اللّٰه سبحانه وتعالى موسى عليه السلام عن العصا التي في يده ومن ثم يأمره بأن "ألقها يا موسى". لأن تلك العصا هي حاجب لتوكل موسى عليه السلام الكامل على اللّٰه.

تقول الآيات الكريمة:

﴿...وَعلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (إبراهيم، ١١؛ التوبة، ٥١)

﴿...وَعَلَى اللّٰهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة، ٢٣)

﴿...وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق، ٣)

وفي الحديث النبوي الشريف، يقول رسول اللّٰه صلى الله عليه وسلم:

"لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللّٰهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا" (الترمذي، الزهد، ٣٣؛ ابن ماجه، الزهد، ١٤)

والتوكل ليس نوعاً من أنواع ترك التعقل والعزم، بل على العكس، إنه الأخذ بالأسباب والإلتجاء بعد ذلك إلى تجلي قدرة اللَّه تعالى. يقول اللَّه تعالى:

﴿...وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران، ١٥٩)

إن اللَّه تعالى هو مسبب الأسباب. وهو قادر عندما يشاء على تنفيذ حكمه بعكس ما تجري عليه قوانين الطبيعة أيضاً:

ولهذا، خلق اللَّه تعالى سيدنا آدم عليه السلام من التراب، وخلق زوجه حواء أيضاً من بدنه.

وخُلِقَ عيسى عليه السلام من بطن سيدتنا مريم عليها السلام بدون أب بشكل مخالف لقوانين التزاوج والتكاثر.

ونجا إبراهيم عليه السلام فمنع النار من إحراقه، وأمرها بشكل مباشر فقال: «يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم».

وفلق البحر شطرين بضربة من عصى موسى عليه السلام فجعل بينهما طريقاً إلى الطرف الآخر من الساحل فنجا موسى وقومه بإعجاز من فرعون وظلمه.

وأمات سيدنا عزير مئة عام بوضعية النوم؛ وحفظ خلال هذه المدة جميعها طعامه الذي بجانبه دون أن يفسد، وبعث حماره الذي مات بأن جمع عظامه وكسى العظام لحماً.

وأحيى أصحاب الكهف في عالم النوم الذي طال أكثر من ثلاثمئة سنة دون أن أي غذاء أو ماء يمكنهم من الحياة.

هو الخالق تعالى الذي يسير من يشاء على الماء، ويطير من يشاء بدون جناح. ويعمي البصر إن شاء. ويجعل القلب عيناً فيري من يشاء ما يشاء مما لا يمكن لعين في الرأس أن تراه.

ولكن، يجب التنبه إلى هذا الأمر؛ أن يعتقد المرء بأن النار التي لم تحرق إبراهيم ﵇ يمكن له أن يصل إلى مرتبة يظهر فيها هذا التجلي الإلهي فيه، هو أن يتجاوز الإنسان معرفة حدود نفسه. وعاقبة ذلك هي الخسران المبين.

ويروي لنا مولانا جلال الدين الرومي -قدس سره- رأيه في هذا الشأن فيقول:

"هناك إلقاء المرء لنفسه في سبيل اللّه. ولكن، قبل أن تلقي بنفسك في هذه النار، عليك أن تجد في نفسك الأوصاف الإبراهيمية إن كنت تمتلكها أم لا! لأن النار لا تعرفك، وتعرف الإبراهيميين ولا تحرقهم!"

أي بالنتيجة، أن يقارن المرء نفسه بالعظماء من أصحاب المقامات الرفيعة وأصحاب الكمال، هو جهل في غير محله، وعاقبة مهلكة. فما يجب علينا هو أن نأخذ بالأسباب عند طلبنا للحلول ونلتجيء بعد ذلك إلى اللّه تعالى. ذلك أن التوكل دون الأخذ بالأسباب هو أمر قد حذرنا رسول اللّه ﷺ منه:

عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، يَقُولُ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ، أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ:

"اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ" (الترمذي، القيامة، ٦٠)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاس: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ ﵁، خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْغَ لَقِيَهُ أُمَرَاءُ الأَجْنَادِ، أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِأَرْضِ الشَّأْمِ... قَالَ: ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الفَتْحِ، فَدَعَوْتُهُمْ، فَلَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ رَجُلاَنِ، فَقَالُوا: نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ وَلاَ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الوَبَاءِ، فَنَادَى عُمَرُ فِي النَّاسِ: إِنِّي مُصَبِّحٌ عَلَى ظَهْرٍ فَأَصْبِحُوا عَلَيْهِ. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ: أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ؟ فَقَالَ عُمَرُ: لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ؟ نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ، إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ، وَالأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ؟ قَالَ: فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ - وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ - فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي فِي هَذَا عِلْمًا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

"إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ" قَالَ: فَحَمِدَ اللَّهَ عُمَرُ ثُمَّ انْصَرَفَ" (البخاري، الطب، ٣٠)

لأن الحديث النبوي الشريف يأمرنا بحماية أنفسنا من الأمراض المعدية. عن أبي هريرة ﵁، أن النبي ﷺ قال:

"لاَ تُورِدُوا المُمْرِضَ عَلَى المُصِحِّ" (البخاري، كتاب الطب، ٥٣)

إن اللَّه هو ملتجأ المؤمن في كلا العالمين. فمن يتوكل على اللَّه فهو حسبه. ويعود إليه أمر كل راحة فردية أو إجتماعية أو سعادة، فعليه التوكل، وهو المستعان جَلَّ وعلا.

والتسليم لغة هو إحناء الرأس تقبلاً لما قد يصيب المرء من حوادث دون أن يعترض عليها أو يشتكي، وخروجه منها بكل أمن وسلامة. والتسليم هو فعل من أفعال القلب، يؤمن لنا السلامة والنجاة من مرض الإعتراض والشكوى على الشريعة الشريفة والتقدير الإلهي، والطلبات التي لا تتناسب مع الإخلاص، والرغبات النفسانية التي تتعارض مع الأوامر الإلهية، والشبهات حول الأخبار التي أخبرنا بها رب العالمين.

وحال التسليم لا يمكن تحققه إلا من خلال الوصول إلى إحساس بالإعتماد هو جزء في مرتبة الإطمئنان. ويجب على من يعتمد عليه المرء في هذه المرتبة أن يكون ذا وصف يمكن للمرء من خلاله الاعتماد عليه. وبالتالي، فإن التسليم هو إحساس لا يمكن به إلا مع اللَّه تعالى وذلك من خلال الإيمان والوصول به إلى درجة الإطمئنان بأن؛

- القوة والقدرة هي لله وحده،

- ما من قوة يمكن لها أن تضر أحداً أو تنفعه إلا إذنه،
- كل شيء فانٍ إلا وجهه،
- كل شيء بحاجة إليه، وهو لا يحتاج لأي شيء أو أحد،
- ليس كمثله أحد.

ولهذا السبب، إن التسليم بقدر اللَّه لا يأتي إلا من خلال معرفته جَلَّ وعلا والإيمان به. إن التسليم هو أهم نوع من أنواع التجاء القلب إلى اللَّه في تكوين لخلاصة العبادة. وهذا التوجه يبتدأ بالإيمان، ويزداد كلما ازدادت المعرفة به جَلَّ وعلا.

ولقد أظهر لنا إبراهيم عليه السلام أجمل أنواع الأمثلة على التسليم لقدرة اللَّه وقدره. فهو الذي لا يشغل قلبه إلا اللَّه وحده. ولهذا تسأل الملائكة ربها فتقول:

"- يا ربي! كيف يمكن لإبراهيم أن يكون خليلاً لك ولديه روح وولد ومال!؟"

وبين اللَّه تعالى وأظهر للملائكة تسليم إبراهيم عليه السلام القاطع بقضاء اللَّه وقدره الذي لم يشبه أي نوع من الإعتراض لثلاث مرات متتالية. وستبقى هذه الأمثلة الثلاثة بكل ما تحتويه من امتحانات ونتائج، مثالاً للأمة إلى يوم القيامة.

عندما أريد لإبراهيم عليه السلام أن يلقى في النار، أتته الملائكة تعرض عليه العون والمساعدة. ولكنه قال حينها:

"- لا حاجة لي بكم! فمن ذا الذي أعطى النار قدرة الإحراق؟"

وقال بعدها: «إن اللّه هو نعم الوكيل!» ملتجئاً إلى اللّه وحده.

وأمام هذا التسليم بقضاء اللَّه وقدره، أمر اللَّه تعالى النار فقال:

"- يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم!"

كذلك الأمر، وتسليماً منهما بقضاء اللَّه وقدره، سار الأب وابنه أحدهما مضحياً وآخر الأضحية دون أن يتمكن الشيطان من إفساد ذلك الرابط الذي يتعلقان به بربهما سبحانه. وهكذا، وفي اللحظة الحاسمة، يأتي اللطف الإلهي فيفتديه عليه السلام بكبش أنزله اللَّه من الجنة.

كما أصبحت ثروة إبراهيم عليه السلام بلا أهمية أمام ذكر جبريل عليه السلام لله جَلَّ وعلا حيث قال له: "خذها واذهب بها!".

يعرف رويم رحمه اللّه التصوف بقوله:

"التصوف هو تسليم النفس للإرادة الإلهية..."

العبادة تسليم. لأن اللّه لا يريد للعبد أن يكون عبداً لغيره. ويريد له التخلص من مقبض الهوس والهوى.

تقول الآيات الكريمة:

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ...﴾ (الإسراء، ٢٣)

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ (الجاثية، ٢٣)

إن التسليم هو فعل الطاعة المعتمد على الحب. وبسبب بركة الطاعة والتسليم بقضاء اللَّه وقدره، لم تشكل نفس إبراهيم عليه السلام، ولا ماله ولا ولده عائقاً في طريقه لربه تجلى وعلا. وأصبحت فريضة الحج أجمل رمز يستمر إلى يوم القيامة تعبيراً على تسليمه وتوكله على اللَّه. لأن إبراهيم عليه السلام كان دائماً بذكر بلسانه مترجماً لحالة قلبه فيقول:

﴿...أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة، ١٣١)

إن فريضة الحج التي هي رمز لمشهد التوكل والتسليم عند سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، هي في نفس الوقت عبادة مليئة بالحب للحق تعالى. وهي مدخل إلى المغفرة الإلهية عبر أحاسيس التوكل والتسليم بعيداً عن رداء الصفات البشرية. ففي موسم الحج، ينخلع الحاج عن رتب الدنيا ومنازلها كافة فيلبس قطعتين من القماش تغطي جسده من الأعلى والأسفل، ويتكشف رأسه وقدميه، ويصبح بهذا الشكل في مشهد للتسليم التام الذي يعبر عن التجائه لربه تعالى من أعماق فؤاده وقلبه.

وفترة الإحرام فترة مميزة، لا يجب قطع أي عشب فيها، ولا إسقاط أي شعرة، ولا يحل فيها قتل أي من المخلوقات. فيحرم أثناء هذه العبادة كل من الرفث والفسوق والجدال[1]. فلا مجال اليوم إلا

١ أنظر سورة البقرة، الآية ١٩٧. الرفث: هو القيام بالعملية الجنسية، أو التحدث في أي شأن من شؤونها. ويذهب البعض إلى أنها تعني أي

لمحبة اللَّه تعالى ومرحمته ورعايته يمد بها عباده ومخلوقاته.

وهكذا، فإن عبادة الحج تظهر لنا بشكل واضح أن التخلص من الخطايا لا يمكن إلا من خلال بركة العبادة التي نتكل فيها على الحق جَلَّ وعلا بكل توكل وتسليم.

نسأل اللَّه تعالى أن يمن علينا بعمر نقضيه بالتوكل والتسليم لوجهه! وتكون الذات الإلهية فيها هي ملجؤنا واتكالنا الأعظم الوحيد! ونسأله تعالى أن يرزق أفئدتنا نصيبها من بركة الحج!

آمين...

كلمة تحمل أي معنى سيء أيضاً. الفسق: هو كل فعل من الأفعال المحرمة.
الجدال: المناقشات التي لا لزوم لها، والمجادلة.



حضرة لوط عليه السلام

داعي الهداية لشعب السدوم

المنجرون إلى كل نوع من أنواع الرذيلة وقلة الأخلاق

حضرة سيدنا لوط

عليه السلام

هو ابن حران أخو إبراهيم عليه السلام الذي ذكر اسمه في القرآن الكريم سبعةً وعشرين مرة.

كان لوط عليه السلام هو أول من آمن لإبراهيم عليه السلام، وصاحب شرف الهجرة معه في سبيل اللّٰه، متعبداً على شريعة سيدنا إبراهيم عليه السلام، وأهل للعبادة والكرم والصبر، والتقوى وحسن الضيافة. وكان يعمل في الزراعة معتمداً على معيشته من تعب يديه.

يقول اللّٰه تعالى:

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ. وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الأنبياء، ٧٤-٧٥)

﴿وَإِسْمعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

(الأنعام، ٨٦)

بدأ نبي اللّٰه لوط عليه السلام بإيفاء رسالته النبوية مع شعب السدوم. فبدأ يدعوهم إلى عبادة الحق جَلَّ وعلا.

شعب السدوم

وكان شعب السدوم شعباَ رذيلاً خالياً من الأخلاق. فكان مجتمعاً يرتكب كل نوع من أنواع سوء الأخلاق التي لم يقم بها أي مجتمع قبلهم. فاعتادوا على ارتكاب الأفعال الذميمة والمقرفة بكل جرأة بل وذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك من الأفعال. فكانوا لا يستمعون لمن يحاول إصلاحهم وهدايتهم فيقولون:

"أخرِجُوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون!"

ونسي هذا المجتمع كل أنواع العِفّةِ والحياء والشرف، وجهروا بفعل أمر دنيء لا يمكن لأحد أن يجده حتى في مجتمع الحيوانات الذي قارنهم القرآن الكريم بهم بأن أكد بأنهم أدنى منهم مرتبة ورفعة فقال: «بل هم أضل»، أي أقل مرتبة من الحيوان نفسه.

وهكذا، كانت مهمة لوط ﷺ دعوة هذا القوم السيء الطالع على هذا القدر من الدناءة. فكان يدعوهم ليل نهار بكل عزم ومجاهدة. ويروي لنا القرآن الكريم هذه القصة في الآيات الكريمة فيقول اللّه تعالى:

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى

رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ. وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (الشعراء، ١٦١-١٦٦)

كذب قوم لوط عليه السلام نبيهم بشكل مباشر. ولم يؤمنوا لدعوته. فبدأ لوط عليه السلام يبين لهم شدة سوء ما يفعلون من الرذيلة فقال لهم:

﴿...قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾(الأعراف، ٨٠)

وبين لهم أن ما يقومون به من أعمال سيئة ستكون مصدراً يجر بهم إلى الهاوية. فما كان منهم إلا أن حاولوا إخراج لوط عليه السلام من مدينتهم. يقول تعالى:

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (الأعراف، ٨٢)

إن التطهر، والشرف والعفة، تعتبر لدى هذا القوم، الغارق في الرذيلة وانعدام الأخلاق، أمراً محرماً غير مرحب به. فكانوا يشعرون بالضيق من مشاهد الطهر لدى الناس لما هم عليه من تغذية روحية من الرواسب (القمامة). فعمدوا إلى التهديد بقولهم:

﴿...قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ (الشعراء، ١٦٧)

فذكرهم لوط عليه السلام بعذاب اللّه:

﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ (القمر، ٣٦)

ولكنهم لم يهتموا للتهديد الإلهي ولم يستوعبوا قدر العذاب الذي سيصيبهم من خلاله. فتجرؤا على تحدي لوط عليه السلام بكل جرأة وسفالة فقالوا:

﴿...ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (العنكبوت، ٢٩)

ولم يقتربوا بذلك من الإمتناع عن الشذوذ الذي هم عليه.

الصيحة (الصوت الرهيب) ومطر الحجارة الحامية

بحسب إحدى الروايات، استمر لوط عليه السلام بدعوة قومه أربعين سنة كاملة في ظروف صعبة جداً. ووصل حال قومه إلى درجة من الظلم والشذوذ لا يمكن تحمله أكثر من ذلك. فكان شعب السدوم مستحقاً للعذاب الإلهي بل وكانوا يطالبون به بكل شدة وجرأة. فما كان من لوط عليه السلام إلا أن التجأ إلى ربه، وطلب منه العون والمساعدة. فناجى ربه تعالى بقوله:

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (الشعراء، ١٦٩)

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (العنكبوت، ٣٠)

لقد عمل سنوات طويلة لسعادة وهداية قومه، ولم يؤمن معه برغم ذلك إلا ابنتيه مع نفر قليل منهم. وحتى زوجته كانت مع القوم الضالين. ولهذا، كان هذا الدعاء هو الملجأ الأخير للوط عليه السلام.

ويرسل اللّٰه تعالى ملائكته ليهلك قوم لوط. وحتى هؤلاء الملائكة الذين أرسلهم اللّٰه ﷻ إلى لوط ﵇ على شكل فتيان، كانت سبباً في تفجر رغبات قومه الذين اتخذوا من اللواط شذوذاً لهم. ولهذا، عمدوا إلى المطالبة بهؤلاء الضيوف من الفتيان طلباً للرذيلة معهم. يتحدث القرآن الكريم عن هذا الأمر فيقول:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (هود، ٧٧)

إذ أن لوطاً ﵇ عندما رأى الملائكة على شكل شباب يافعين لم يعرفهم وظنهم من البشر فخاف عليهم من اغتصاب قومه لهم. إذ أن الآية ٨٠ والآية ٨١ من سورة الأعراف تتحدث عن هذا الأمر وما وصل إليه قوم لوط من شدة التعطش للرذيلة والفاحشة وكذلك الآية ٧٨ من سورة هود

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ (هود، ٧٨)

وبحسب بعض التفاسير، فإن المقصود من دعوة لوط ﵇ لقومه بالزواج من بناته لم تكن بمعناها بناته من صلبه، وإنما نساء قومه. لأنه لم يكن لديه إلا ابنتين اثنتين. وباعتبار أن كل نبي من أنبياء اللّٰه هو سيد القوم ووالدهم المعنوي جاء قول لوط ﵇

على شكل: "هؤلاء بناتي". ولكن شعب السدوم الذين غابت عن بصيرتهم الهداية قالوا:

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ. قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود، ٧٩-٨٠)

يوضح النبي ﷺ مقولة لوط عليه السلام إلى قومه بعد سرده لأحداث هذه الحادثة فيقول عليه الصلاة والسلام في حديث أخرجه ابن جرير عن قتادة:

"...رَحِمَ اللَّهُ لُوطًا إِنْ كَانَ لَيَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ: لَوْ أَنَّ لِيَ بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، قَالَ: فَمَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا بَعْدَهُ إِلَّا فِي ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ" (ابن حبان، جـ١٤، ٨٦)

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود، ٨١)

ولهذا، على الرغم من تقدم القوم الشاذين الضالين إلى باب لوط عليه السلام للمرة الأخيرة، عميت أعينهم جميعاً فجأة في لحظة واحدة. تتحدث الآية الكريمة عن هذه الحقيقة بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾

(القمر، ٣٧)

وبحسب رواية القاضي البيضاوي وفخر الدين الرازي، كان أحد هؤلاء الملائكة هو جبريل عليه السلام. فعندما كسر الجمع الباب ودخلوا إلى الدار قام جبريل عليه السلام بحركة أعمت عيونهم جميعاً. فلم يتمكنوا حتى من الوصول إلى مخرج الباب فيهربوا. بل إن لوطاً عليه السلام كان يمسك بهم الواحد تلو الآخر ويدلهم على طريق الخروج من البيت.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾
(هود، ٨٢-٨٣)

تروي الآيات ٥٨-٧٧ من سورة الحجر قصة حلول العذاب الإلهي وهلاك قوم لوط بأسلوب روائي مختلف.

كما يصف القرآن الكريم حالة البلدة التي عاش فيها هذا القوم بكلمة «المؤتفكة» التي تعني المقلوبة رأساً على عقب.

عقاباً لهم على ارتكابهم فعلاً شنيعاً مقرفاً هو ممارسة اللواط، عذب اللّٰه تعالى قوم لوط بأن أرسل عليهم في باديء الأمر صوتاً شديداً مرعباً، تبعه بعد ذلك قلب الملائكة لبلدتهم رأساً على عقب، ومن ثم أمر عليهم حجارة من سجيل منضود، في مشهد مرعب للعذاب يمحو هذه الأمة من مشهد التاريخ كاملة.

ويترك اللّٰه تعالى آثار هذا العذاب عبرة لمن سيخلفهم من الناس فيقول جناب الحق ﷻ:

﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ. وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ. إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحجر، ٧٥-٧٧)

وتتحدث سورة العنكبوت أيضاً في الآية ٣٥ عن عذاب قوم لوط مبينة لنا أن اللّٰه تعالى قد ترك في تلك المدينة آثاراً وعلامات واضحة تبين للأمم القادمة هذا الغضب الإلهي وتدعوهم للعبرة منها. يقول اللّٰه تعالى:

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ العنكبوت، ٣٥)

ويفسر البعض هذه الآيات بأنها ما يروى من قصص وحكايات عن هذا العذاب، وبقايا القرية المدمرة، والحجارة التي أمطرت من السماء، والأنهار الداكنة اللون التي تعبر في المكان.

ويفسر فخر الدين الرازي قوله تعالى: "وإنها لبسبيل مقيم" معتمداً في تفسيره على أن هذه الآيات الكريمة من قصة لوط عليه السلام إنما أنزلت إلى مشركي مكة بداية، وهم الذين كانوا يسلكون في طريقهم التجارية بين مكة والشام بوادي لوط الذي يقع على جنوب رحلتهم. ويوضح بأن آثار قوم لوط يجب البحث عليها في هذا الموقع إذن.

نساء لوط وأولاده

عندما بدأ لوط عليه السلام دعوته وكلف بالنبوة، كان متزوجاً من امرأة اسمها فوات كانت مِمَّن آمن به. ولكن زوجته هذه توفيت بعد عشرين سنة. فتزوج لوط عليه السلام بامرأة من قوم السدوم اسمها واحلة. لكن هذه الزوجة كانت امرأة منافقة. فكانت تسكت عن شذوذ قومها وكفرهم. بل وكانت تدعم سراً قومها ضد لوط عليه السلام.

ففي إحدى أوقات المغرب، وعندما أتى الملائكة رضوان اللَّه عليهم إلى لوط عليه السلام على هيئة الشباب اليافعين، جميلي الوجه والمحيا، أسرعت واحلة إلى قومها تنبؤهم بخبر ذلك. فخانت بذلك لوطاً عليه السلام. وكان ذلك سبباً رئيسياً في هلاكها مع قومها.

وكان للوط عليه السلام ابنتان من المؤمنات. وخرجت كلاهما مع لوط عليه السلام ومن آمن معه من الناس قبيل إهلاك اللَّه لشعب السدوم فكانتا ممن نجا معه.

ثم ذهب من نجا منهم معه برفقة لوط عليه السلام إلى جوار إبراهيم عليه السلام. فقام إبراهيم عليه السلام بتزويج هاتين البنتين من رجلين مؤمنين من قومه. فكرم اللَّه تعالى بذلك لوطاً عليه السلام ونسله. فكان أهل مدين من نسل ابنتيه عليه السلام.

الأفعال السيئة الموجودة في قوم لوط وأسباب الهلاك

١. عبادتهم للأصنام

٢. ممارستهم للواط (أي مجامعة الرجل للرجل).

يروي ابن عباس ﵄ عن رسول اللّٰه ﷺ يقول:

"مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ" (الترمذي، الحدود، ٢٤/ ١٤٥٦؛ أبو داود، الحدود ٢٨/ ٤٤٦٢)

وفي رواية أخرى، أن رسول اللّٰه ﷺ كرر ثلاث مرات قوله:

"ملعون من عمل عمل قوم لوط" (أحمد، ١، ٣١٧)

يقول مالك بن دينار:

"لم يرتكب أي من الأمم السابقة فاحشة اللواط. إلا قوم لوط الذين بدأ معهم هذا الفعل الشنيع. وكان الشيطان هو من علمهم هذا الفعل. وعندما بدأ الناس بممارسة هذا الفعل الذي يخالف الخلق، اتجهوا نحو الغضب والعذاب الإلهي. لقد وهب اللّٰه تعالى الناس الشهوة زيادة في النسل. ولهذا، فإن استخدامها في غير غايتها وخارج نطاق حكمتها هو تحرك بغفلة وجهل من الإنسان وشهوانية. وهو ما ينزل بالإنسانية من مرتبة الشرف والكرامة إلى أسفل من موضع القدم بل إلى مرتبة أدنى من الحيوانات."

٣. القتل عبر اللواط:

عندما كان الأراذل من قوم لوط يريدون أن يقتلوا أحداً من الناس، كانوا يأمرون الناس بممارسة فعل اللواط معه أولاً إهانة له وتشديداً في الأذية والضرر، ويقتلونه بعد ذلك.

٤. كان قوم السدوم يمارسون فجورهم علانية. وكانوا يعيبون من تعفف منهم. بل وصل بهم الحال من الدنو أن يجعلوا من ضراطهم بشكل علني وسبباً في التسلية واللعب.

بل وذهب قوم لوط في فجورهم وعصيانهم لدرجة كانوا يرفضون وجود من تعفف بينهم فكانوا يقولون للوط عليه السلام:

"- يا لوط! لئن لم تنته عن هذه الأقوال (النصائح)، فإنك بالتأكيد ستطرد (من مدينتنا)!"

٥. كانوا يقطعون الطريق؛ فكانوا يرمون الحجارة الكبيرة على المارة من الطريق.

كانوا يجلسون على جنب الطريق، ويرمون من مر من الناس بالحجارة. وإذا مر غريب من هذه الطريق، رموه بالحجارة استهزاءاً وأذية.

٦. النميمة (نقل الأحاديث)

٧. البخل.

يروي الحسن البصري أن رسول اللَّه ﷺ عندما فرغ من سرده لأسباب عذاب قوم لوط أكمل في حديثه فقال:

"عَشْرُ خِصَال عَمِلَهَا قَوْمُ لُوطٍ بِهَا أُهْلِكُوا وَتَزِيدُهَا أُمَّتِي بِخَلَّةٍ: إِتْيَانُ الرِّجَالِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً وَرَمْيُهُمْ بِالجَلاَهِقِ وَالْخَذْفِ وَلَعِبُهُمْ بِالْحَمَامِ وَضَرْبُ الدُّفُوفِ وَشُرْبُ الخُمُورِ وَقَصُّ اللِّحْيَةِ وَطُولُ الشَّارِبِ وَالصَّفِيرُ وَالتَّصْفِيقُ وَلِبَاسُ الحَرِير وَتَزِيدُهَا أُمَّتِي بِخَلَّةٍ: إِتْيَانُ النِّسَاءِ بَعْضِهِنَّ بَعْضاً "(السيوطي، الجامع الصغير، رقم: ٨١٥٠)

يأمر اللَّه سبحانه وتعالى بأخذ العبرة من هلاك قوم لوط، ويبين بأنه ترك آثار الأمم السابقة التي أهلكها عبرة لتاريخ الإنسانية.

وبالفعل، إن "الآيات الواضحة" التي يمكن للمرء رؤيتها في وادي لوط هي غريبة إلى أبعد درجة. فالأحداث التي تجري على أطراف وادي لوط، إضافة إلى الوضع الجيولوجي لهذه الأراضي هو ملفت جداً للنظر. فهذا الوادي مثلاً هو منخفض عن سطح البحر الأبيض المتوسط بأربعمئة متر. وأعمق نقطة في هذا الوادي هي على عمق أربعمئة متر أيضاً. أي أنها على عمق ثمانمئة متر عن سطح البحر الأبيض المتوسط. علماً أن أعمق نقطة عن سطح البحر لا تتجاوز مئة متر فقط إلا وادي لوط. وكأن اللَّه تعالى أراد بذلك أن يبين مدى سفالة ودناءة قوم لوط من خلال مستوى الأرض التي عاشوا فيها.

كما أن سورة الروم في الآية الثالثة منها تتحدث عن هذه الأرض والمنطقة فتصفها بقوله تعالى :«أدنى الأرض: أي أخفض منطقة على سطح الأرض».

وعلى الرغم من أن هذا القول يفسر أيضاً على أنه «أقرب مكان» إلى المنطقة التي يعيش فيها العرب، إلا أن المعنى الأصلي للكلمة هو «أسفل أو أخفض منطقة على سطح الأرض». علماً أنه مع تقنيات العلم الحديث، وعندما تم البحث من خلاله على أكثر المناطق انخفاضاً على سطح الأرض، تبين أن هذا المكان هو وادي لوط الذي تمَّت الإشارة إليه في القرآن الكريم في هذه الآية.

ولكون القرآن الكريم تنزل في فترة لم يكن من الممكن التوصل بها علمياً إلى مثل هذه الحقيقة، فإن هذه الآية الكريمة أيضاً هي بمثابة الدليل القاطع أيضاً على تأكيد نزول القرآن الكريم بأنه كلام اللّه تعالى، خصوصاً بعدما تم تأكيد هذا الأمر في هذا الزمن باستخدام الأدلة العلمية الواضحة.

ومن خصائص بُحَيْرة وادي لوط أيضاً، أن نسبة الملح فيه أيضاً هي بنسبة ثلاثين في المئة. ولهذا، فإنه لا يمكن في هذه البحيرة للسمك أو النبات أن يعيش. ولهذا، يقال عن هذه البحيرة أيضاً «البحر الميت». لتكون هذه الحقيقة أيضاً عبرة أخرى بأنه حتى الحيوانات لا يمكن لها العيش في هذا المكان الملعون. هذه

البحيرة التي هي بلون الزفت، تنشر رائحة كريهة أيضاً. وكأن هذه البحيرة تحدث البشرية بِصفاتها هذه عن الخطايا التي ارتكبت في جوارها.

ويروى أن هذه القصة التي تحدث عنها القرآن الكريم محدثاً عن هذا القوم، قد حصلت في السنوات ١٨٠٠ قبل الميلاد تقريباً. وبسبب كثافة الملح الموجود فيها، يمكن مشاهدة الأشجار التي بقيت محنطة في منطقة السدوم المغمورة التي أتى فيها عذاب اللَّه تعالى. أما بقايا وآثار هذه المدينة فإنها بسبب تأثير عذاب اللَّه قد غرقت في بطن الأرض.

ومن الأحداث المشابهة لما حصل في مدن السدوم-المغمورة من عذاب إلهي، فإن «فاجعة البومباي» هي مشابهة لها جداً:

هلاك قوم البومباي

إن البومباي هي رمز لبقايا الإمبرطورية الرومانية الموجودة في إيطاليا. ومدينة البومباي أيضاً التي اشتهرت باللواط غرقت بنفس الأسلوب أيضاً الذي أهلك اللَّه تعالى به قوم لوط.

فبحسب المعلومات التاريخية المسجلة، كانت هذه المدينة قبل هلاكها هي مركزاً لقلة الأدب والشذوذ. ولهذا، وبعد عيسى عليه السلام بسبعين سنة، تتفجر حمم بركان فزوف بشكل مفاجيء وتمحو

هذه المدينة عن الخارطة، ولا ينجو أحد من هذه المدينة من عذاب اللّٰه. فرجم أهل هذه المدينة الشاذون بما هم عليه من حماقة وتعاسة أثناء قيامهم بهذه الرذيلة فما نجا منهم أحد.

وحدثت هذه الواقعة في لحظة واحدة. وهو ما كان سبباً في وصول عذاب اللّٰه إليهم بشكل مفاجيء. وتبقى آثارهم كما هي عليه حتى هذه اللحظة دون أن تتعرض لأي نوع من التلف في حكمة وموعظة وعبرة للبشرية.

يخبر القرآن الكريم عن مثل هذا الهلاك الآني بقوله:

﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (يس، ٢٩)

لقد هلك شعب البومباي بهذه الطريقة في آن واحدة. وبقيت مناظر ومشاهد هذا القوم أكثر من ألف وتسعمائة سنة وحتى الآن ترينا قبح وجوه هذا الشعب السيء الطالع، في لوحة تشكل عبرة لنا من التاريخ.

يقول اللّٰه تعالى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (مريم، ٩٨)

إن صحف التاريخ المليئة بالعبر، هي وكأنها مقبرة للأمم. فكان الكفر، وقلة الأخلاق، والظلم هي دائماً الأسباب الرئيسية

لهلاك وزوال هذه الأمم. وكانت سكرات الموت لدى هذه الأقوام الظالمة الكافرة هي أعظم تجلٍّ للإنتقام الإلهي. وعلى الرغم من مرور العصور الكثيرة، بقي قوم البومباي حتى يومنا هذا، وكأنما هو لوحة للعبرة لمن رجم من الناس المجرمين. فكأنها سهوات إنسان تحول معنوياً إلى الحيوان!...

إن الغافل عن رؤية هذه العبر المتجلية، وهذه الحقائق المرئية، والمحروم من إدراك عبرها فيشاهدها بنظرة نفسانية، هو كما لو أنه مجرد هيكل بسيط لا يدرك ولا يعقل.

وهكذا، غرقت مدينة موضع شعب السدوم – المغمورة الذين ظنوا بسوء طالعهم من الشذوذ وقلة الحياء وانعدام العفة في باطن الأرض، وبقيت الآثار المنحوتة بعظمة بين الصخور لقوم عاد وثمود الذين اتخذوا من الأصنام آلهة لهم آثاراً وبيوتاً خاوية لا يمر عليها إلا الطيور العابرة!.


طبريا
الناصرة
بيروت
البحر الأبيض
نابلس
يافا
عمّان
أريحا
القدس
البحر الميت
قوم لوط
السدوم
إيلات (العقبة)
سيناء
البحر الأحمر
شمال
غرب
شرق
جنوب

جمال الأخلاق وحمايـة النسل

إن قيمة الإنسان الإساسية الذي خلق مثالاً للدقائق العليا، والبهجة اللا متناهية والعمق، هي أن ينال نصيبه من الإدراك لعظمة ربه وليعبد اللَّه تعالى.

إن هذا الكون وما يحتويه من كائنات، لم يكن أبداً عفوياً مصادفة بلا هدف ولا غاية. والإنسان فيه أيضاً ليس مجرد نتيجة للتصادف. ولم يخلق ليكون فارغ الرأس والتفكير. ففي خلق الإنسان قصد إلهي محدد. وهو أن يتمكن هذا الإنسان بما يمن عليه اللَّه من تجل لصفاته وكماله، أن يستخدمها بحق فيكون خليلاً لله تعالى. أما سائر المخلوقات الأخرى، فإنما خلقت إحياءً للإنسان نفسه. وأرسل الإنسان خليفة إلى هذه الأرض. والخلافة هي توكيل يعطى لمن يضحي من الناس. فيصبح اللَّه سبحانه وتعالى لمن يؤدي حق هذه الخلافة عينه التي يرى بها، وأذنه التي يسمع بها. وهو ما يمكن أن يتحقق من خلال التخلق بأخلاق القرآن الكريم. ويتحدث اللَّه سبحانه وتعالى عن نقطة الذروة في هذه الأخلاق فيقول: ﴿**وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلَقَّيهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّيهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾ (فصلت، ٣٤-٣٥)

والقرآن هو الذي يؤمن للإنسان الوصول إلى أعلى درجات الفضيلة والأخلاق. علماً أن كافة العبادات والأذكار هي ما يمكن وصولها إلى الكمال عبر استخدام الأخلاق الحميدة. ولهذا، نجد حسن البصري رحمه اللّٰه يرسل بالهدية شكراً لمن يقوم بغيبته من الناس.

إن الإنسان الذي أنزل إلى هذه الدنيا كمجموعة للبداشع والمحاسن الإلهية، أعطي حرية الاختيار بين الخير والشر بعد أن دخل في امتحان هذه الحياة. وترك ليجد في أعماق قلبه وروحه روحانية التقوى أو ينجر إلى الفسق والفجور المختبئين في نفسه.

وخلقه تعالى للصفات السيئة، إن هو إلا بهدف تأمين هذا الامتحان. يذكر القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوّيهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْويهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّيهَا. وَقَدْ خَابَ مَن دَسّيهَا﴾ (الشمس، ٧-١٠)

إذن، إن ما يجعل من الإنسان إنساناً، هو أن يتمثل بالخصال الحسنة. وما يخرجه من إنسانيته ابتداؤه للخصال السيئة.

وهو عندما يعيش في الحياة الدنيا متنعماً فيها بما خلقه اللّٰه تعالى له، ويعمل على الخروج عن أوامر ونواهي ربه، فإنما يكون حينها في حماقة وعاقبتها وخيمة وشديدة الظلمة. فمن لا يدخل

في نظام الأخلاق والإيمان من الكفرة والظالمين، هم أولئك الذين سيحل عليهم الإنتقام الإلهي. وأفضل الطرق للعيش بإنسانية هو التمسك بكل من الدين والأخلاق. وأفضل مثال لجمال هذه الأخلاق وكمالها، هو سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ.

تقول الآية القرآنية الكريمة:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب، ٢١)

ويقول رسولنا محمد ﷺ:

"أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي" (السيوطي، الجامع الصغير، رقم: ١٢٦٢) مشيراً بذلك إلى رفعة الأخلاق المحمدية وعلوها.

ولهذا، فإن سر الإنسان هو في الحقيقة المحمدية. فبقدر ما تتعلق به، عليه الصلاة والسلام، كلما كنت مضطلعاً على الأسرار الإلهية، وقريباً منها.

أسأل اللّه تعالى أن يجمعنا تحت لواء رسول اللّه ﷺ للسعادة والأخلاق!

آمين!...

حماية النسل

إن تأسيس الأسرة والشرف والعرض والنسل، هي نتيجة طبيعية لحق الحياة الذي أنعم اللَّه تعالى به علينا.

ومنذ عهد آدم عليه السلام، وجميع أنبياء اللَّه ورسله ينظرون إلى قانون الزواج بشكل مقدس وجدية كبيرة تمكنهم من أدائه بأمن وسلامة. لأن المحافظة على النسل، هي ممكنة عبر مؤسسة الزواج وحده. أما من ربي خارج تنظيم العائلة، ومن بقي من النسل خارج أطر الزواج، فإنهم يكونون سبباً لبعثرة هذه الحياة، وعنصراً هادماً للرفاهية الإجتماعية، وسبباً في الفوضى. وما من حمق وغباء أشد على المرء من أن يبدل سعادة الزواج بغياهب الفحش!..

وتربية نسل أصيل، هو أسمى الأحاسيس وأسمى درجات السعادة الإنسانية. ويذكر لنا الحديث النبوي الشريف عن تربية الأولاد فيقول ﷺ:

"ما نحل والد ولدًا من نحل أفضل من أدب حسن" (الترمذي، البر، ٣٣)

وما يتعرض له المرء من محنة ومشقة في تربية أبنائه، فإنها تكون سبباً في العفو عنه مما ارتكبه من الخطايا.

إن اللَّه تعالى الذي خلق هذا الكون معبداً، لتتجلى فيه أنواع العبادة، قد بين لنا عبر قصص القرآن الكريم الذي هو نور وشفاء

وسعادة أبدية للناس، كيف أن اللّٰه تعالى مسح دول ومدن الشعوب الظالمة عن خارطة هذه الدنيا، ماحياً كل ما كانوا عليه من فقدان للشرف والقيم الإنسانية، وذلك ليكون ما فيه عبرة ومنارة للبشرية وإرشاداً لها.

نسأل اللّٰه تعالى أن يمن علينا باستخدام نعمه بما يرضيه جَلَّ وعلا!..

آمين!

المحتويات